خضير فليح الزيدي

شاي وخبز

حكايات

البيت والأزياء والطعام في العراق

سطور للنشر و التوزيع



حكايات

البيت والأزياء والطعام في العراق





شاي وخبز

خضير فليح الزيدي

Tea and bread

Khodeyr Falih Al - Zidi

الطبعة الأولى: 2017

إصدار دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا

هاتف: 07711002790 - 07700492576 - email: bal_alame@yahoo.com

First Published by Dar Sutour For Publishing and Distribution

Baghdad - Iraq - Al Mutnabi street - Jadeed Hasan Basha Entry

ISBN: 978- 1 - 77322- 084 - 0

الفهرس

شيء من ضرورة التقديم:

1 . بلاغة التحشيش:

والتحشيش في «العراق الجديد» من بلاغات عصر القهقهة الذي نرفل بعزه، يختلف كثيرا عمّا ورد فعله في بلدان الله، وقيل عنه أن جوازه لمشروط، فلم يرد في لسان العرب وكتاب الإصحاح والجامع ومعجم الوسيط أو في محيط العرب وحتى في الأعاجم مجتمعة شيء عن التحشيش الجديد، بكل مصادره أو جذوره اللغوية أو بصيغته الفاعلة اليوم، وكان آخرها ما ورد من إشارة خجولة في معجم «اللطائف في اللغة»، حتى أصابها من التحشيش مأخذا وسخاما بتعريتها بروح القهقهات، والتحشيش ـ كما تقول ـ ليس سوى من جذر الفعل «أحش العشب إحشاشا ـ وقيل جوازه ـ حشّا»، والآخر المقصود هنا في هذا المورد هو من الفعل «حَشّشَ»، أي دخّن نقيع الحشيش وفتيته، وهو النبات الطري المخدِّر في شعواطه ثم استنشاقه على دفعات إلى الصدر ثم الرأس. وما القهقهات الناتجة عنه إلا كبسولات مضادة لغول الكآبة المطاطية.

أما المقصود لدينا هنا بما آلَ إليه حال الحشاشين المساكين بمجونهم وخبلهم بمرحهم ونكوصهم، حشاشي الشاي القيري في حلقات

محافلهم السرية وحكاياتهم المتنافرة في موسم اللعب في خرزات لغة العربان والركبان، حيث فتحت اللغة الباب واسعا لتحديث آليات التحشيش وعصرنته، ليس في تحشيش مرادفات اللغة ومضاداتها، بل الشغل المتعالق في لب الحكايات.

حكاياتهم الساخرة بنكهة طعم التهكم اللاسع، ولذوعة السخرية ببهاراتها الحارقة بذرات الضحك الأبيض ونقيعها في محلول قهقهته، ثم التحول المنزلق بسرعة من أعلى المأساة لقعر ماعون التحشيش، وما «القميص والجمعة» إلا كناية عن «الخميس والجمعة» في التحشيش اللغوي الكلاسيكي، فلغتنا تقبل التحشيش على أثنين وربما أكثر، ففي جرسها الصوتي طقطقة لفقرات العمود الفقري للمفردات المتنافرة والجمل المتراصة والأفكار الشاردة، بتبادل الحروف فيما بين الكلمات حتى تدلّ على معنى آخر.

هي ليست من سريالية مدارس الغرب وعبثهم في لسانياتهم ونظرياتها، بل هي حكايتنا نحن بعبثنا وجنوننا عن ارتباك لحظة الزمن في حاضرنا القلق وغيوم مستقبلنا وماضينا المنفوخ، من أيام (محموء المليجي) التي أطلقها «عادل أمام» ليومنا هذا، والمسطرة قلقة حيال ضبط الحال الذي لا يثبت على نمط فوق سطور القياس. وعلى تحشيش الحكاية تدور الدوائر.

***

2. شاي محلّى بالكذب:

على أن شرب الشاي الأسود صيغة مثلى للتحايل والنصب

والتقفيص.. كيف؟ أنا أخبرك كيف يحدث ذلك: في المقهى يتبارى الحشاشون والقفاصون في تحشيشة لغوية تبدأ ولا تنتهي مع طقطقة استكانات الشاي الدائرة في حلبة المقهى. ولا تستغرب إن عشت سنين الحصار المريرة ستتعرّف على صدق الحكايات، حيث أقيمت محطات (أفخاخ النصب) على شكل أكشاك أو محال صغيرة أو حتى على الرصيف لبيع الشاي السفري في مقاه فقيرة المعنى، بحيث أنتجت التقفيصات اليومية البسيطة جيلا من القفاصين «الثعالبة المساكين» وهم بكل براءتهم دخلوا بجبهة سلام مع جيل آخر مستحدث من حشاشي المقاهي المستجدين في بيانهم الوحدوي غير المعلن.

كان الغرض من المقاهي السفرية بأشكالها الفنتازية استدراج «الذات» المنصوب عليه نحو شبكة تخت المقهى أو على دكّة الكونكريت المعدّة سلفا للمنصوب عليه، ثمة ترادف باستكانات من شاي الكذب، حتى يقع «رجل النصبة» في الفخ بعد نوبة من الخدر العجيب التي انتابته أثناء سرد الحكايات المترادفة: «لا يحلى الشاي إلا بطعم الكذب».. نحن بطبيعة ذواتنا كذابون أزليون.

ليس على طريقة العم جاك دريدا في «معجم» تاريخ كذبه ونهجه في مفهوم الكذب مقابل نسبية الحق، ولا على نهج العم كانط، فنقيضه لدى كانط ليس الواقعي أو الحقيقي بل الصحيح الكلي، إنما على طريقتنا نحن كما ورد في البيان الوحدوي للقفاصة، وهم جيل ضائع أنتجته حقبة الحصار الاقتصادي يتواءم في المقهى مع نخبة الحشاشين الأساتذة، فكذبنا ليس ظاهرة بل هو من صلب سلوكية مقبولة ومباركة، ويشهد تراثنا على ذلك. الكذب يجلب الرزق والصدق يطرده، معجون

بماء الكذب الأبيض فطرة وتربية.. فالمعذب في سجنه عليه أن يكذب ويخفي حقيقة اللا انتماء، والاعتراف خذلان وخيانة للعقائد. الكذب شطارة وشطّاره أساتذة مهرة في صياغة فن الكذب كما ورد في محطات التراث. يذكر جان جاك روسو أنه لا وجود للكذب النافع مطلقا، أما كيف مات أبو مسيلمة الحنفي إذن؟؟ يقول أحد الحشاشة هنا: «إنه مات في السكتة القلبية» لتسميته بالكذاب.

فنانون من الطراز الخاص في صياغة محترفة بفنون الكذب منقوعة بالحلفان، ذلك لتوفر جملة من عناصره الأساسية فينا، من خيال باذخ لحكايات عجائبية وخرافات ملساء وسياقات دقيقة ولغة مسبوكة بعناية، مع أعمدة رفع الشك بالحلفان الغليظ. ثمة فضاء وأرض خصبة للكذب الحداثوي، فهو لا ينبت كالنبات الطبيعي، بل هو صنعة شطار مهرة واحتراف لأهل المصلحة، سواء على تخت المقاهي أو في سيارات الأجرة أو في مجالس العزاء.. للكذب هنا بيئة صالحة ومقاربة للواقع المؤسطر أصلا.

الكذب الأنيق خير من الصدق المهلهل. جماليات كذب «القفاصة الجدد» في تمردهم على الأنساق القديمة وتفجير مكنونات وخبايا جديدة منه، الواقع أكثر غرابة حتى من خيال الكذب «حبيبي» والأخيرة حزام ناسف دون ذكر للفظ الجلالة «الله أكبر» لمصل الحكايات.

قام أهل التحشيش بثورة جمالية خارقة لمنظومة الكذب العراقي الجديدة، بتحديث آليات حدوتات الحكايات وتفجير أدوات الأفعال الكسولة بمواد عصرية، فالكذب ما بعد الحداثوي هو أمثولة عراقية على

أرصفة ودهاليز «الباب الشرجي»، فلم يعد ـ على سبيل المثال ـ طيران الفيل قضية تذكر بمنظوماتهم المتهالكة/ بعد أن حل نزول كل من طار إلى الأرض والتمشي في دروبها. ومشاهدة صورة الرئيس/ الزعيم/ الملك.. في وجه القمر أو البطيخة إلا من حقيقة فن الكذب الراسخ في الوجدان، كذلك من الممكن مشاهدة الأنبياء والقديسين يتمشون في الشوارع بمقاطع فيديو على المحمول وغير ذلك الكثير. الحداثة ونظام ما بعدها عراقية في منظومات الكذب.

3. على مسطرة الحكايات:

في السبعينات وما تلاها من القرن الماضي، ثمة نمط قد ضاع في متاهة التحولات الاجتماعية المتلاحقة، ومن باب الذكر لنموذج عينة حكائية فيها رائحة تحشيش الأفعال أنه:

حكاية: حسن دراجة:

لقد وجد «**حسن دراجة**» أفضل طريقة لاصطياد «الحلوين» هو أن يفتح محلا لـتأجير الدراجات الهوائية في منطقته مع مسجّل ناشيونال وبضعة كاسيتات لعبادي وسعدي وفاهم الجميلي، تلك هي العدة المطلوبة.

كان الرجل فاقدا لخاصية الاستدراج والغواية اللازمتين لهذه المصلحة، في مفاتحة الغلام الجميل ـ ابن البيوت ـ للصعود إلى البرج والتطلّع على زقزقة الفضاضي في داخل البرج، ومن ثم يحدث الانقلاب الأبيض على «الثورة»، أو ربما صعود الغلام أمامه على الدراجة للتنزه على شارع النهر مع الدخول إلى المطعم للتزود

بالفشافيش، أو البقاء معه في المحل ليلا لإصلاح إطارات الدراجات المثقوبة. لم يتغير الحال كثيرا فالملك ـ وهذه تسمية الغلام آنذاك ـ بقي عصيا على «حسن دراجة»، رغم بذخه في العطاء والكرم بشراء الهدايا والميداليات والقمصان والبجامات المقلّمة، حتى أنه أهمل الدراجات وتصليح العاطل منها، بعدما هام حبا في مليكه كحال الكثير من الذوات العراقية التي لم تصرّح بذلك، فالغلام كان عصيا للرضوخ له، وراح يهيم مع الأغاني الجديدة لسعدي الحلي في غزل الغلمان ويحفظها عن ظهر قلب، وبالنتيجة خسر رأسماله وتعطلت الدراجات وهو لم يحقق من طموحاته الغرامية سوى المواعيد: (ليس الرجل أبا مصلحة) قال عنه خبير صيد الغلمان: إن الرجل بحاجة إلى تدريب ومعايشة.

يكتب قطعة على باب محله «المحل للبيع لعدم التفرغ». ثم ينصحه أحد الحشاشين بعد موسم الكساد ببيع الدراجات بالتفصيخ على باعة الخردة فروش، يفعل ذلك وتنتهي دراجاته إلى مكب قمامة قريب.

وحكايات الدراجة وتحشيشاتها كثيرة أيضا، هكذا تولد الحكايات، ففي بطن كل واحدة العشرات من خرزات حكايا المسبحة التي لا تنتهي مطلقا. وفي مادة كل حكاية حادثة ما، هكذا:

حادث الحكاية: دراجة المعلم

يحكى أنه لم تعد مشاهدة منظر لدراجة هوائية محمولة ومربوطة على قمرة سيارة الفولكا العتيدة في جنوب البلد ووسطه، دالة هذا المشهد ـ مثلما شاع النمط - آنذاك أما لمعلم منقول من موقع لمدرسة نائية في تخوم مدينة ترابية إلى أخرى غير موجودة أصلا على الخريطة الإدارية

تقبع في عمق الأهوار، فالدراجة صنو المعلم، وكلما حاولت ضبط مقاسات المسطرة الانثروبولوجية على الأنماط وإخضاعها للفحص، تفلت الأمور وتخرج عن السيطرة، أو ربما يكون «البايسكل/ الدراجة» متلازمة حتمية لساعي البريد أو لقارئ مقاييس الكهرباء أو وكيل الأمن للمراقبة السرية، أو لطلاب مدرسة ريفية، أو لموظف الأنواء الجوية على تخوم المدينة، أو لسرب سباق لهواة الدراجات الهوائية. لا ثبات بالمرة لقياس النمط، سوى بعض تقاليد متذبذبة لا تعطي صورة واضحة عن المشهد المشوّش هذا. تحشيش مضبوط...

حكاية: تحشيشة حصارية

ثمة أمثلة لا تتلاءم مع قياسات المسطرة، تبدو فيها روح التحشيشة وقفشات الكلام مستترة في باطن الحكاية، مثلا صورة لطفل حصة تموين في السنة الخامسة للحصار التسعيني يشرب «حليب الفوح» بديلا عن حليب الكيكوز، الطفل أصبح رجلا اليوم، ينجو من غول المجاعة ويتزوج ثم يتحدث لأطفاله عن أسرار الطحين ونعمته، يذكر لهم: عندما شحَّ الطحين وحارت السلطة لتلافي النقص الحاصل في التوزيع، استحدثت خلطات عجيبة بشعارها الحماسي (تبا للمستحيل) من الجص والذرة الصفراء والدخن مع قليل من ذروق الطيور ونكهة التراب والحصى الناعم والحِلبة اليابسة والبرسيم المجفف مع نسبة من حبوب الشعير، لتمشي الأمور ويسكت نباح المعدة وينام الفقراء، لكن الأغرب في تلك الخلطات ما تمَّ اكتشافه من بذور عباد الشمس مع ذروق العصافير بنكهة الشعير، لم يصهل المحاصر من البرسيم، بل أحدثت الخلطة الجديدة عنده دوخة في الرأس واصفرار في البشرة

وقدرة غير مسيطر عليها في الضحك المتواصل بالمواقف الصعبة. انتهى الحصار، لكن تأثير الخلطة باقٍ منذ ذلك الحين والسخرية مستمرة والضحك على الذات أقصى غاية الضحك، حتى تحولت إلى طقوس من أساطير الذات العراقية.

أما التحشيشة الانثوبولوجية الثانية فهي تحشيشة موقف وليس تحشيشة لغوية، فبعد حلول عصر «الستوتة» مكان الفولكا والدراجة البخارية(الذبابة) مكان الهوائية، وحلول المعلم البسيط مكان المعلم الماركسي العتيد/ المتمرد/ الشاعر البليغ، هنا أذكر المعلم/ الشاعر المرحوم «سالم خلف لايذ» لكثرة تعاطيه الخمر ليلا والغياب المتكرر عن الدوام صباحا تم نقله من مدرسة بناحية العدل في لواء العمارة إلى أخرى في منطقة الأعويج في عمق الهور تابعة إداريا للواء الناصرية، كعقوبة رادعة بوشاية من أحد المفتشين التافهين، فكتب قصيدته ـ ذائعة الصيت ـ وضمّنها بطلب إلى المدير العام ومطلعها:

وبالعدل المُحبّب ما استقمنا فكيف بالأعويج نستقيم

ثم واحدة أخرى على عجل:

وأخرى عن مماحكات المعلم المخضرم والشاعر الشعبي المرحوم أيضا «كامل سواري» في شعرياته وخمرياته عن عالم التعليم والشعر والليالي الملاح. المعلم الشاعر كان قليل الحضور لمدرسته بسبب لياليه الملاح فتم نقله أيضا إلى مدرسة أخرى في منطقة الدواية كعقوبة رادعة، وعندما وصل خبر نقل سواري إلى مدير المدرسة وهو بدوره ينظم الشعر أيضا كتب:

دِك طبل وإلـــزم الزنجاري جابولك معلم كامل سواري

ولا سلوكيات مجتمعية سوى الطقوس المتضخمة كتقاليد قابلة للتطور والتزويق، وليس سوى حكايات الشفاهة هي الترجمان الدال على الذات العراقية القلقة. كمنقّب الآثار يستدل على الأثر من بقايا الرُقم الطينية، فأضبط مسطرتي من جديد على صورة لبنطلون كاوبوي في حكاية تائهة وأكلة عراقية لم تعد موجودة إلا في الأمثال والحكايات أو بصورة ملكية في الأسود والأبيض لشناشيل بيت بغدادي، إنه زمن ـ قبل فوات الأوان ـ.

وعلى ما تقدم سوف لا يطالبني القرّاء في حياء الحكايات وتحشيشاتها، وأنا أغرق في نقيع من رذيلة، وسط الشارع أو هرج السوق وحكايات المقهى ورتابة الأثاث في داخل البيت وتناقضاتها، فالمدينة تحولت بفضل وفرة مطاعمها وانتشار مقاهيها السفرية إلى معِدة عميقة الجب. نعم ثمة ذائقة فردية بطلتها الجمالية لكنها بقيت محصورة الأفق.

* * *

4. في غزل استكان الشاي

الحياة العراقية المنظورة من مكان زاويتي ـ على الأقل ـ يتقدم فيها الشاي على رمزية الخبز، خاصة إذا كان محلّى بالحكايات الكاذبة، فالشاي قيري الصبغة وعراقي الصنعة وهوية لطقس عراقي، به أستدلُّ على معنى الأنسنة العميقة، وعلى أنه ليس شرابا طقسيا فحسب، إنما هو الرابط الفاعل لأواصر الأحاديث التي يعوزها الترابط في جلسات سمر البيوت ومضايف الأرياف والأسواق، والشاي خير جليس وأنيس، وما أن تجد تجمعا للذوات تجد الشاي حاضرا، فهو الطارد للصداع

التاريخي في بلد الاحتكاكات التاريخية العظمى، وفي محاولة إحياء فايروسات الماضي الساخن، والشاي هو الماسك الكونكريتي لأطراف الحكايات الهاربة أو الخجولة أو المتعسّرة. طقطقة الخاشوقة الصغيرة على جداره هي موسيقى خاصة يسلطن عليها المنتشي بالشاي وطقسه.

يعمل غالبا على تبريد النفوس الساخنة ـ كما يُعتقد ـ ويميت جرثومة الشر برشفة أو رشفتين أو ثلاث، كما وقيل عنه إنه قبل الأكل مستحب للترحيب وحق الضيافة، وبعد الأكل يعتبر واجبا مجتمعيا لتصريف المأكولات الدسمة وتفتيتها بيسر وسهولة، لذلك جاء العنوان بصيغة «**شاي وخبز**» ليتقدم ببسالة على بركة الخبز.

***

5. مجهر المتلصص

كنت أرقب الحياة العراقية من خلال الجلوس على تخت المقهى لسنين طويلة، مدرسة المقهى مدعاة لنفاق يشبه الهرش المحبب للجلد، فالمقهى يبث السكينة والخدر وغوايته للكسل اللطيف. أتلصص بها عمّا يحدث من تطورات على ثالوث التكوين للذات العراقية، البيت وعمارته، في فوضى أثاثه ورتابتها، الأزياء في ألوانها وفصالها وتقليديتها، الخبز بوصفه رمزا للطعام المقدس وبركاته في دسومته ووفرته في المناسبات، الثالوث الذي رسم شكلا مظهريا للذات العراقية ومحركا لجوهرها، عبر تاريخ الجمهوريات السالفة من 1958 إلى 2003، فالطور الأول يسمى بالجمهورية القاسمية والثاني يسمى بالجمهورية العارفية الأولى والطور الثالث بالجمهورية العارفية الثانية والرابع يسمى

بالجمهورية البكرية والطور الخامس يسمى بالجمهورية الصدامية، وما قبلها بالملكية وما بعدها بالجمهورية التعددية الضائعة فقط.

في المقهى ليس سوى الشاي، والمقهى شاشة فضية تعرض فلما متواصلا عن خيبات الذات العراقية الحاكمة والمحكومة، وتخت المقهى يئن لهرمه وتقادم أخشابه المنخورة وثقل الحياة العراقية، واستكان الشاي يرقص في حلبة ماعونه الصغير، وسيمفونية إعلان حضوره بقوة هي طرب الحواس والذائقة وصداع الغياب، سيمفونية غرائبية، يصغي فيها العراقي «مسلطنا» على عزف خاشوقة الشاي بنقرها على جدار من زجاج رقيق لاستكان مذهّب بحزام لمّاع. معزوفة إيقاعية وطقطقة تُسمع رنّتها من خلف الجدران، فتستدل الذات على شطرها الآخر في البيت أو المقهى أو غرفة الحارس أو موضع الجند. الشاي رمز وحدتنا، يوحّدنا كدالة للحياة العراقية الحية، ومن دونه لا حياة تذكر لنا مطلقا.

***

6. بلاغة الطقس والنشوة:

لأكثر من سبب منظور أيضا يتقدم الشاي على الخبز في الحياة العراقية، منها إننا نعيش في مقهى مفتوح، يمتد من مقهى إلى آخر، فالمقهى الرمزي هذا يسع الجميع للمشاركة في الحديث أو حتى التناطح في خامات الكلام وتكتيك اللغة لاستدراج الذكريات المعتّقة في الحكايات بعد إضافة الفلفل والبهارات لها، فالحكاية تحتاج حكاء ماهرا بخيال ساحر لبرمجة سير أفعالها وفق الجلاس وأهوائهم، ومن

شعارات الحصار، ما المقهى السفري إلا بلسم البطالة وطاردا لشبحها. وما داخ المحللون إلا بالسيجارة بعد شرب الشاي أو قبله. وما شاي الفحم إلا أكثر خدرا وانتشاء من قوري شاي فوق الرمل والحصى لكن يبقى شاي التنور بالرماد وشاي منقلة العائلة ـ كما يخبرنا حشاش الشاي والناطق باسم الجماعة ـ هو الجنة الأرضية وفق التعاليم.

الشاي قوت حقيقي أكثر حميمية من الخبز برمزيته العالية، «الشاي أفيون الشعوب» وكحوله جائز ومشروع إلى يوم الدين، بل أفيون العراقيين وحدهم ورواد خمرته الشرعية، به تعيش الذات ولا بأس مع كسرة خبز مغمّسة بنقيعه الأسود من باب الاحتياط ليس إلا.

يقدم المحاصرون من الذوات العراقية إبان عقد التسعينات اعتذارهم الشديد للإساءة لطقس الشاي ورديف عمره وصديق لحمته، السكر المذاب في نقيعه، بآلية جديدة ومبتكرة لخبطة شاي الحصار الجديدة، عندما استبدلوا سكّره ورمز حلاوته بعصير التمر أقصد هنا بما يسمى بـ«الدبس» ووضعوه مكبلا خجلا في قعر استكان الشاي كبديل عن السكر الأبيض، ينتحر الشاي لمصيره الأسود وطعمه الباهت وينكسر الاستكان.

ترى هل سمعت كيف تتعامل الذات العراقية مع طقس الشاي في حفلة الحر الجحيمي تحت تأثير درجة حر لأكثر من خمسين درجة مئوية؟

تروق حفلة الشاي مع طقطقة سيمفونية الخاشوقة الصغيرة بجدار الاستكان لتذيب الأرواح المبهوتة والسكر المتحجر معا. تبرد تلك الأرواح ثم ما تلبث أن تخدر وبعد الخدر نشوة وبعد النشوة تهمد بنوم عميق. الخبز متاح بطريقة وأخرى لجميع الكائنات، لكن الشاي دليل

آدميتنا المهشمة وكحول أرواحنا القلقة. في الشاي نكهة روح لنسغ العراقية التائهة، وهو شاشة ناظور لمعرفة أسرار الذات من الداخل وبوحها في تنويم ما يشبه المغناطيسي.

إن قضية التصدي لتحتانيات المجتمع العراقي، تبدو اليوم قضية شائكة وملتبسة يهرب منها معظم الكتاب في هذا الوقت، فالصدمة الأولى قائمة في اكتشاف كلي لمصطلح (المجتمع العراقي) وتهلهل جغرافيته الواسعة بالنسبة للجماعات العراقية المختلفة، حتى الإمساك بفكرة الوحدة المجتمعية التي يمكن إخضاع ذواتها للدرس والفحص تبدو قضية فنتازية لا رأس لها، فنحن كمحصلة لم نصل بعد إلى عتبة المجتمعات التي تُدرَس في عالم اللحظة الماثلة كمجتمعات تتجاوب ماديا مع المعطى الأكاديمي للدرس. غير أن دعم الشواهد في سيل الحكايات والوقائع جدير بحلحلة عقد الجماعة أثناء سير الدراسة. الحكايات أبلغ أثر من النظريات.. لذلك سأورد حكاية (صاحب الستوتة) كمفتتح لإنضاج فكرة الخروج من جدول الدراسات الطبيعية والتطبيقية في العلوم الإنسانية المختلفة. فصاحب (الستوتة) ليس النموذج الشاذ في التطبيق، إنما عينة ترد أو مثيلاتها في قاع حياة جماعات الدرس العراقية.

***

حكاية: أستاذ ستوتة

لا أحد يؤشر تاريخيا على وجه الدقة متى دخلت الستوتة إلى العراق، ربما حطّت على أرض الرماد في غفلة من الزمن، ولكن المؤشرات

المتاحة تشير أنها دخلت ما بعد عام 2003 تحديدا بصناعة صينية. الستوتة العراقية هي محض تحشيشة عراقية.

أستاذ ستوتة هو بالأصل معلم نشيد عيّن في مدرسة نائية لا تصلها سيارات النقل العام، اشترى ستوتة ليصل بها إلى المدرسة، وأقنع المعلمات بالصعود معه صباح كل يوم من وإلى المدرسة بستوته، بعد أن عمل المقاعد اللازمة وفرش أرضيتها ووضع السقف اللازم لها، لكن تسمية ـ أستاذ ستوتة ـ أطلقها عليه تلامذة الصف السادس في المدرسة، وبقيت التسمية تنتشر كالنار في الهشيم حتى وصلت أرجاء وزارة التربية كلها وكتبت عنه الصحف. اضطر لبيعها واشترى سيارة بديلة عنها، ولا زالت التسمية اللصيقة تضايقه كالكابوس المخيف، ذهب إلى الحج وأصبح حاجا ولم تنفع معه الحجة حتى سمّي أستاذ حاج ستوتة. ماذا يفعل سوى الهروب عبر البحر إلى ألمانيا، تاركا الوظيفة والسيارة والعائلة، ولكنه شاهد أحد طلبته الهاربين معه في القارب نفسه، قال له: شلونك أستاذ ستوتة، لا تخف فالبحر هادئ هذه الليلة. المصيبة أنه لم ينتحر.

***

الستوتة مركبة أرضية يقابلها مصريا «التوك توك» و»السازوكا البيروتية والطرطيرة الشامية». أيضا لا أحد يعرف من أطلق التسمية الفكاهية على نموذج النقل الشعبي الصغير الذي لا نعرف ما يطلق عليه في إفغانستان والهند وباكستان. يقال أطلقها أحد الحاقدين على النموذج الوافد من باعة الدراجات، ستوتة أنها شبيهة بـ(ست البيت) التي تصلح لكل أعمال الطبخ. حتى أصبحت حقيقة ماثلة في عالم

اليوم، ومن الطبيعي أن تجدها تترسخ كظاهرة ليس للنقل وإنما لإتمام الحياة العراقية المهلهلة.

من الممكن مراقبة عمل الستوتة وهي تتحول إلى محل جوال «حدادة أبي عكرب»، للحيم الولدن والأوكسجين وعمل الأبواب والشبابيك، أو تتحول لحوض بيع السمك الحي في المناطق نصف المتحضرة. هي محل متجول لبيع البطيخ مثلا، أو نقل الزوار في المراقد أو مركبة نقل مواطنين من باب المعظم إلى الشورجة، أو ربما عربة صندوقية مغلّفة لبيع قناني الخمر المحظورة، أو أن تتحول إلى محل «ندافة التساهل» يجوب الأزقة بستوتته والقطن يتطاير خلفه، لكن أن تتحول الستوتة إلى مقر متجول لمطرب شعبي يغني في حفلات الأعراس فتلك هي تحشيشة الواقع العراقي، وثمة مفارقة أخرى عندما تتحول إلى ستوديو لرادود وشاعر في المناسبات الدينية، أو يستأجرها أحد المتسولين ليجوب المناطق البعيدة.

الستوتة دعوة إشهار لحياة عراقية استثنائية، هي نشيد للبساطة الغائبة وتحشيشة عراقية مرّة بطعم العلقم، عندما اكتشفت تحولها إلى مطبخ لمطعم سفري للبيض المقلي والمخلمة والجلفراي ومقهى جوال في شواكة بغداد مخصصة للمتقاعدين. هي فكرة بدائية نظرا للتطور الهائل للغرفة الفندقية -معزولة الصوت لسيارات الهونداي ـ على سبيل المثال، وهي تتجول بثلاث عجلات قلقة فقط.

حكاية: ستوتة كرار

تعرفت عليه بالمصادفة، شاب ينتمي هرميا إلى الجيل الثاني

لشريحة الحواسم المنتشرة وسط وأطراف المدن العراقية، يدعى كرار يعمل سائق «ستوتة» أجرة، ينقل فيها النفط إلى العوائل «نصف ردن» كما يعبّر هو في منطقة الحواسم ومرات أخرى يذهب لجمع القمامة في المناطق المترفة ويبيعها بطريقة الطوب أو (الطقة نازل) للمتاجرين بلقى القمامة وكنوزها.

مكتوب على ستوتة كرار الحمراء من الخلف (تلميذة وخجولة) ومن الجانب (يا ساقي العطاشى) والجانب الآخر (عضة أسد ولا نظرة حسد). كرار ذو العشرين صيفا يسكن في بيت «محوسم» تحت مجّسر منحني لمرور الطريق السريع في بغداد، سقف البيت من قوالب الكونكريت لمقتربات الجسر، وثمة راية خضراء ترفرف على الدوام فوق جبهة الباب تتناغم مع صورة مرسومة لشخص مقدس بهالة بيضاء.

كرار ذات منفلتة للجيل الثاني المتمرد من ذوات الحواسم العاشق لانسحاقه والمتلذذ لجوعه الأزلي. مواظب على التواجد الفعّال في كل التظاهرات المليونية ضد كل شيء، لم يشارك فعليا في أيام الاقتتال الداخلي ومقاومة قوات المحتل ـ بالتركيز الصوتي على اللام ـ بحكم عامل السن لكنه يعي تلك الفترة الحرجة من تاريخ البلد. جريء لا يخشى شيئا، لكنه في الوقت نفسه يعاني من سرطان الفقر الخبيث، لا يحسب للمستقبل حسابا، فقد تعود صرف ما يجنيه يوما بيوم.

المهم ـ تعرفت عليه أثناء نقله لثلاجتي المعطوبة إلى مصلّح الثلاجات، وحدثني عن وضعه الخاص بطريقة تفوح منها رائحة الحزن. بعد ما اطلعت على أحواله من خلال صور محموله الكلاكسي، لا يفكر بالهجرة عن طريق البحر مطلقا، ولا يفكر بالزواج فربما الزوجة تعيّره

بالبيت المحوسم. هو نموذج لمواصفات الذات المسحوقة التي أبحث عنها في تطبيقاتي الميدانية. يرتدي تراكسوتا صينيا بسيطا بلون رمادي ويقص شعره بطريقة (السبايكي)، يحب أكل لفات الفلافل وينام ليلا في بطن الستوتة أمام بيت الحواسم المزدحم بسكانه.

أدركت عن قرب ما يفكر به على المستوى الشخصي وطموحاته الشخصية في تثبيت الإرث المحوسم والمزمع توزيعه على البنين والبنات من إخوته التابع لممتلكات الدولة. ثم الانتقال إلى بيت محوسم آخر معروض للبيع عبارة عن دائرة حزبية للنظام البائد، تحول إلى سكن بصيغة عراقية متكررة كثيرا. حتى أدركت أخيرا إن دراستي عن البيت العراقي يجب تطعيمها بمعمارية البيت المحوسم. وهذا الأخير ورغم عشوائيته منطقة خام للدراسة من الداخل، فالباب مصبوغ باللون الأزرق طردا للحسد بغرفة معيشة مطلة بشباك على انحناءة الجسر، وخلفها المطبخ ثم الحمام يقابلها مساحة فارغة للكراكيب. وهذه الأخيرة عبارة عن إطارات مستهلكة ومبردة هواء معطوبة وشؤون أخرى وقن صغير في الزاوية الأخيرة للبط والدجاج.

الحواسم كمصطلح بتوقيع عراقي، تاريخيا انبثقت التسمية من حرب الثماني سنين مع إيران وقد أطلقها رئيس تشخيص مصلحة النظام الإيراني على الحشود التي كانت تساق من الشباب إلى محرقة الحرب، معتبرا عام 1986 هو عام الحسم. ثم تكررت التسمية عراقيا في حسمها عام 1988. وعملية الحوسمة العراقية انبثقت في لحظتين عراقيتين في عام 1991 وفي عام 2003 في حوسمة الفقراء الجائعين لكل ما تقع عليه أيديهم من الممتلكات العامة. أما الجيل الجديد

من الحواسم فهم يحاولون رسم سياسة الدولة بهتافاتهم وعصيانهم وتمردهم. هذا النموذج سيتكرر هنا بصيغ تطبيقية أخرى، سواء في المسكن أوالزي أوالطعام.

* * *

8. فن التلصص:

لكن ما يشفع لي أن مادة هذا الكتاب قامت على فضيلة التلصص الحذر لحركة أفراد الجغرافية والتاريخ الملتبسين، وحكاياتهم على بقعة أرض متحركة كأرض رملية، والتلصص ليس بمعنى الفضولية العراقية المقيتة والتي اعتادتها الذوات في التنقيب عما في داخل الكيس الذي يحمله الجار، إنما في التلصص المنتج أو ما يسمى التلصص الايجابي. ذلك السونار السري لتشريح الحكايات التي تسير في الشريط العراقي.

التلصص فن قائم بذاته، كما هو فن الإصغاء لحكايات الآخرين، لما يشكله نظام الحكايات الشعبية من أنساق لتمثلات البيئة ومحيطها العراقي، في تقاليدها وأنماطها وثقافتها وحفرياتها ترسيخا لأنماط السلوكيات داخل وخارج البيت وحكايات الأزياء وطعامهم. له هواته ومحترفيه كما في كل الفنون الأخرى.

إنه الثالوث المهمل الذي شكّل مادة الكتابة في بحثها الأنثروبولجي بعيدا عن مكتشفات كلود ليفي شتراوس أو مقاربات الفرنسي المعاصر مارك أوجيه، إذ تبقى حقول الثالوث أرضا خاما في منطقتنا التي نعيش، ومن دون التلصص والإصغاء للحافز المهيمن على طبيعة مسكنهم

وأزيائهم وطعامهم لا يمكن فهم مشكلة الهوية وثقافة الهوية إلا من خلال الدرس الانثروبولوجي المركزي، ففي الثالوث الغائم هذا يمكن تفحص تحتانية الذات العراقية من خلاله.

***

حكاية: تجريد المُجرّد

في لبّ سنوات الحصار المريرة وعزّ فاقته، شاهدتُ لأول مرة قطيعا من الجرذان الضخمة تمرح في بيوت الفقراء المحاصرين وهي تتضخم كل يوم كأننا في شريط فلم من أفلام فلام افلامالرعب، بينما أولادهم يتهيكلون في نقص واضح في أوزانهم.. حصل ذلك إبان الحصار الاقتصادي في تسعينات القرن المنصرم.

تبدأ الحكاية العجفاء بتلصّصي على رجل مسكين له ست بنات، شرع يقاوم الحصار وغوله في سني الجوع الأولى، كان يبيع كل ما تقع عينه عليه ليأكل مع بناته الست، طالت سنوات الحصار وعندما فرغ البيت من جميع الأثاث، راح يفكر في بيع أجزاء من هيكل البيت، حيث شرع ببيع الشبابيك تباعا ووضع البطانيات بديلا عنها، ثم باع الأبواب مستغنيا عنها بستائر الجنفاص، وعندما اشتد الجوع باع البطانيات والستائر، ثم وصل بحركة جريئة ليبيع حديد السقوف «الشيلمان» للغرف الفوقية نازلا، ومازال الحصار جاثما على قلبه، وفي مرحلة متقدمة راح يبيع الطابوق، كل عشر طابوقات بكيلو طحين واحد، وفي غفلة الزمن ذاب هيكل البيت ليصبح في عراء مشروع المسكن هذا، إلا من خرق بالية وتنك وإطارات تحجب النظر أمام الفضولية العراقية الوقحة، بينما

الجرذان لم تغادر البيت - العراء - العرصة، فقد استطاعت قضم الستائر والإطارات كلها، وعندما جاء أحد أصحابه احتار كيف ينادي عليه، لا باب ليطرقه سوى انه صفق بيديه مناديا على صاحب العرصة، لكنه استحى من المنادي، ليبكي على حاله بكاء مرا، عندما تحول البيت إلى وطن للأكل كتماثيل هبل.

***

حكاية: ثقة منزوعة السلاح

قال لي بالحرف الواحد: لا تثق بكائن من يكون ـ بعد الحصار الاقتصادي ـ من أهل العراق.. الكل يكذب يا صديقي في واحدة من نتائجه المترتبة، ففي الكذب النجاة كما يقولون، ولا يوجد كذب أبيض أو أسود ففي كل يوم كذبة من شهر نيسان، وإلا بماذا تفسر بربك، كيف وضع صاحب المطعم كرسيه في باب المطعم خوفا من هروب الزبائن والثقة المنزوعة؟ بماذا تفسّر كيف شرّعت دوائر الدولة نظام صحّة الصدور؟ طبعا لكثرة الكذب والتزوير وانعدام الثقة، وما الأقفال الكبيرة وأجراس الإنذار المبكر وكاميرات المراقبة و. و. ولتحرس البيوت والمحال إلا لانعدام الثقة وتفشي الغش والكذبة والجريمة.. كلها دلائل حصرية على تفشي الكذب الأبيض وفساد الطبع وتغير المزاج من رائق إلى حاد. استطاع الحصار من حرف السلوكيات العامة «بغل ن» وهو أكثر تأثرا من جملة الحروب مجتمعة. وما الكذب والتقفيص إلا من نتائجه الكذب الذي لا يخضع للمساءلة، تصور نفسك في سوق الهرج ليوم حصاري في التسعينات، وشاهد الاستحداث العجيب لمنظومة

القسم والحلفان الجديدتين، وعلى سبيل المثال لا الحصر منْ كان يحلف سابقا بقميص عثمان مثلا! أو برأس الذئب الذي أكل يوسف، ثم انظر جدول الضرب للحلف الشعري لأصحاب معارض السيارات وموسيقى لغة الكذب التي تجعلك مسطولا للأوهام والسراب الذي تلبسك لحظة الحلفان «وحق هذا رب الكائنات لك خبزة في هذه السيارة» وقد وضع كسرة الخبز في صندوقها.

يعاد غربلة أية حكاية قبل تفكيكها والنظر في محتواها الدال ثم إنتاج منتظم لمرويتها الشعبية لنصل إلى رابطها «**ربّاط الحكي**» أو حكمتها. وما مربط الفرس إلا كناية للمّ الحكاية بطريقة عراقية قامت وترعرعت على تخت مقهى أو مضيف الريف أو في جلسة سمر ليلية في الزقاق أو في تعلولة وقت العصر لنسوة على عتبات بيوت الحواسم. كان اجتماع الجماعة وتحلّقهم في حوارية أما للتصالح من بعد خصومة أو لمناسبة زواج أو عزاء لميت تكون مادته الأساسية في نظام المرويات المتطابقة/ المتشابهة والتي مرت عبر تاريخ الجماعة، وغالبا ما يكون الشاي حاضرا بكل ثقله. إذ تكمن الفكرة كنواة في طريقة درب الحكاية. هكذا كحبة شهباء يلتقطها الطائر الجائع مصادفة.

إنها فوضى شديدة التعقيد في تلمس الحالة المثلى لاكتشاف المحتوى منها، فوضى مصائرنا - سكارى وما هم بسكارى ـ ذوات لا تثبت لالتقاط صورة انثروبولجية، وضياع «الرابط» في فوضى الصيرورة والزوال، لذواتنا ما تقدم منها وما تأخرّ.. سواء كنا ملكيين أم جمهوريين أم ما بعدهما في هيكلية بلد متداعٍ.

***

الفصل الأول

1 ـ عراقيون سوابق

إدراك الذات ضمن سياق الأنسنة

نهران عظيمان.. عراق عظيم.. شعب عظيم لحضارة عظيمة.. الأرض عظيمة والتراب مقدس وعظيم.. تاريخها عظيم وقادتها عظام.. تلك لافتات مخطوطة ومعلّقة على ناصيات الشوارع والساحات العامة بل محفوظة في القلوب وفي عمق الثقافة والتربية. هذه العظمة الحماسية شابها شيء من التقديس مما جعلها تدخل منطقة الخطوط الحمر وتيجان الرؤوس، نقول عن الأفراد بحماسة أنه (عظيم)، لكن أية عظمة تلك التي أفرزته بتلك الذات المثلومة والقلقة؟ ستنسحب هذه العظمة المزعومة على قراءة تفاصيل الأزياء، كيف تكون الأزياء ذات ملامح واضحة؟ كيف يكون شكل البيت واضحا مع حماسة العظمة؟ كيف يكون طعم الطعام لائقا وحصته أمام العظمة المزعومة. والآن لندع حماسة العظمة والتقديس الزائف ونشتغل على تفكيك تلك الماهيات بشيء من التروي والعقلانية الدارسة للتحتانيات.

ترد مفردة سوابق على كل من يحمل فضيلة التردد على السجن والتوقيف والحجز لفترات ليست بالطويلة لكثرة الهروب المتكرر

من الخدمة العسكرية أو خصومات نستعمل فيها الأيدي، ثم تفرّعت المفردة كما تتفرع الشجرة اليانعة لتستخدم في مجالات واسعة، على المرأة الشاذة والغلام الشاذ واللص المحترف والقفّاص وما شابه، وهي تقترب من مصطلح حديث الاستخدام يسمى(56) على كل شخص يخرج عن السلوك النمطي التقليدي ليحتال ويمارس النصب والادعاء الكاذب على الآخرين، وفق مادة الحكم 456 الشهيرة في العراق.

عام 1958 ولدت الجمهورية القاسمية، كشّرت الثورة/ الغول عن أنيابها، والثورات مشاريع دائمة للفوضى وإراقة الدم المجاني.

أصبح للزي العسكري الجمهوري مكانة رئاسية رسمية تدير من خلاله السلطة، ومكانة شعبية مرموقة بكل مستلزماته، فالبدلة الخاكية (قيافة) بقيطان عسكري ملون يمتد من الكتف إلى الجيب وأوشحة وشارات ونسر محنط يتدلى في مقدمة البيرية ونطاق خاكي ومسدس يتدلى على الخصر وحذاء جلدي أحمر، كمستلزمات واجبة للسلطة والقيادة من جهة والتباهي من جهة أخرى.

غادرت شمس المدنية/ الملكية كرسي السلطة مرغمة للتخلي عن فترة الأزياء الملكية التقليدية في البدلة الرسمية السوداء والقميص الأبيض والسدارة الباشوية/ الفيصلية والأناقة الكلاسيكية الغربية بكامل عدّتها.

باشرت الجمهورية القاسمية وما رافقها من عنف وعنف مضاد، بفتح صنبور الدم وشرعنته باسم الثورة وخيمتها الجمهورية، وفي عام 1963 أكدت على نهجها الدموي باسم الوطنية ومحاربة «العملاء والخونة والجواسيس» في طور الجمهورية العارفية الأولى، كان ثمّة استعداد

سايكولوجي من قبل (الذات) الحماسية الجديدة لتقبّل تلك الأفكار بكل تطرفها، وفي عام 1968، حلّت الجمهورية البكرية وأصبح التأكيد واضحا على النهج الثوري/ الجمهوري الحماسي في طوره الرابع الصاعد.. وفي نهاية عام1980 تمّثل الرعب الثوري/ الجمهوري في أعلى لحظات شمولية العنف في طور الخامسة ما سمّي بالجمهورية الصدامية.. وهذا لا يعني أن الحقب الملكية المتلاحقة كانت تمثل الربيع العراقي المنتظر والخالي من العنف، بل كانت السلطة كنظيراتها الجمهورية من حيث سحق الذوات وإذابتها بل طحنها كما يجب.

العنف طبيعة ناتجة من قلق الجغرافية المترهلة / كذلك من شغف الذات للسلطة أية سلطة كانت، يدعم القول هذا الشغف بقراءة التاريخ المهلهل الطويل وتكريس التاريخ المقدس منه وتعظيمه بالحكايات المتضخمة، الجغرافية والسلطة والتاريخ، ثلاثية الخلل الأكبر في إشاعة الفوضى العراقية، كانت مدعاة للهروب من الجحيم العراقي، لتنشطر الذات العراقية القلقة بين ذات الداخل وذات الخارج، ولا يمكن دراسة واحدة منهما دون فحص الثانية.

هنا قد نسجّل ما حصل من موجات التشرذم والهروب والهجرات المتلاحقة، لحظة اختيار الحلول العسكرية للاستحواذ على السلطة، ببرامج القوة بكل مظاهرها للممارسة العنف والرعب الثوريين.

تنشطر الذات الخائفة إلى قسمين متنافرين، واحد يبقى داخل حدود معسكر/ قفص الجمهورية الكبير مستكينا مروّضا خانعا، وآخر منفلتا هاربا من القبضة الحديدية يحاول التكيف في الأوطان البديلة.

***

يحكى أن (عثمان السوداني) الذي عاش في منطقة الباب الشرقي لأكثر من عشرين عاما هو الذي أفنى عمره في إتقان البغدادية، لكن من دون فائدة، لم يستطع نطق «الباجة» ولم يتعلم لفظ الجيم العطشانة في اللهجة البغدادية لمنطقة الباب الشرقي، سوى أنه نطق «شبيك يمعود» بكل سلاسة بعد أن ردّدها لأكثر من ألف ليلة وليلة في فراشه، عثمان أو عصمان فشل في التبغدد في ضبط اللهجة، فبشرته فضحت هويته السودانية وشفتاه الغليظتان تعاملتا بخشونة مع القاف والجيم، ولم ينفع حلفانه المتكرر في الأئمة جميعا في تبغدده.

وتلك منطقته التي استولى عليها وأخرج منها المصريين إلى منطقة المربعة ومناطق أخرى في المحافظات البعيدة، أقتنع في آخر أيام الحصار من بيع جوازه على ذات عراقية تحاول الهروب، لكن مشكلة البشرة السوداء أسقطت صاحب الجواز المزيف في قبضة سلطات المطار.

العراقي يحلم بالهروب من شبح السلطة.. يحلم بتأشيرة دخول مريحة حاله حال خلق الله.. لكنه يحلم أيضا بتغيير نظام الجمهورية الثورية.. ذات الجمهورية قد انشطرت مابين ذات الداخل تحت نير قبضة السلطة المتجّبرة، وما بين ذات الخارج الذات المغتربة الباحثة عن خلاصها لتفسّر أو تبرر عدم انسجامها فكريا ومبدئيا ونفسيا مع المحيط العراقي الجمهوري..

الذات العراقية سردية كبرى أكبر من حكاية.. ذات رزحت تحت نير حقب الجمهورية في أطوارها الثلاثة.. وفي كل طور تسعى جاهدة

لتغيير شكل الدار من دون المساس الجوهري في شكل البيت بكائناته من الداخل.. أسميتها ذات الجمهورية تمّيزا عن ذوات ساعدت في تبلور حقب غائمة أخرى، حيث أفرزت متوالية الحقب في تداولها الدموي لكرسي الحكم العراقي. لكن هذه الذات كانت مستعدة على الدوام لأن تكون حماسية / اندفاعية في استمالتها عن حكام السلطات رغم علمها اليقين بدمويتهم.. ذات وليست شخصية كما أفترضها هنا وسيتضّح ذلك لاحقا.

طبعا ليست هناك ذات واحدة يمكن دراستها بيسر وسهولة.. مثلا أن الذات الناجية (مغتربين/ مهاجرين/ معاقين/أسرى عائدين) ذوات نجت محض مصادفة من قفص سلطة جمهورية أو من محارق الحروب، هذه الذات رغم عراقيتها لا يمكن توصيفها ضمن خانة البحث الانثوبولجي لعدم اتساقها بظاهرة التنميط المجتمعية، فهي خارج نطاق مساحة الذات الجمعية التي يمكن إخضاعها للتحليل المختبري، إذ فقدت الكثير من سمات عراقيتها الافتراضية، فكل مجموعة ذوات من هؤلاء عاشوا متنقلين في عدة بلدان ليستقروا في نهاية (التطواف النضالي) في بلد غربي بعد شمولهم بقوانين الهجرة العالمية.. أكثر من ستة ملايين مهاجر في مغترباتهم تزوّجوا وأنجبوا.. ثم أولادهم يتزوجون وينجبون بعيدا عن وطن الداخل بكل التباس ذواته.. حيث كانت هناك شبكة من العلاقات الحميمية الخاصة فيما بينهم وهم يتسلكون بطبائع الذات الغربية خارج البيت وفي داخله يدربون أولادهم على يوتوبيا الوطن المثال.. بل إن الجيل الجديد الثاني (جيل الشباب) منهم تزوج وأنجب بعيدا عن عراقية الذات (موضوعة الافتراض) بل تولّدت ذات

جديدة أخرى بعيدا عن عراقية التكوين والنشأة.. وسوف تنتهي (ذات الاغتراب العراقية) في أجيالها الصاعدة إلى ثنائية ذات عراقية جديدة تعيش الازدواج بين الداخل والخارج، بين مكان معيشتها الذي يوفر لها نمطا معيشيا على درجة كبيرة من القبول العصري، بينما ذاكرة الآباء والأجداد التي لم يتبق منها سوى رائحة علّم البلد كرمز متمثل بنظام جمهوري، أما حفنة التراب في علبة زجاج الذاكرة المتعفنة لم تحقق هدفها في إحياء الترابط الرمزي..

ليس هذا فقط بل إن بعض التغيرات الديموغرافية التي حدثت بعد حرب الخليج الثانية وعودة مئات الآلاف من عراقيي المولد وكويتيي الموطن (البدون) أجبروا على مغادرة الكويت بعد عودة الأمور إلى طبيعتها في المنطقة بالقوة، وتم إستيطانهم في جنوب ووسط العراق بعد عام 1991.. انشطار ذواتهم بين خليجية وأخرى مستحدثة بعراقية مدغمة، كذلك الحس القومي لشريحة أخرى من الذات المجتمعية للكرد في بناء صيرورة جديدة متحضرة بعصبية قومية، أيضا لا يمكن ضمّهم لتفحص الذات الجمعية موضوعة الافتراض التي رزحت بامتنان داخل قفص الجمهورية الثوري، لذلك يجعل من الصعوبة بمكان فهم أنساق كل تلك الذوات ضمن محيط محدد لاختلاف سلوكيات الأفراد داخل البيت وطبيعة طعامها وأزيائها في نمط الثالوث في (المسكن والزي والطعام) قيد الدراسة.. كذلك لا يمكن شمول هجرات الداخل في عهد الما بعد أو (مجتمع الحواسم) مثلا والمتنقل في المدن وأطرافها ضمن طائلة الدرس والتفحص لعدم ثبات الهوية وقلقها واختلالات السلوكيات الحاكمة والإحساس بالظلم المجتمعي لممارسة شتى

صنوف العنف الرمزي المضاد. كل ذلك سيجعل السياحة في أتون ذات جدَّ مركبّة وعصيّة على الإلمام بمساحة العامل السايكولوجي الفاعل والانثروبولجي المؤثر في رسم خريطة طبيعة السلوك لذات الجمهورية..

لنتصور الآن الذات العراقية الحالية وكيفيّة دراسة أنماطها في داخل البيت ونمط طعامها وملبسها.. كيف ندرس ذاتا رمادية عائشة في الظلام؟؟ كيف ندرسها وهي منشطرة بين أكثر من ذات في حركتها وفاعليتها خارج المحيط أو داخله.. فواحدة مغتربة/ مهجرة/ مستوطنة في بلد ثان، وأخرى تعيش في الداخل المستعر على الدوام متحملّة كل ضغوط سلطات الجمهوريات الخمس.. لا يمكن الإمساك بتلابيبها بسهولة، فهي مثل طير بري متوحّش، إلا إذا تمّ دخول قفص الجمهورية الثورية والعيش مع ذواتها التي تتلذذ بعبوديتها واستلابها حتى سُهلت قيادتها..

اقصد بالذات هي صورة الفرد أمام نفسه ومن ثم محاولة إدراكه لها، أما الشخصية فهي صورة الإنسان أمام الآخرين، بمعنى آخر هي محاولة إدراك صورة الفرد في دراسات علم الاجتماع. الذات تدخل كتفسير في علم النفس بمعنى الشعور والوعي المحيط بالكينونة كنتيجة للتفاعل مع البيئة ومنها الذات القلقة في محيطها وليست الذات الاجتماعية أو المثالية النموذجية.

أفترض إن تركيبة ذواتنا تحمل في جيناتها ثلاثة عناصر معا.. اندفاع / انفعال/ عنف وتلك هي بذور ساخنة لإثارة الفوضى العارمة، طبعا هناك الكثير من الدراسات المطوّلة عن الشخصية العراقية قديما وحديثا،

لكنها لا تستطيع الإلمام بمفاجآت حركة الذات في المحيط وخارجه، كذلك فترة الانقطاع في المتابعة والتمحيص لمعطيات السنين الأخيرة في عهود الجمهوريات المتعاقبة بما فيها فترة الحربين وثالثهما الأهم في الحصار التسعيني..

تحيلنا هذه الفوضى إلى تفكّر سري بمآلات هذه الذوات.. ترى إلى أين تذهب تلك الذوات بعد دوّامة ما قبل/ ما بعد؟ أين تحطُّ؟ ذوات في بلدة من عراق الاعتقاد يخرج من دوامة ملكية ويسقط في فخاخ جمهورية.. عراقيون من لحم ودم وتراب.. على أرض ليس فيها ما يجذب الحياة سوى أرض مجدبة وغبار رمادي وحرارة لاهبة وأوحال وفقر مدقع ونفط دائم ودم فائر وتقلبات سياسية متواصلة وسفك للدم يوميا. إذ تنعكس تلك الطبيعة الغولية على طبيعة المسكن وطبيعة الزي وطبيعة الطعام، فالفرد الثري سرعان ما يتحول إلى متشرد وفقير الحال برمشة عين، والعكس صحيح إذ يتحول الفقير الرث إلى ثري خيالي الثروة، لا يعرف كيف يتصرف بما لديه من ثروات، فيختل سلوكه وتنشطر ذاته ليصاب بأمراض سايكولوجية مركّبة.. إنها حقا بلاد الأعاجيب.. الذات الضعيفة القلقة تخيف الذات الكبيرة بلحظة خيالية من تاريخ أمة الجمهوريات، إذ يعمل رجل السلطة لتحصين سلطته بالمزيد من السلاح والرجال والعيون السرية خوفا من الانقلابات الدموية المتكررة.. أما السؤال فهو ذاته منذ البدء.. ترى أين نحن ذاهبون؟ والمزاج العراقي أصبح علامة فارقة.. (ذوو الأمزجة المتقلبة.. انقلابيون لا يرضون عن الحكام مطلقا)، حتى فريق كرة القدم المتشّكل من ذات عراقية داخلية، ليس لديه تلك المهارة الفائقة، لكنه يفوز بالاندفاع والإصرار ودوافع

قهر الهزيمة / المتلازمة، وليس بتغيير نظرية اللعب وتحديث فلسفتها أو إدراك وتتبع حركة الخصم ونظريته في اللعب.

على جغرافية بلد هي الأخرى أقرب إلى مفارقة مضحكة ومجنونة في مناخه وطقسه اليومي، هي ذاتها مفارقة عراقية قاسية وفنتازية، فيمكن أن تشاهد فصولها الأربعة بساعات قليلة فقط في اليوم الواحد، ففي الساعة الأولى ينزل المطر وتهب العواصف والريح الباردة، فيرتدون المعاطف الثقيلة، ثم بعد ساعة يتغير الطقس، تُفتح النوافذ وتدور المراوح وتهتز مبردات الهواء في داخل البيت لتنعش الذوات، وبعد ساعة أخرى يأتي الربيع وتعتدل الأجواء، ليصعدوا إلى سطوح منازلهم بحثا عن نسمة هواء متخيلة، وبظرف ساعة لاحقة أخرى يأتي الخريف بكل جدبه.. خريف الذات العراقية التي شهدت كل طعنات الطقس المتقلب وطعنات أخرى تأتيها من قسوة الحقب السياسية في التداول فيما بينها وخير وصف لها إنها أخذت أكثر مما أعطت، أعطت إجازة طويلة لإراقة الدم والعنف على صحراء مقفرة وعواصف رمل وأرض قاحلة، أو إلى جبال خضر أو ثلجية قاسية إن صحّتْ خرائط أطلس التضاريس.. الأجواء متطرفة وجنون النهرين في فيضانهما وشحتهما، يفيضان وقت حصاد حقول القمح لتبعث رياح شهر نيسان مزيدا من غضب الطبيعة ثم ينهال المطر بجنون.. أي مطر هذا الذي يخرّب الحقول التي تنتظر بشغف لحظة الجفاف؟ لتدمر حقول القمح بكاملها وينتحب المزارع المسكين بـ«متلازمة الياويل».. تحزن ذوات كثيرة على هذا الغضب، لم تنفع الدعوات في غلق نافذة المطر المجنون الذي تحمله الريح العاصفة والمجنونة.. هي الأخرى تأتي في وقت انتفاء الحاجة ليس

للمطر فحسب وإنما للريح المجنونة العاصفة المحملة بذرات الغبار، لتعمّ غمامة الحزن العراقية في جلباب ذات المأساة وتجلس لتندب حضّها كما فعلت الذات السومرية - كما تخبرنا بذلك الرقم الطينية - في نزول ديموزي إلى العالم السفلي.. هذا المناخ المتقلّب كان عاملا مضافا لقلقية الذات العراقية الافتراضية..

واقع بائس وفجاجة رؤى وتحليلات متخيلة عن هذه الفوضى.. دائما يكون الأمس فيها أجمل من يوم الذات المنكوبة.. والغد هو أسوأ من اللحظة العراقية الثقيلة.. لماذا إذن؟ ترى إلى أين ذاهبون؟ والهجرات متعاقبة جيئة وذهابا.. والاحتلالات التاريخية تضع بصمة الاغتراب كسمة عراقية بملامح تفلت من مادة الدرس والفحص.. أما المطربون من سلمان المنكوب إلى سعدي الحلي ومن ياس خضر إلى قحطان العطار ورياض احمد، وشعراء النكبة العراقية من مظفر النواب إلى عريان السيد خلف هؤلاء يغازلون الذات العراقية بمؤاساتها على ما فاتها أو بؤس لحظتها أو ظلم تاريخها أو من نذر ما ينتظرها في قادم الأيام، وكأنهم يغذون ذواتهم بطاقة طرد جماعية سلبية قادمة من صحراء بلاد ما بين النهرين..

العراقي مشروع اغتراب ومشروع شهادة ومشروع تقشّف وحصار ومشروع حرب.. دوما هو مطلوب لتسديد ضرائب وهمية للوطن / العَلَم/ الأرض/ الحدود.. لماذا؟ لأنه ببساطة متناهية لم يصل إلى لحظة نشوء المجتمع الحق (مذكرة فيصل الأول إلى التاج البريطاني: وجدت جماعات متخيلة وطائفية ولا وجود لمجتمع متكامل).. مشاريع تأخذ منه ولا تعطيه.. مشاريع استلاب وقمع وصهر وتذويب..

كيف تعبّر الذات العراقية عن واقعها المزري؟ كلمات مختصرة بدوران كف اليد اليمنى وبرطمة الشفة السفلى وتقويس الحاجبين إلى الأعلى.. أهي بلاغة الخراب أم سيمياء العصر العراقي الجمهوري وما بعده؟ أنختار هذه أو نفترض تلك؟؟

تلك أسئلة نقطفها من بريّة موحشة للواقع العراقي المعاصر.. عليّ أن أفترض إجابات ليس إلا.. الأسئلة متداولة بين الذوات القلقة، لكن الأجوبة ستدور في فلك الافتراض.. هذه إذن وجهة نظر افتراضية تضع التصورات بشكل من أشكال النص السوسيولوجي الباحث في الدرس الثقافي ثم نقده من الداخل، في متلازماته التاريخية أو مفاصله المهمة، مستفيدا من علم الاجتماع في فرضياته أو الدرس الانثروبولوجي البليغ في تفكيك الأنسنة في المحيط.. إذن هي محاولة افتراضية مشحونة بشجن ثقافي، نتلّمس خطاها أو أصداءها هنا أو هناك في المتن القادم، فكل الأسئلة تدور في فلك الذات العراقية الحائرة بين ماضي التراث وحاضر الحضارة الافتراضية. بين أثر الملوكية على الذات العراقية وأثر الجمهورية لاحقا.. بين الانسحاق وذوبان الذوات أو خذلان الحاضر اليومي وبروز بقايا الذات في خضم طوق هذه الأسئلة.

***

حكاية:اسماء الذوات

أول مرة أسمع بكلمة الجمهورية عندما تعرّفت على واحدة سوابق في بيوت الدعارة الرسمية تسمى جمهورية، وكانت شهيرة بلسانها الباشط والسباب المستحدث والفشار القادح الذي ترتجف له الأبدان، «قمْ أبو

الكذا.. ابن الكذا.. أمك وأختك الكذا بنت الكذا» والزبون فوقها يرتجف من لسانها وعلو صوتها، جمهورية تشبه جمهوريتنا هذه بالضبط، يذكر أن أباها هو عريف متطوع في الجيش، كان متحمّسا للدرس الوطني الطارئ في «حروب الشمال» ضد الكرد المتمردين على الدولة الفتية وما تلاها، بعد جرح (الزعيم) إبان الجمهورية الأولى بسنين قليلة، تمردت جمهورية الصبية الصغيرة وخرجت عن نطاق العائلة، وهربت متخفّية في أماكن بعيدة، حتى تحولت إلى (أسطه) بالدعارة ومتفنّنة في أساليب الاحتيال على الزبون المسكين، فهي تأخذ الأجرة مقدما ثم تتحجج بان الزبون أطال المكوث فوقها فترفسه برجلها، ولكن مصيرها كان بائسا ومأساويا، أتمنى أن لا يشبه جمهورياتنا العتيدة فقد وجدت مقتولة في فراشها ذات ليلة. ماتت جمهورية وتركت خلفها الأيتام من عشاق الإهانة والرفس المستمر.

تكرر سماع كلمة (جمهورية) مرة أخرى، عندما استبدلوا المدرسة الفيصلية بالمدرسة الجمهورية، عندما ظهرت في السوق المحلية سجائر جمهوري واختفاء سكائر غازي وتركي.. عندما استبدل جسر الملك بجسر الجمهورية، عندما استبدل طابوق الكورة بالجمهوري. شعار المملكة العراقية يستبدل بنسر الجمهورية العنيف..

بيان ومرسوم جمهوري ونسر جمهوري وانقلاب جمهوري وقماش جمهوري وبيت جمهوري وحي وشارع جمهوري.. لقد أغمضتْ عينا التاج الملكي للحظة قصيرة، فأبادوا العائلة الملكية الحاكمة بأطفالها وعجائزها وخدمها، حفلة القتل المجانية بقصر الرحاب، قد تكررت كثيرا في تاريخ بلد الدم المبارك بشرعية الثورة الخادعة..

أطلّ النسر الجمهوري برأسه من خلف سياج البلد فصفقنا له.. برزت النجمة الثمانية الثورية على أسيجة دوائر الدولة واختطوا الشعارات وسيّروا المظاهرات المؤيدة وصفق لها من صفّق، حيث جاءت (ثورة) الجمهورية لتزيح حقبة الما قبل.. بالأمس استبدلنا كل ما هو ملكي بجمهوري بما فيها الملبس والمأكل والبيت.. السدارة المدنية الفيصلية والعانة والفلس بالدرهم الجمهوري وديناره الورقي الجديد.. بالبيرية والخوذة العسكرية والأزياء الثورية الجديدة.

اسماء المواليد الجدد كانت تأخذ مسمياتها من كنف الجمهوريات الخمس، لم تكن عادة عراقية أو تقليدا بل هو تزلف مشهود من باطن الذات العراقية وجوهرها في التقرب من الحكومات لتسهيل الأمور. فكل ذات يدعى قاسم أو جاسم مغرورا باسمه يتزوج ثم يلد له طفل يسميه على الفور عبد الكريم، وعبد الكريم قاسم الشاب يصبح منزعجا من اسمه بعد زوال الحكم القاسمي بعد خمس سنين حكم، ثم يعمل على تغييره إلى عبد الخالق أو عبد المجيد، وهكذا تكرر لكل ذات يدعى حسين ويولد له طفل يسميه صدام ليحظى بالقبول والرضا الحكوميين، وقد شجعت الحكومة آنذاك كل من يسمي اسم صدام في ميلاد الرئيس يوم 28 نيسان من كل سنة ليستلم المكافأة المالية، لكن الوبال على صاحب الذات الصدامية بعد زوال حقبة الجمهورية الخامسة وربما أدى به إلى القتل الشنيع على التسمية التي لم يتدخل بها، وتدخلت حكومات الجمهورية الجديدة على حق تغيير الاسم ودفع الغرامة اللازمة لذلك.

قامت (الثورة) آنذاك تحت حماية خيمة الجمهوريات الخمس الطويلة الأمد.. واليوم استبدلنا الجمهوري بنظام الما بعد الجمهوري

أيضا أو الجمهورية التعددية الجديدة.. بينما الذات العراقية تزداد تعقيدا وتهلهلا وبؤسا.. لقد أصيب الرئيس الجمهوري الخامس بخيبة أمل كبرى وهو يرى نظامه الحديدي (كما يظن) ينهار مثل انهيار مكعبات اللعب.. الذات الكبيرة الخامسة ل(صدام حسين) يُصاب برعب الخذلان، وأي خذلان ذلك المتمّثل بتخلي الجميع عنه! خذلان العشيرة والأقارب والعسكر والرفاق والجمهور المتحمّس (الذوات) التي أوهمته بشغفها وفدائيتها له.. تلك لحظة تاريخية لا تنسى، هي المدخل للتفحّص والاجتراح في معرفة مقرّبة من هذه الذات التي تعملقت في المخيال الخادع..

الخاصية العراقية هي المصطلح الأكثر إيفاء من غيره في إدراك أو تعقّب ما يحدث من ثلومات متكررة لذات الجمهورية.. الذات هي اختبار رسمي للسلوك البشري.. الذات كقراءة لعراقيتنا.. والثلم لازمة للشخصية العراقية.. العراقي هنا المؤكد بكل هوياته المتعددة وليس العربي فقط.. قالوا في وصفه (طيب القلب.. متقلب المزاج.. له في الشهامة والشجاعة صولات وصولات).. بمعنى إنه لا يشبه غيره بالمطلق، ذلك لأن مسارات التاريخ المعاصر غير متشابه مع أقرانه من عرب أو مسلمين في وقائع تاريخية مخيّبة ومحبطة لتلك الذات، نعم قد أفرز تاريخ الجمهورية ذاتا بنمط خاص غير مكرر، وأحكمه بحكّام قد أفرزوا له مفازات خاصة به حفرت أخاديد علاماتها في ذوات أهل العراق الجمهوريين..

.***

يعبّر العراقيون عن لحظة الجمهورية بـ(عهد الثورة) أو بـ(العهد الجديد) (قبل الثورة وبعد الثورة) (أيام الملوكية وأيام الجمهورية)، لذلك أطلقوا تسميات بناتهم نحو ثورة وجمهورية وقومية ووحدة وكرامة وعروبة وحرية وعربية وانتصار وعهود وأمل ونضال وعهد وطموح وسجون.. أما البنون فهم.. قاسم وعبد السلام وعبد الرحمن وبعث وعبد الكريم وثائر ورفيق وعدي وهيثم وميثاق وزعيم وسهم وقائد ولواء ورفاق وضيغم ونصير وبارق وحربي ورائد وعبد العظيم وسيف وفارس وحازم وما شابه.. ويسمّون العهد الملكي بالعهد القديم أو الملكي أو البائد أو (أيام أبو ناجي أو الفيصلي).. والجمهورية كحقبة ستكون فاعلة ومؤثرة على الذات العراقية ومنتجة لها وفق المخطط الجمهوري، ستكون فاعلة حتما بعد سنيّ الجمهورية.. بالضبط بعد عشر سنين من قيام العهد الجمهوري الذي انتهى ولم ينته في نيسان 2003.

بعد حرب الخليج الأولى 1988 تمّ تغيير مصطلح الجمهورية العراقية إلى مصطلح ذكوري أسموها بجمهورية العراق.. فقد تحولت الجمهورية بلحظة عراقية وبعملية جراحية بسيطة إلى جمهورية العراق الفحولية.. لقد قدم اللغويون ومستشارو ثقافة النظام فكرة تغيير المصطلح ليتماشى لغويا مع تطلعات الجمهورية الصاعدة..

الذات في كنف العهد الجمهوري طبعا مختلفة كل الاختلاف عن ربيبتها أثناء العهد الملكي، من حيث جوهرها رغم التماثل الفيزيائي كما أسلفنا. العهد الملكي له سماته في بلورة ذات هي من نتاج روح الملكية أو هي الانعكاس الواضح لروحه، إذ وضعت السلطة الملكية حدودا فاصلة بين الريف العراقي وحدود المدن بين القانون والأعراف بين

النظام واللا نظام بين المجتمع واللا مجتمع.. فيما العهد الجمهوري فتح الأبواب مشرّعة على الهجرات الريفية المتعاقبة وفتح أبواب المدن لكل الهاربين من جحيم الريف المدقع في فقره، فقد كان ذات (السيانقلابي) ذات صلة وثيقة مع الريف بوصفها حاضنته الأولى ومرتع صباه.. لقد كثف من نظرته إلى الجوار العربي وتمتين صلاته به وواضعا الخطط الثورية والانقلابية على انبثاق ذات جديدة تتماهى مع تطلعات سلطة الجمهورية النظام.. إن البحث في هذه الخاصية ربما سيحيلنا إلى فتح ملفات في خصوصية نشأة السلطة الحاكمة ومرجعياتها..

لقد توّلدت نزعة تدميرية هائلة للذات العراقية الجمهورية لأجهزة مؤسسات الدولة وأجهزة الحكومة معا، ذلك ما فرضه الإحساس بفداحة الخسارات المتلاحقة.. تعسّف واستلاب وقمع مارسته أجهزة الحكومة تجاه الذات المحاصرة في قفص الجمهورية، ومن الطبيعي كانت الذوات تمارس عقوبتها لنظام الحكم في لحظة تاريخية منفلتة وتعبّر عن غضبها بحرق وفرهدة كل ما يُعتقد انه تابع إلى السلطات المستبدة، ذلك ما كان يصاحب كل فترة فراغ سلطوي، عندما تنفلت الأمور ويعم الحرق وطلب الثأر والقتل المجاني وحالات اغتصاب كثيرة.

ليس من المؤكد إن اختبار ذات الجمهورية سيكون قاطعا ومؤكدا، ليس ما يجترح من ذوات أخرى مواكبة للمتغيرات، أو نتائج محسومة.. تكون داحضة في تقييم واختبار كل الآراء التي قيلت بحقه، لأن العراقي/ الذات أنساق عدة في السوسيولوجيا وليس نسقا موحدا.. النسق الثقافي لشخصية ابن الموصل ليس ذاته عند البصري أو البغدادي في العهد الجمهوري.. وهذا البغدادي أيضا يخضع لأنساق عدة داخل المنظومة

الثقافية المحلية، فهو لا يتسق بنسق موحد مع أهل بغداد كلهم، فأهل الأعظمية غير أهل الفضل أو الكراديين او أهل الثورة، الاختلافات قائمة في أنماط المعيشة والثقافة والأكل الدسم وعمارة البيت وارتداء الأزياء الملائمة للزقاق والشارع ومكان العمل، رغم ما يؤشر على الخط البياني والمعدل النوعي والكمي في الاستبيانات البحثية والإحصاءات المصاحبة لدراسة نمط الظاهرة.. غير إن ظاهرة النسيان هي التي توّحد ذوات عراقيي الجمهورية في تصنيفاتهم السايكولجية المحضة، وظاهرة الذاكرة المعطوبة التي لا تعين الجميع من العراقيين على استعادة ما مر بهم من أحداث متعاقبة تجعلهم ينسون ما مرّ بهم بغضون أيام ليس إلاّ، لذلك استثمر الساسة تلك الميزة وخبروا ذلك جيدا عن الذات العراقية الجمهورية، فحصّنوا أنفسهم بالرجال والعيون والأموال، أي قرار مجحف سيُنسى بمرور الأيام العشرة التالية، ينسى ذوو المتوفى مصيبتهم، عندها يصبح المرحوم مجرد ذكرى وحسرة في القلب تتلاشى وتذوب مثل شمعة ذاوية..



2 ـ عراقيو الجمهورية

(الكمش والقشمر)

مفردة الكمش مدنية الاستخدام، ولدت في زمن الجمهورية تدل على شرود الذات وبلادتها، ومنها استقت مفردات دالة أخرى كمصطلح (كمش علتيغة/ كمش صيد العصر/ كمش للتختة)، وهو مشتقات من اللغة السرية للمطيرجية، تطلق على الطيور غير الأصيلة التي تمسك بسهولة، بعكس الطيور المتوحشة (النجرة) بالجيم المثقلة، أما مفردة (القشمر) فهي عسكرية صرف شاع استخدامها في معسكرات تدريب الجنود. القشمر تدمغ للجنود المستجدين من جنود المواليد الجديدة (القرعان نمرة صفر) والمعاقبين والذين لا يحسنون فتح وسد النظام ولا يعرفون (درب الفلتة) بعد انتهاء فترة التدريب الرئيسة. الخدمة العسكرية في مراكز التدريب تتطلب حفظ اللغة العسكرية بيومين فقط وداخل المركز(سر الليل، عيادة، كنية، الموجود الكلي، مشجب، سلاح سز، استعد، استرح، ارسال، رحبة العجلات، بهو الضباط، الإعاشة، ميدان الرمي، قداح ـ براد، عدم نزول، عدم تعرض، تعليم إضافي، نمرة صفر، يطق، شوربة عدس، بسطال،نموذج، محاضرة، فوهة، ترباس - بيت الترباس، مرود، أنبوبة الغاز، خارق حارق، طعن، ج م غم، جيم شغل، نزوح المراحيض، أوامر القسم الثاني، ابركْ ـ انهضْ - هرولْ،

استدرْ، باب النظام، قصعة، خفر قاعة، عريف خفر، عقوبة، قزان، فتح النظام - سد النظام، إزعاج ليلي، فرضية، قشمر / قشامر، كمش، الفرضة والشعيرة.... الخ). تلك بعض من معجم لغة العسكر التي وفدت في زمن الجمهورية العسكرية، ونائب العريف غالبا ما يسرّح القشامر بالقنافذ، دلالة اللهو الفارغ في حفر وطم المواضع والمواضع البديلة وتنظيف القاعات والمراحيض خصوصا لغير المسلحين(السلاح سز).

نظامنا الجمهوري جاء لينتقم من الحياة المدنية، وعسكرة الذات بحاجة إلى حروب ليتم تدريبها وترويضها لتنتج لنا الذات البديلة والمسماة بـ(ذات القشمر) حتى نظام ما بعد ال 2003 لقد عمل في لاوعي النظام على الإبقاء بقدسية مشرعنة على ذات القشمر.

لماذا ذات الجمهورية؟ لأنها هي الأكثر إشكالا وغموضا من غيرها وما أصابها من تغيرات كثر، أصابها الدمار كاملا والتخسّف والإنهاك ثم الانتهاك، لأنها أمام أعيننا تتحرك وتمشي رغم كل جراحها.

ذات العراقي الجمهوري هي ذات لحظتها، ستكون مدعمة بالحكايات النصية المروية، وما المباحث الافتراضية هذه إن صحّت تسمية المباحث المدمجة إلا محاولة اجتراحات لإدراك محتواها من خلال ملحقاتها الداخلية والمظهرية في سكنها وطعامها وملبسها. الذات التي تمزّقت إبان حقب الدكتاتوريات العسكرتارية.. هي الذات المنفعلة الهائجة والصاخبة نفسها التي تظهر أمامنا في التلفزيون لتعبر عن صخبها وعنفها بكل وضوح لتؤكد ما أفرزته حقبة الجمهورية الصاخبة على مر سنيّ عهودها.

كل هذه الأوصاف ممكنة في التداول الاجتماعي البحثي، ولكنها تصح أو لا تصح وفق معطيات ربما بدت هلامية في أحيان كثيرة، إذ لا تنطبق عليها كل دروس ونظريات علوم الاجتماع وعلوم الأنسنة الحديثة.

* * *

حكاية: ستار جوهرة

أول مرة أتعرّف عن قرب على ذات جمهورية حماسية كنموذج في راحة اليد قابلة للفحص والتفكيك وجدته يقود تظاهرة صاخبة في بداية السبعينات في لحظة انبثاق الجبهة الوطنية من القرن المنصرم، حيث أصبحت التظاهرات لازمة لكل عهود الجمهوريات الخمس، وبرزت ظاهرة (الحماسة) كنسغ مرافق لذات الجمهورية الصاعدة رغم البؤس الظاهر في ملبسها.

(ستار جوهرة) ذات جنوبية حماسية له صوت جهوري ثاقب وحضور فاعل، يحفظ عن ظهر قلب نوادر مناسبة لشعارات جاهزة لكل جهة تدعوه للتظاهر وبأجرة مقطوعة. كان ستار حريصا لافتعال ما يلفت المتجمهرين على الأرصفة في فعاليات وتمثيليات أثناء لحظة التظاهر التي غدت سمة عهود/ أطوار الجمهوريات السريعة، وفي النهاية يقبض ثمن فعاليته تلك من دون أن ينتمي لا للبعثيين ولا القوميين ولا للشيوعيين، لكنه قاد تظاهراتهم بكل مهنية واحتراف. الغريب أنه كان يسجن لفترة محدودة ثم يطلق سراحه ليواصل عمله، عندما اقتنع القاضي أن ستار جوهرة يمارس عمله طلبا للرزق فقط.

كانت عدّة عمله مكبّر صوت بيده وقميصا أحمر أو أخضر وفق دعوة

زبائنه، وبصوت مبحوح يلقي شتائمه على أصحاب المؤامرات والعملاء أثناء الاستعراضات الصاخبة وفي أحيان أخرى يصطحب حمارا تائها ليعلق صورة ما في رقبته إمعانا في إغاظة الأعداء.

مَن هم هؤلاء العملاء؟ لا يعرف ستار جوهرة، بل أنه لا يريد أن يعرف.. لم يكتفِ بذلك، راح بعد بلوغ الحماسة ذروتها أمام منّصة الاحتفال، ليتسلّق على الأكتاف ويكشف صدره وينفش شعره.. يشدو بصوته المبحوح وخلفه جوقة الحماسيين المتدربين بإيقاعات متواترة في ضرب أقدامهم على أرضية الشارع المعبّد.. المسؤولون يرفعون يدا واحدة للتحية وإذا تحمّسوا رفعوا الثانية أمام الكاميرات فتختل حركة الذات الكبيرة.

ذات الحماسة تناسلت في ذوات مخصوصة بسرعة البرق وتناسخت في نمط جمهوري فريد في الشوارع والمقاهي والبيوت حتى غدت (جمهورية الحماسة) بذوات تجيد فن القتل والسحل والإبادة والاندفاع في الحروب.. الحماسيون دفعوا الحكومات ـ كل الحكومات ـ إلى التهور والحماقات المتلاحقة وتصاب بلعنة الحماسة في القرارات التاريخية.. حروب وحروب؛ لماذا؟ لا أحد يقوى على ردعهم.. بأيديهم ذريعة داحضة.. يتهمون خصومهم بالعمالة والجاسوسية والكفر والجبن، وتلك كافية لإبادة الآخر أو طرده ونفيه خارج البلاد في أضعف الحالات.

***

هذه المباحث هي ليست مكتوبة وممنهجة بأفكار ولغة الأكاديميين

تلامذة أو أساتذة، هي نماذج من حكايات يمكن أن نؤسس عليها بحثا في منطق الذات القلقة، هي انطباعات معكوسة من داخل حياة الذات التي عاشت في كنف جمهوريات الدم المراق.. هي ما تركه الأعراب ولا يمكن أن تلتفت إليه الثقافة العراقية بالمرة، فهي مشغولة طوال الفترة التي انقضت في كتابة النص الأدبي، لأن محور الثقافة آدابها. كيف ينظر الإنسان إلى الأحشاء وهي تنبض من خلال السونار؟ أي إنها قراءة الداخل التحتاني، كأنها استنطاق لاوعي الذات في عهود الجمهوريات من 1958 حتى لحظة 2003وما بعدها.

الجمهوري العراقي طبعا لم يأتِ من الهواء، إذ كانت تجارب المحيط العربي وتجربة مصر بالذات هي المؤثر الموجّه في إنتاج موجة قادها العسكر بكل إتقان بقبضة فولاذية كما يقولون، فـ(النظام الثوري سيحقق للشعب أمانيه).. العراقي الملكي سيدير ظهره للعراقي الجمهوري، سيستخدم القادم الجمهوري لغة تخاطب جديدة أكثر حماسا في العلاقة مع الجمهور، ما تبقى من الذات الملكية تنظر للعنف اليومي الذي يمارسه الجمهوري في الشوارع كل يوم، ما هو إلا من طبيعة النظام الجديد.

***

حكاية: الجمهورية البكرية

أول مرة سَمعت بكلمة (ثورة) من خلال مذياع ملكي من بقايا الحقبة وهو من نوع غراند. قال المذيع: (ثورة لتحقيق الاستقرار والرفاهية والتقدم والانتصار على الصهيونية)، كانت الساعة تشير إلى العاشرة

صباحا وفي ذلك اليوم ماتت حمامتي الفضية الوحيدة 17 تموز من عام 1986، أي في الطور الرابع للجمهورية (أحمد حسن البكر) وقد عمت حركة غير عادية في مدينتي آنذاك. وبرز في الشارع بعض الشباب الذين يرتدون الملابس الخاكية من المدنيين ويحملون البنادق. الغريب أن هذه الثورة لم ترافقها فوضى كما هو المعتاد في هذه الأيام، مرت الأيام الأولى لها والذوات غير مكترثة لما حصل، ليس هناك من مؤيد أو رافض لها، وكأن الأمر لا يعنيهم بالمرة.

مثلما كان الملكي يعدُّ عبر حكوماته المتعاقبة تحقيق أماني الذات الكسيرة، لكن ختم العراقي الجمهوري هو المختلف هذه المرة عما قبله، ربما لم يكن منسجما مع نفسه أو محيطه ولكنه بحاجة ماسة إلى تعقّب ذلك مهما كان جنس التغير، ومهما كان نوع التعقّب وهويته.. هل أصاب العطب هذه الذات؟ الجواب الذي نتلمس حقيقته غير المباشرة من خلال قراءة الما بعد والما قبل في أصداء قاع الشخصية في المأكل والملبس والسكنى.. حتما سنكتشف ما هي الحاجة الضرورية للتدوين.. هل تعرف إن العراقي الحالي لا يدوّن؟ ذات شفاهية محضة، يعيش الآن في عصر ما قبل التدوين.. إن أتيح له التدوين فسيدوّن بأمر سلطة ما، حيث هيمنت على مخيلته هراوة الشرطة السرية، أو ربما هي التي أنتجته وفق مخيلتها أو خطابها السري وتوجهات أبطالها وأمزجتهم.. حتى وان لم تكلفه بسلوك الطريق الأيدلوجي الذي رسمته له، فأنه يسلك طرقهم دون وعي منه. يعيش لحظة تمجيد السلطة بلاوعي اللحظة التاريخية.. انه يدوّن بوعي الشفاهة في الحمايات المتناقلة عبر الألسن.. اللغة الباذخة في بلاغتها وأطنابها ومبالغاتها وسرياليتها وشرودها الذهني

لا تعنيه مطلقا.. وفي كلتا الحالتين نطرح النموذج المشّوه لمصطلح الخاصية العراقية الأكثر التباسا في آنيتها الجمهورية. السومريون الأجداد المفترضون هم الأكثر تدوينا لكل حياتهم، ونحن الأبناء للأسلاف نعتبر الأقل تدوينا بين شعوب المعمورة..

في المتن ربما نجد الاهتمام التدويني بتلك الخاصية.. الجمهورية الثورية ومنها من حروب وحصارات وخوف من غول السلطة المهيمن على حرية الفكر.. ربما تكون المصادفة في انقضاء الحقبتين الملكية والجمهورية اليوم بعد ال 2003، ولكن الغريب إنهما اقتربا من ذات الفترة الزمنية التي قضاها كل نظام منهما في العراق تقريبا. ترى مَن كان صاحب الأثر الأعظم الملكي أم الجمهوري؟ جروح مَن ابلغْ في الذات المتقهقرة.. الملكية أم الجمهورية؟

حكاية: تلفاز الرعب

مرة من مرات جمهورية الحرب والتلفاز، قد حللّ (صدام حسين) بشيء من سوسيولوجية الخاصية العراقية عندما قال (يقولون سابقا إن العراقي ما تصير له جاره) أي لا يمكن قيادته بسهولة وقد عقّبَ على هذه المقولة قائلا:

ـ أحنه راح انسويله جاره ـ قهقه وتقهقه الحاضرون خلفه.. واشتعلت القاعة في التصفيق الهستيري..

تلك المقولة لخصوصية السلطة العراقية الحاكمة والخاصية العراقية للذات المحكومة، الاثنان الحاكم والمحكوم لا يشبهان أحدا من المحيط العربي لا بسلوكه ولا بممارسة العنف أو عدم تقبّل الآخر أو

بالهياج أو الانفعال اللحظوي المميت والذي يقود إلى انقلاب السلطة بحرائقها وفوضاها.

ثمة افتراضات أخرى داعمة تخص الخاصية العراقية في شجنها وحزنها وتذبذبها في (البين والما بين)..

هذا الكتاب خاص جدا في لحظته العراقية الغائمة وخلفيات المشاهد المؤثرة.. وربما قد أخفقت هنا أو هناك في فهم تلك الخاصية، في مطبخ الذات النهمة أو في زيها الداخلي والخارجي أو هيكلية عمارة سكنها، لكن يشفع لي إني دوّنت، استطعت التدوين وذلك أضعف الإيمان.. لأن دراسة السلوك المجتمعي هو نسبي جدا والنمطية لم تكن ظاهرة في الإطلاق بتاريخ هذا البلد، وفي العادة سيكون التدوين حتما أفضل من الشفاهية لتحصين الذاكرة العراقية من الخرم المتكرر والتشويه، مع تعاقب المشاهد المتلاحقة في دراما مأساوية طويلة الأمد.. كمْ فقدنا بالشفاهية في تاريخنا الدامي؟ وذاتنا العراقية مصابة بعطب النسيان المقيت، كم أساءت الشفاهية لتاريخنا اليومي من مبالغات وأكاذيب وديماغوجية قاتلة؟ كم هي المحاولات الجادة في الابتعاد عن تاريخ السلطة ودهاليزها ومحاولاتها المرعبة في تزييف التاريخ؟ كم هو حجم المبالغات والمبلغات الجماهيرية في داخل كل ذات منا؟ لذلك ستكون المحاولة لخروج التدوين من قبضة ثقافة الدولة، وفي إعادته إلى الذوات المتفرقعة في مقلاة الجمهورية أو لحظة الما بعد.

* * *

3 ـ جمهوريو الشاشة الصغيرة

من هذه اليد إلى تلك اليد

لا شك أن تأثير البث التلفزيوني على مدى خمس حقب جمهورية عتيدة كان تأثيره عظيما على صياغات الذوات العراقية، والبث التلفزيوني المسيّس استطاع التأثير والتعبئة بطريقة ماكرة وخبيثة، وفق تفكير وتوجيهات السلطات وسياساتها المتعاقبة. يعتقد الآخر المترف أن عملية جلد الذات في الكتابة الاجتراحية السوسيوجتماعية هي عقدة شرقية للتنفيس عن عقدة المظلومية التي تعاني منها ذات القشمر العراقية، ولكن الأمر أجده مختلفا في جلد الذات هنا، غالبا ما ينفع الجلد الناعم في درس التقويم الأخلاقي والاجتماعي لتستقم تلك الذات تحت تأثير ذلك الجلد المدغدغ للحواس. نحن نجلد ذاتنا في المناسبات ومآتم الموتى وفي الاستحمام ومناسبات أخرى.

شاشة البث الموجهة المسمّاة بالصغيرة أو الفضّية، هي شاشة رعب وتصدير لأفكار الثورة إلى كل بيت إن صحّت مفردة الثورة هنا. أشاع التلفزيون الجمهوري/ الثوري تقاليده بكل قسرية، حتى أصبح البث التلفزيوني الجمهوري الموجه لأكثر شرائح المجتمع كوافد ساحر وجديد، وقد عملت حكومة الجمهورية الرابعة (احمد حسن البكر)

على تحسين وتقوية البث ليصل إلى أكثر من منطقة نائية.. الإدراك المبكر للعبة الإعلام الموجه المدروس.

تلفزيون ديكوره من خشب الصاج.. صورته مضببة ومنمّشة وقنواته رسمية فقط إبان لحظة العهد الجمهوري الثوري في أطواره المتعددة.. سواء كان على الكومدينو في هول أو كلدور المنزل أو على رف المقهى، مكتوب عليه هدية مجلس قيادة الثورة ماركةeic ستة وعشرون بوصة، تُظهر الشاشة الفضية كل مساء جمهرة لذوات مسحوقة في أهازيج وهوسات لافتتاح جدارية أو مقر حزبي أو معسكر تدريب طلبة أو حملة عمل شعبي أو برنامج الطلائع والفتوة في العطلة الصيفية، إنها عسكرة واضحة المعالم.. وكأن لا شرف إلا بالعسكرية.. حدث هذا إبان جمهورية الحقب المتوالية.. في نشوء وبلورة الأول، والصعود/ الصمود في طورها الثاني ثم فترة الأفول، كذلك في السقوط وهو طورها الثالث.. القناة التاسعة ثم القناة السابعة فقط يحق لذات الجمهورية أن تتلقّى ميديا الثورة الموجّهة.. هما القناتان اللتان تستقطبان جميع الذوات على موجات أثير البث اليومي الموجه.

افتتاح البث اليومي يبدأ في الساعة الرابعة عصرا افتتاحا مصحوبا بآيات من الذكر الحكيم ثم أفلام كارتون ثم تنتهي حصة المواطن من المتعة الروحية وتبدأ الحصة الأكبر (للثورة) المحاطة بالمؤامرات دوما وأبدا كما كان يُشاع.. في الخارج كان الاستعمار والامبريالية وفي الداخل يندس (الخونة والعملاء والجواسيس)، حالما تنهض في الصباح ماشيا بصف الجدار لتجد نفسك واحدا من هذه الأوصاف العميلة بوشاية أو بدونها، وعلى الذات الخارجة من كنف الملوكية أن

تحمي وتدافع وتفدي بيضة الثورة بالروح والدم - شعار الطور الجديد للثورة ـ، غير إن المؤامرة الحقّة كانت على إبادة وسحق وتدمير منظم لذات الجمهورية فعلا.. مما جعل الكثير من الذوات يحمي نفسه في قفص الانتماء المؤدلج للحزب الحاكم، انتمِ تسلمْ.

تتجمع الأرواح المتعبة ليلا لمشاهدة البرامج والأفلام والزيارات وخطب وقهقهات ووعيد السيد النائب أو ما تلاها في عهد الجمهورية الخامس، حتى نشرة الأخبار الرئيسة فهي تمر عبر آلية معقدة للموافقة السياسية لتقديم ما يوجب تقديمه من الزيارات (الميمونة)، ومذيع الأخبار تمّ اختياره وفق التوجه (الثوري المرعب) بشاربه الكث وصوته الجهوري وقسمات وجهه القاسية انه فصل من الرعب العراقي.. من رشدي عبد الصاحب إلى غازي فيصل، وعبر سنوات قليلة من طور الجمهورية الصاعد العنيف بدأت الكاميرات تقترب شيئا فشيئا من ذات العراقية في الشوارع والساحات والمعامل وقاعات الاحتفالات والجامعات تلتقي بهرم السلطة.. الرأس الهرمي يعطي دروسه للجمهور بفنون التصفيق والأهازيج والتضحية أو فنون الكلام والاحترام في الجلوس والقيام وتغسيل الأسنان قبل النوم.. الرأس الجمهوري الخامس يهوى تقليب قدور المطبخ وفتح الثلاجة أمام كاميرا التلفزيون الخاص بنشاطه الاجتماعي/ السياسي كل يوم.. الكاميرات تصور كل يوم وتبث بتوجيه وإشراف من لدنه شخصيا سواء فوق الحصان أو في قارب في الهور أو فوق قمم الجبال أو المناطق الشعبية. الشعبية المدروسة للاقتراب من النسق الكوبي في شخصية كاسترو.

سلطة الجمهورية تمارس تمرينا تعبويا عندما تعرض فيلمَ رعبٍ

عن وجوه مرعوبة في قاعة الخلد.. ينادون على الاسم لتقترب الكاميرا لمشاهدة أضخم رسوم الرعب الحقيقي على الوجوه مساقة إلى الحتف وساحة الإعدام التي نصبت لهذا الغرض، ووجوه أخرى تودع وتتعلم الدرس بحذر شديد.. سيجار ودموع وقهقهات ثم هتافات عنيفة وينتهي الفلم نهاية سعيدة لتهضم ذواتنا المعاني المستترة وتقبّل فنيّة الدرس السّري إلى لاوعي الجمهور بتوجيه من سلطة الجمهورية الخامسة.. على الذات الرازحة تحت هذا النير أن تتعلم الدرس وتعلمه لأولادها وبناتها فالحيطان لها أذنان.. قائد الجمهورية الخامسة راقه معاينة ذاته محاطا بأطفال المدارس (غسيل لفكرة دموية الجمهوري وثورة تموز وإزالة آثار الدم السري المراق من وجه الثورة)، يلمح صورته المتحركة من القناة الرسمية متبخترا بطوله الفارع وسمرته المحببة لدى الذوات المستكينة، وفي المساء يبحث ك(مفكر) ندوة عن الكفاءة الإنتاجية لمصانع الدولة والقطاع الخاص وبذلك انتهت السهرة وتبدّد الليل ونامت الذوات حالمة في الغد السعيد كما وعدهم باختفاء المؤامرات عن وطن الثورة الصاعدة..

متى ينام ومتى يصحو؟ تتساءل ذوات العوام مبهورة بسحر صورته التلفزيونية واختيار اللقطات المؤثرة في كل طلّة صورية.. هل يضحك؟ هل يبكي؟ هل يستحم؟ هل يأكل مثلنا؟ هل ستظهر صورته في وجه القمر كما هو سلفه عبد الكريم قاسم راعي الجمهورية الأولى؟ أم يكتفي بصورة بالبيرية في الساعة اليدوية والجدارية وبدلات الطلائع والجداريات؟ مَن يصبغ له حذاءه؟ لتمر الذوات بلحظة تقديس جديدة وتأليه القائد بلحظة لا وعي جديدة.. الأسئلة

تتناقل في الأماكن العامة ووصل الاعتقاد إنه (محّصن) حتى ضد الإطلاقات الطائشة.. يدعون إن حصانته في الحروز والخرز التي يحملها تحت إبطه أو يشدها على بطنه..

إن ذات الما بعد وعند تحليل كوارثها اليومية ترجع ما يمر بها إلى خيارين: القسم الأول يرجع سبب الفوضى والكوارث إلى الخلل البنيوي الذي لحق بالذات العراقية أثناء النشأة أو أثناء التحولات المفصلية التي مر بها البلد.. أما الفريق الثاني فيرجع الأمر برمته إلى السلطات المتعاقبة عثمانية أو ملكية أو جمهورية أو احتلال خارجي، هي السبب فيما يحصل من هذه المأساة العراقية اليومية لعدم قدرتها على دفة إدارة الحكم. حتى وصل الاعتقاد أنه مباركة السماء بشعار مركزي مخطوط على لافتات المناسبات الوطنية (صدام حسين هدية السماء للعراق) ولا من مجيب.

يستمر التلفزيون المحلي بعرض الصور اليومية.. الذوات تتقافز بل تتراقص منتشية والنسوة مزغردات صائحات والموكب يسير منتشيا بالحفاوة المرعوبة البادية على وجوه لا تعرف ماذا تعمل تجاه غضب الذات الكبيرة.. إذ تنقل ذوات الجمهورية مرويات وأساطير كبرى عن غضبه وقتله للمقربين قبل الشعب.. كان لبروز ذات الجمهورية مفارقات كبرى تجاه التعاطي مع شاشة التلفاز، عندما تقترب عدسة الكاميرا من (ذات متلفزة)، تراه يفتح فمه ويصاب بنوبة من الدهشة والرعب متلفتا يمينا ويسارا ومستعينا بالآخر ثم يصرخ (بالروح بالدم) وهي ضريبة البقاء وسلامة الرقبة.. الرعب الذي رافقه لغاية اليوم أمام عدسة الكاميرا حينما تقتنصه لأول مرة.. يصرخ عندما يشاهد هرم السلطة وأحيانا يبكي أو

يقطّع ملابسه أو يرفع يديه إلى السماء أو ينحر خروفه الوحيد في مشاهد رعب وفنتازيا الذات العراقية، وقد حاول بعضهم نحر ابنه الوحيد لمقدم القائد لبيته. إن المتفحّص لصور فوتوغرافية لذات جمهورية يجد بذور الارتباك والرعب في الصورة / الرمز.. وفرادة اللقطة البصرية الفنتازية للرعب العراقي من أجهزة الأمن المختلفة والمتعددة المحيطة بالذات الكبيرة، انظر حركة اليدين والابتسامة الخادعة والوقوف المفتعل والتفكّر الكاذب.. إنها اللحظة المتخيلة الكاشفة للعبور إلى باطن هذه الذات.. هذه الصور الفوتوغرافية وشريط تلفاز الجمهورية كشّافات ضامنة لفنتازية ذات الجمهورية التي أسست لانهيار وانسحاق دائمين..

حكاية: الخبر الأول

يظهر التلفزيون المحلي في أوقات الذروة وفي ساعة الأخبار الرئيسة، وهو الخبر الأول لذات الجمهورية الخامس (الزيارات التفقدية)، حتى إن صياغة الخبر وبلاغة معانيه كانت من الرشاقة والدهشة وسحر البيان في تقبلها، كانت طواقم الاستشارات اللغوية تعمل ليلا ونهارا لإبراز لغة الخبر في صورته البلاغية والمؤثرة المثلى: (على بركة الله وحفظه عاد إلى بغداد عصر هذا اليوم السيد الرئيس القائد من زيارة تفقدية زار فيها قضاء... وقد اطلع سيادته على واقع... وكان في استقباله... وقد أمر بتكريم... وأوعز سيادته... وقد أحاطت الجماهير الزاحفة من كل حدب موكب سيادته... وقد خاطب الجماهير الزاحفة بكلمة...)

لنشاهد مدى اشتغال اللغة على إضافة البلاغة والقدسية على تقاسيم الصياغة والبث بصوت رخيم مع ابتسامة سافرة وبساعة اجتماع وتحلّق ذوات الجمهورية متعبة دائخة على شاشة البث. أما الخبر الثاني(ثم التقى

سيادته مع السادة أعضاء مجلس قيادة الثورة... تبرز صورة الاجتماع مع موسيقى عالمية مصاحبة... وقد صدر القرار...) فيما يكون الخبر الثالث (التقى كذلك مع نخبة خيرة وشريفة من مقاتلي القصيدة الشعبية المقاتلة.. وقد تغنّى الشعراء بحب الوطن والقائد: ـ مقطع ـ قال أحدهم:

ـ سيدي حلمت بك البارحة كأنك على حصان أبيض في ربوع الوطن وفي الحقول الخضراء، كانت أرجل الحصان مرفوعة عن الأرض بمسافة متر تقريبا إي والله يا سيدي وحقك وحق الحزب والثورة..

ـ هههه..

قال آخر عندما بُحّ صوته وتحشرج.. عندما لم يبق زملاؤه له شيئا يقال.. لم يستطع قول شعر ما في حضرته والشبح المخيف/ المهيب يقترب منه بتؤدة تلعثم ثم قال بهستيريا:

ـ سيدي لأن الشعر تبخّر في حضرتك.. سيدي هل تستطيع أن تأكلني؟

ـ هههههههههههه.. قهقهه وطبطب فوق ظهره المنحني أمامه رفعه بتؤدة كما ترفع الخرقة المبلولة من الأرض، ثم همس في أذن سكرتيره وسجل الأخير بقلمه سرا ما.. مكرمة الشاعر الشعبي سيارة سوبر كروان..

وشاعرة أخرى تجرأت لتتغزّل بالذات الكبرى أمام الملأ، قد اطرق قليلا باستحياء.. ثم رفع رأسه لتبان دمعته الكبيرة، علامَ البكاء؟ لا أحد يعرف.. بكت الذوات الجمعية كلها في لحظة فنتازية هي الأخرى من نتاج ذات الجمهورية العراقية الباكية تلك الليلة.. وفي لقاء آخر ضمن أسبوع يوم ميلاده السنوي.. اليوم الذي يُعد له سنة كاملة.. كل دوائر الدولة تضع برنامجها عن أسبوع يوم ميلاده.. تقدم أحد المطربين الهواة

نحوه ليقدم آلة العود الشخصي..قال: هذا العود أقدمه هدية لك سيدي الرئيس بعد أن ورثته من جدي السابع، وآخر يقدم سيف العشيرة أو بندقية (صنكر) من ثورة العشرين وواحدة تقدم أقراطها للمجهود الحربي.. أين ذهبت تلك الذوات المتحمّسة المندفعة يا ترى؟ لا أحد يجرؤ أن يقول، لا أحد يعرف لماذا تقدم القناة الأولى في ليلة يوم الميلاد أغنية (تفرحون أفرح الكم) لحميد منصور على طيلة اليوم/ الأسبوع كتقليد سنوي، ربما كانت الذات الكبيرة تحب هذه الأغنية بالذات..

هذا الكتاب هو بمثابة قائمة كشف الحساب لهضم الذات العراقية الآنية وانعكاسات حقب الملوكية والجمهورية والما بعد.. وعين الراوي تطيل التمعّن في التغيرات السايكولوجية المرعبة التي أصابت هيكلية الذات ولحق بها من دمار وإتلاف في روحها المشكوك في حيويتها.. هل كانت الذات العراقية ذات قيمة كبرى؟ هل هي ذات ميّتة؟ هل هي ذات حيّة؟ إنه رصد يومي لأحداث بعينها من خلال الزي وملبسه ومحل السكنى ومحل السكن، ضمن مرويات حكائية عراقية سرّية لم يلتفت إليها المدوّن العراقي السادر في هواية الأدب اللا ـ أدبي للواقع المزري فعلا في بقعة الجمهوريات الخمس «الثورية».



الفصل الثاني

أولا: في البيت

1. عراقيون في المسكن:

«البيت هو المكان الوحيد الذي علينا
أن ننصاع لسلطته عندما نطرق بابه»

وليم ساوريان

أستطيع القول أن المؤثر على الذات هو ثالوث البحث، في البيت/ الزي/ الطعام من موجهات كبرى في السلوكيات العامة، في انفعالها وفي سكونها، في روحها الوثابة أم في خنوعها.

يقولون الجار قبل الدار، استنادا إلى القول المأثور (جارك ثم جارك ثم أخاك) لذلك يفضل مشتري الدار الجديدة، قبل النظر لفن العمارة الداخلية والخارجية للسؤال عن الجيران المحاذين، بالإضافة إلى تفضيل البيت المُطل على الشارع العام وان يكون ركنا في مربع البلوك السكني، كما يفضل القادم في شراء البيت قريبا من الأقارب وأولاد العم لتمتين الذات من الغزوات في واحدة من انبثاقات لروح البداوة القابعة في داخل الذات.

يأتي موقع المسكن كداعم لبطاقة السكن، وكهوية فرعية ليست قاتلة هي إضافية لزيادة تحصين الذات القلقة، يذكر فيها رقم المحلة والزقاق ورقم الدار، لتسهل مراقبة الذات في المحيط السكني كواحدة من آليات المراقبة السلطوية. لذلك اعتبرت هذه البطاقة كشرط لمراجعة دوائر الدولة مع مستمسكات ثلاث أخرى متمثلة في هوية الجنسية وشهادة الجنسية وبطاقة التموين، وقد شاع استخدام مصطلح الجنسية عن هوية الأحوال الشخصية، لثبوتية الذات العراقية كهوية ملتبسة ومشكوك فيها غالبا، حتى أصبحت صحّة المعلومات ـ صحة صدور ـ لازمة جوهرية في كل مراجعة لدوائر الدولة في العهد الجديد ما بعد 2003، تدل حرفيا على ممارسة التعذيب النفسي البارد للذوات وتدويخها في الخضم. مادام النظام يسير على نسق جمهوريات الشرق فذلك يعني أن الذات تخضع للتعذيب الناعم، ولا يعني بالمطلق الحنين للنظام الملكي الشرقي، فنحن لم نكتشف طريقة نظام الحكم الملائمة لحكم الذوات حتى ساعة الكتابة هذه، إذ بات الحنين لكل نظام سابق لازمة جوهرية في صميم الذوات المحكومة على مر السنين.

* * *

2. مخطط البيت والمدينة:

المدينة تمنح البيت هويته، والبيت يمنح المدينة سمة لهويتها المجتمعية، ولكن ثمة عشوائية تلوح في الأفق للمدن في تخطيطها الهندسي والعمراني لدينا، فعندما تختصر المساحات الخضر ومساحات التنفيس والتهوية بحجة الانفجار السكاني واستغلال أصحاب مولدات

الكهرباء الأهلية للأراضي المتروكة والجزرات الوسطية لممارسة أقصى حالات العنف والتلوث البصري والسمعي بفضل حلول ديناصورات الطاقة البديلة.. الحدائق تنحسر واللون الأخضر يمحى من خارطة الألوان العراقية لتضيف معنى جديدا للعنف والتشويه والتلوث اللوني المضاف لشكل المدينة الجديدة، بينما أشكال البيوت من الخارج تكتفي باللبخ الرمادي أو رش الألوان بعشوائية على هياكلها في عملية ترميم في أحسن الأحوال. ومع كل الضحايا التي تقع يوميا في نطاق المدن لم يتناقص السكان بل أصبحت الزيادة انفجارية لتصل مساحات البيوت المنشطرة إلى عشرين مترا أو أقل من ذلك. البيت والمشتمل والشقة تلك علامات شاخصة لترسم المسكن العراقي.

***

حكاية: دليل البيت

كيف تستدل على بيتك في آخر الليل؟

يحكى أن سكرانا (صاير طين) كل ليلة يمر على صبيان المحلة، يحضرون واجباتهم المدرسية تحت ضوء الشارع، يدعى السكران «محمود السمكري» رجل قصير جدا وبدين بإفراط، كان يذهب بملابس العمل الرثة مباشرة بعد انقضاء عمله إلى نادي العمال ليشرب ويعب من الخمر ما أتيح لمعدته، وعندما يأتي إلى المحلة يسأل كل ليلة عن مكان بيته:

ـ رجاء شباب ما تندلون بيتي؟ في كل ليلة يتكرر الأمر سألته.

ـ لماذا عمي محمود ما تندل بيتكم؟

ـ البيوت كلها متشابهة. باب في الوسط وشباكين وطابوق أجرد.

تبيّن ما قاله كان حقيقة مجحفة، فبيوتنا متشابهة جدا في تصميم عمارتها الخارجية، نعيش تحت سلطة المعمار في بناء الدور. وهذا المعمار لا يستطيع تجاوز نمطيته في رص الطابوق الأصفر بخريطة شفهية وبنمطية اعتادها وأتقن تفاصيلها.

إن الرأي القائل: «لا من هوية واضحة للبيت العراقي بفن عمارته، بمطبخه وحمامه وغرف المعيشة فيه»، هو رأي غير واضح في التفاصيل، فالمعالجة في السوسيولوجيات او ألانثروبولوجيات الحديثة لا تهتم كثيرا بالمقولات الجاهزة، بقدر اهتمامها في تصنيف التفاصيل ونمذجتها، وعمارة البيت العراقي خلال الخمسين سنة الماضية، إنما هي تكريس لشيوع النمط في الثقافة المتهالكة والتقليد الأعمى الذي جُبل عليه العراقيون جميعا، بعيدا عن التركيز على الهوية الافتراضية في فن العمارة.

ثمة خصوصية إذا ما أجرينا الاختبار وتفكيك عمارة البيت الداخلية، وبغض النظر عن تاريخيتها وسياقاتها المعتادة وفنونها، فقد مرّ البيت في تحولاته التاريخية المعتادة، حيث أصبح من الضروري نبشها لمعرفة تلك التحولات. هل تذكرون سند التسجيل الأسود وورقة الطابو بصورته السالبة؟ حيث يمهر موظف التسجيل - بخط يذبح الطير - في منتصف مستطيلها الأيمن كلمة العراقي/ ة فلان/ ة رغم أميرية السند وقبله العثماني الكارت الكبير المطوي في علبة البخور الهندي والذي يحفظ مع الرائحة الهندية (المباركة) في مكان آمن في أعلى الكنتور الخشبي أو خزانة المحمل. حتى يتعاظم الإحساس بخاصية التملك للعقار. فالوطن للجميع والبيت لمالكه.

ثم حلّ البيت بسند زراعي قابل للتشكيك والهد بين فترة وأخرى، على تخوم المناطق المدن وأطرافها، حتى شحّت الأراضي الخضراء وتقلّصت المناطق الصالحة للسكن ضمن نطاق المدن أو تلك التي تصاعدت أثمانها بشكل جنوني، ليبتكر الفقراء تلك (الأراضي المحوسمة) بعد الأراضي الزراعية. ابتكار الفقراء لهذا النمط من بيوت الحواسم كان على حساب معمارية البيت القديمة، وهو طريقة مبتكرة للسطو الناعم على ممتلكات سلطة الدولة، فالمحوسم لا يفرق بين سلطة الدولة وسلطة الحكومة.

حلت بيوت الحواسم في العهد الجديد بشكل انفجاري واسع في مراكز المدن وقرب مؤسسات الدولة أو داخل إطاراتها. بيت الحواسم يعد خرقة بالية، وتقويضه وإزالته لا تحتاج وقتا ومبالغ أكثر من بنيانه، لكن سلطة القرار مرعوبة من المحوسم.. غالبا ما يكون البلوك الاسمنتي الهش مادة البيت الأساسية في أحسن حالاته، ومادة «التنك أو المبردات المعطوبة» تشكل أسيجته الخارجية العشوائية، لكنه بيت ينبض في الحياة والضجيج السكاني أكثر من بيوت الطابو الرسمي في الأماكن الارستقراطية. يتكون من غرفة أو غرفتين بمراحيض مع حمام مزدوج ومطبخ سفري. ينتصب طبق الستلايت كضرورة حياتية فوق سطحه الترابي المكشوف. ترى كيف تتطلع العائلة المحوسمة بعد خمسين عاما مما حصل لشكل البيت العراقي؟

من المجحف القول كشعار بائد بأن البيت هو الوطن، مثلما يكون الزواج استقرارا فتلك المقولة الرومانسية التي تشوبها الكثير من المشاكل الفكرية المعاصرة لم تعد صالحة في العهد الجديد، فمن مات

دفاعا عن فكرة الوطن ربما لا يملك مترا واحدا، ومن يمتلك العقارات والعمارات لا يحمل السلاح في الحروب المستمرة للدفاع عنه. والفقراء هم وقود الوجود والغنى للأثرياء.

البيت فكرة لمعنى الاسترخاء والسكينة والشعور بالأمان الجزئي، لممارسة اللذائذ الجنسية وإشباع الغرائز في الأكل المطبوخ على النار الهادئة ثم فترة مستقطعة للنوم القلق ثم إفراغ المعدة والاستحمام.

لم يتحول البيت إلى ثقافة في مجمل تحولاته الداخلية، فالأعمى يستدل غالبا على مجمل البيوت العراقية بأنفه، وظل البيت نمط معيشة مقبولا به ليس إلا، لم يتحول إلى هوية عراقية مخصوصة في أغلب أطوار سنين تاريخه المعاصر بعد انتقاله سواء من بيت الطين الريفي إلى بيت المدينة أو من خيمة الصحراء إلى أطراف المدينة. يقول ((الحمد لله والشكر عندي بيت ملك، طابو صرف)) تلك الإلتقاطة تتردد على مبتغى الذات في حصولها على بيت لكن من دون هوية تذكر.

كلما اتسعت مساحته الداخلية يختل نظام الأواصر بين ساكنيه، وكلما صغرت مساحته تآلفت تلك الأواصر من جهة أخرى، فالمناطق التي تسمى بالشعبية هي نتاج المساحات الضيقة والتي تدفع بساكنيها إلى خارج البيت في أوقات الذروة، أما المناطق الراقية فهي النتاج الحتمي للمساحات الفارهة وغرف المعيشة المتعددة، والنتيجة الحتمية تكون في تفكك الأواصر والعزلة والاستقلالية في البيوت الفارهة.

حكاية: عباس الحلاق

كان عباس الحلاق يسكن بيتا صغيرا جدا يتكون من غرفة واحدة

ومطبخ صغير وله خمسة أولاد وبنتان، وكلما احتاج إلى ساعة وصل وجماع مع زوجته، يقوم بإخراج أطفاله إلى الشارع بحجة اللعب الجماعي خاصة عند ساعة القيلولة، حتى اعتاد أهل الزقاق مشاهدة أولاد وبنات عباس أفندي هذا المنظر في الظهيرة، وقد اكتشفوا سر خروج الأطفال ظهرا، مما حدا بنسوة الزقاق تحريض رجالهن بعباس وقوته الجنسية التي أصبحت وبالا على أهل الحي، مصيبة.

أما الشقة هذا الكيان الصندوقي المقيت جاء وافدا مع الانفتاح المعماري الخجول، وذلك تلبية لإنشاء مجمعات سكنية وسط المدن في بناء عامودي اختصارا لشطب المساحات الخضراء إبان السبعينات، وقد عملت السلطة لتكرار التجربة السكنية رغم تشوّه معنى الحداثة التي تعاني من الضيق والاتلافات السريعة في بنى المنظومات الخدمية والصحية في تصريف المياه الثقيلة. مما جعل ساكنيها النفور منها بعد فترة إسكان جبري، وهي بالضرورة لا تتلاءم مع البيئة العراقية القاسية ولا مع طبيعة السكنى لدى أهل البلد والذين يميلون إلى باحة الحوش ومداعبة النسيم فيه.

حتى ما يسمى بالمشتمل فهو عبارة عن هيكل مقطوع من مساحة البيت الخضراء الكبيرة تزيد من عقد معمارية البيت العراقي القديم بل وتشوّه اللمحة الفنية في عمارته على بساطتها.. حيث يعمل الموظف المتقاعد على تزويج الابن الأكبر وعزله في هذا المشتمل ويبقيه قريبا تحت جناح العائلة الكبيرة، أو ربما تعمل الحاجة الماسة لزيادة المدخولات في تأجيره تماشيا مع الكثافة الكبرى لزيادة سكان المدن.

أتأمل بروية صورة قديمة، أستلها من مكانها وأقلبها على قفاها، فأجد مكتوبا عليها بخط ركيك «الذكرى (جرص) يدق في وادي النسيان.. التقطت هذه الصورة في 1984/ 2/ 14...» بدت اللقطة قريبة من رائحة حرب الثماني الطويلة.. أحسست بأنفاس مصوّرها تضرب على وجه الصورة وشخصها الوحيد المتسمّر فيها، أحسستُ بيديه المرتعشتين، فالصورة التقطت قبل قدوم فرق المداهمة ودوريات التفتيش اليومية بساعة واحدة.. أفترض نفسي، أنا شخص هذه الصورة، واقفا في شارع رئيس يحيطني صفين طويلين من بيوت جرداء مشيّدة بطابوق جمهوري شاحب، بدت البيوت خلفي صفراء فاقعة خائفة من مستقبل الهدم والطمر في مدينتي الجنوبية، لكن الصورة تعكس الخواء والخوف، فالشارع خالٍ من الناس تماما.. البيوت حينها عبارة عن حيز مشغول بين بيرية سوداء وبسطال ليس إلا، فالجبهات مستعرة تصيح ألا من مزيد من الوقود.

كان المعمار مصري الجنسية وعماله أيضا يشيدون بيوتا جديدة من الطابوق الجمهوري في آخر مديات هذه الصورة. استخلص في هذه الساعة درسا حذرا من صورتي تلك:

إذا كان البيت العراقي ملكيا في عمارته أو جمهوريا في صنعته، فهو لا يتعدى كونه خيمة بل مضربا بدويا يقي من حرارة الصيف اللاهبة ومطر الشتاء وزمهريره فقط. لا من فن واضح لعمارته، الفقر ورعب السلطة الداخلي يربكان مخيلة ذلك المعمار المصري، نائب الضابط صاحب الدار المشيّدة يقبل في السقف والهيكل فقط. يتحول البيت الجمهوري إلى حجب تقليدي بسقف خاوٍ وجدار أعزل عن مرأى الشارع وفضول

عين الناظر المتطفل في استباحته للمحتوى القابع في ثناياه المظلمة.. إنه مكان السكنى الذي يُقرأ إنثروبولوجيا على أنه ناتج عرضي - فنتازي للحياة الجمهورية في لحظة سكينتها واستقرارها وممارسة الحياة السرية في غرفه الصندوقية..

جاءت الجمهورية بالثورة والعكس يصحّ كثيرا بكون الثورة هي جلبت الجمهوريات المنحوسة تلك.. محملتان بثقافة القسر الثقافي المبين.. هنا شارع جمهوري، وهناك سكائر جمهوري، هنا صمّون جمهوري، وهناك في الصورة طابوق جمهوري أجرد.. عناوين كبيرة لحياة جمهورية، وإذا كان ثمة تدخّل قسري من سلطة «الجمهوريات الخمس»، فإن نمط تخطيط الأحياء المستحدثة لم يبق على حاله الملكي التقليدي شيئا واضح المعالم نستدل على تاريخ الحقبة وطبيعة التحول.. فللثورة آيدلوجيتها المبيّتة.. إذن هل كان «طابوق الكورة» الهش ملكيا على سبيل المثال؟ فليكن لل»ثورة» وجمهوريتها الوليدة طابوقها؟ وهل كان من تدخّل سافر في التصميم العام للمدن الجمهورية أم لثورات الدم الجمهوري؟ هل كانت فنون عمارتها وطرز البناء فيها تئن من عبء الثقافة النمطية بدوية كانت أم ريفية؟ تشي الصورة بتخطيط مدروس عسكرياتي النزعة بآيدلوجيا مستترة لأحياء يسهل السيطرة عليها في منافذ دخولها وخروجها..

اقرأ في الصورة أن البيوت الجمهورية ثابتة كالحجر الأصم لا تتمطّى ولا تبتلع الأرصفة ولا تتقلّص.. لا تنشطر ولا تفصح عما تعرضت له كما أفرادها الصامتين.. بعكس ما يحدث اليوم في طور - الما بعد - جمهوري وقدرة التعبير الباكية المبكية.. الصورة تتحدث والبيت

الجمهوري صامت كصمت الجبال.. فسلطة الجمهورية/ الثورة/ الانقلاب حديدها حامٍ وللجدار آذان صاغية.. سنقرأ الصورة الثمانينية قراءة انثوبولوجية من الداخل..

فالخيمة الموروثة من التاريخ، تحولت إلى رمز عربي مترف وزائف للسكنى(القذافي أنموذجا)، مثلما عملت بعض الذوات الكبيرة خارج الصورة وفي محيطها اللا مرئي - ميسورة الحال - في ظل بذخ السلطة بنقلها ملامح ساذجة من التراث العربي تحت نير الآيدلوجيا إلى مكان البيت الجمهوري مُحّدثين بطريقة مختزلة فاقدة لحركة الروح (منظر المنسوجات التراثية المعلقة على جدران غرف الاستقبال الشرقية في بيوت المسؤولين آنذاك).. اخلص الآن إلى مقولة مفادها أن الذات العراقية تنتقل بعسر مع ثقافة محمولة من الأزقة والدرابين الضيقة إبان طور «ملكية» محضة إلى بيوت الطابوق الجمهوري وهي مهيأة أصلا للتزود بثقافة البداوة - الريف كنتيجة لسلطة الثورات - الانقلابات المتعسكرة، لا بثقافة الاسترخاء الملكي المدني الباذخ والطامح نحو حياة مدنية.. فالبيت يتعسكر من الداخل أيضا.. ثمة دوالٍ على ذلك.. ملابس خاكية على حبل الغسيل وأخرى معلقة في الكنتور وبساطيل مصبوغة بعنف وكلاشنكوف ملفوفة ترقد في زاوية غرفة المعيشة خلف الشمّاعة، ورتب عسكرية في معرض الزجاجيات المنزلي، وتقارير وصور بفضاء متعسكر على اتساع الجدار وتلفزيون يبث صورا متحركة للمعارك ثم أناشيد عسكرية، خراطيش المدفعية تتحول مرغمة إلى مزهريات على أعتاب غرف الاستقبال.. هي الحياة أذن في ظل جمهورية العسكر الخامسة، **الصورة تتكلم:**

الحياة العراقية تسير بعشوائية، تنتفض وتتمرد على القراءة السوسيولوجية وحتى الانثوبولوجية.. من بيوت الصفوف الأفقية - خلفي في الصورة ـ واقفة بالاستعداد في طور (جمهورية الثورة) حتى تجمعات مضارب البداوة الهاربة على تخوم مشاريع المدن.. إلى «تنك» بيوت الحواسم المتموج وفق مساحة خارج حدود الهندسة المدنية واللافتة الكبيرة أقول العراق يتقدم.. تقودنا اللحظة العراقية إلى بيوت أخرى مغلّفة بحجر الصوّان أو الجرانيت في المزارع الخاصة للمسؤولين في نهاية أطوار الجمهورية.. بيوت بطراز من «دبل فاليوم» وأخرى جديدة فيها مزاوجة بين حضارة الشرق والغرب تعطي قفاها للنهر أو مستحدثة أخرى في حقبة (الما - بعد) جمهورية، ثمة هندسة عشوائية تتشكل بحتمية سذاجتها وعشوائية أمكنتها وقسرية وجودها يعمّدها طابوق جمهوري بدم مراق كضريبة للتحولات والغد اللامشرق.. الطابوق الجمهوري لم يكن فيصلا بين حقب التاريخ إلا نادرا.. ثمة نمط يشتغل على نمذجة معدّة سلفا في لاوعي المعمار أو صاحب البيت.. يتدخل في حسمها الطابوق الجمهوري أو نقيضته صفائح الزيت المرصوصة في بيوت الحواسم.. بعيدا عن القار الأسود في حضارتنا الطينية.. إننا نقف أمام تخطيط طارئ لتشكّلات المدن تزحف نحو تقييد حركة الذوات العابرة التي ضيّعت هويتها في عمارة الجمهورية الغائمة والمستحدثة.. يستثنى من ذلك خيمة النازح وحلمه بـ«الكرفان/ البيت» في عصر ظهور جديد إبان حقبة «داعش» المظلمة التي نعيش تفاصيلها..

القطبان المهمان في اكتشاف وتفكيك حركة ذات الجمهورية الناشئة هما المأكل والملبس وليس الطابوق الجمهوري الأصم.. الصورة خالية من مظاهر الأكل والملبس سوى ملابس الخاكي وشوربة العدس.. البيت المفترض للدراسة هو الحيز الذي يمكن أن تسترخي فيه الذوات تحت إيقاع مناسب في النوم أو الاسترخاء أو تناول الطعام.. ويعتبر هو حلقة من حلقات تفحّص الذات العراقية بجمهورياتها، ففيها يكتمل الدرس الاجتماعي، حيث كان مُخططا لها الذوبان في ذات ثورية حماسية كبرى منقادة من طور (عبد الكريم قاسم إلى صدام حسين).. هو ملاذ الانزواء لا العرين وهو القفص والخيمة المحدّثة.. لا يأتي إلا كما تأتي قطعة الأرض بمكرمة من (لدن السلطة).. حتى تحول إلى ملاذ لملايين المُعتدى عليهم في محاولة القهر حتى الإذابة.. البيت هو القفص للذات الأنثوية المحبطة مستلبة الإرادة والتي استكانت داخل القفص ذهبيا وفضيا ورماديا كغرفة السجن بجدرانها الأربعة.. لم تهتم ذواتنا في ماهية تسمية الطابوق ونوعه.. نخلص إلى نتيجة في الفحص العمودي حيث يبدو أن الطابوق لم يكن شاهدا حياديا على مرحلة تاريخية مهمة كما تقول الصورة وهي تنزف..

هندسة البيت العراقي الجمهوري من الخارج لا تمت مطلقا إلى هندسة البيت من الداخل وليست دالة على مكنوناته أو كاشفة له، على ترفه أو بذخه أو فاقة ساكنيه وعوزهم.. عبارة عن مكعب مغلق لا يفضح أسرار شخوصه لحظة تفحصه من الخارج.. اقتصاد واختزال وحجب وصل حتى الزهد في جمالية فن العمارة في العالم الخارجي، وصولا لتقليد أعمى للمعالم التراثية في الأفاريز والدرف ذات الزخارف النباتية

والهندسية.. من الخارج يميل عموما إلى نمطية الهندسة المعمارية الموحدة المتمّثلة بهندسة الهيكل المكعب القائم على أرض مستطيلة، هذا الكيان المكعب رسالة توحيد قسري للخريطة المنزلية العراقية في أطوار الجمهورية الخمسة، إذ تكون مساحة الأرض غالبا مستطيلة الشكل ليسهل تخطيط المدن العمرانية المُحدّثة.. تشتغل معظمها وفق مخططات خريطة موحدة في فلسفتها، عنصرا الاختزال والحجب الاجتماعي الذي تفرضه الرؤية الدينية الواجبة، وإذ تستقطب البيوت ذلك التوهج الضوئي الحارق وتعبّ الهواء بكميات كبيرة وتسمح بدخول أصوات الخارج إلى الداخل وبالعكس، وهذا طبعا يعكس عدم انسجام مطلق مع البيئة العراقية القاسية لأن الذات العراقية منشغلة بمآلات المصير والتقليد دون وعي في العناصر الجمالية العليا، وإذ تُخطّط الأحياء السكانية وفق المنظور الأفقي على شكل مستطيلات وبمستوى نظر تحتاني، أي بمعنى مستطيلات غير متجاورة تمتد مع خط الأفق والشوارع الافتراضية.. أجد إن التشابه في فلسفة معمارية البناء لدار الجمهورية صُممّت وفق مخطط تشيد الحي العصري في خريطة السلطة غير المنظورة، بخاصية سرّية تسهل السيطرة عليها إبان لحظات الشغب أو المراقبة.. حيث المداخل واضحة والمتاهات معدومة، بعكس أحياء الملكية المتجاورة وذات المتاهات المتعددة والدرابين الضيقة التي تحاول إبعاد الوهج الشمسي والحر القائظ صيفا بأكفها وضيقها تكاد أن تلتصق وتطرد الوهج الحارق للشمس وما الشناشيل إلا برهانا على الابتكار المريح..

قد تكون فلسفة التخطيط العمراني لمنطقة سكنية تقليدية إبان طور

الجمهورية الخامسة رُسمت بدقة متناهية لسهولة السيطرة والمراقبة اليومية وإحكام السيطرة في حالات الفوضى، لكنها تعطي جمالية لاستقامة الشوارع والمناطق المتروكة للحدائق أو رياض الأطفال أو الجوامع قبل أن تزدحم لتصل إلى التقارب وتداخل أصوات الآذان..

تتكون خريطة المخطط من عشرين بيتا متلاصقة، وخلفها بنفس العدد وتتجاور في شارعين أمامي وخلفي وبعرض تسعة أمتار مع رصيفين بمترين.. يطلق على هذين الشريطين بـ(البلوك) وفق نظرية دائرة الأمن أو الفرقة الحزبية، وهي مستنسخة من قسم التخطيط العمراني في دوائر البلدية.. في الخريطة أيضا هناك أماكن متروكة. لكل ثلاثة بلوكات تدعى بالمساحات الخضر الافتراضية، وهي مرسومة على الخريطة فقط وتترك لجمع النفايات.

في بيوت الطبقة الوسطى الافتراضية أيضا تكون مختلفة بعض الشيء عن سابقتها، من الخارج تكون أسيجتها ملبوخة بالإسمنت بدعامتين للباب الخارجي المصبوغ بألوان الأبيض أو الأزرق الفاتح مع فسحة صغيرة للحديقة المربعة مع واجهة غرفة استقبال الضيوف وفوق درفتها أيقونة (أم سبع عيون أو كف مفتوح فيه وسطه عين أو قرن غزال أو ناب فيل.. من الجهة المقابلة رواق يؤدي إلى المطبخ.. إن الكرم العربي المزعوم وثقل التراث الديني جعل غرفة الاستقبال في فم البيت يفصلها عن باقي غرف معيشة أصغر نسبيا لأفراد العائلة..

تتكون أحياء التجمعات الموزعة كمكارم من السلطة بعناوين فنطازية فواحدة للمعلمين وأخرى للشهداء وأخرى لعمال السكك

وأخرى تأتي كمكارم في مناسبات مخصوصة مع أنواط الشجاعة والاستبسال للعسكر.

ثمة بيوت أخرى بمساحات أوسع تصل إلى(600) مترا مربعا بحديقتين خلفية وأمامية للخاصة من الشرائح العليا.. تكون غرف المعيشة في كل الأنواع هي صندوقية الشكل مستطيلة تطل على هول داخلي وتنتهي إلى الملحقات الصغيرة في الحمام والمرحاض وسلم الصعود..

أما الديكورات وفنون الإزاحة المعمارية من الخارج تعتمد على ما جلبه الصنّاع المصريون، الأسطوات بقوالب الصب الكونكريتي إبان مرحلة الثمانينات الحربية وهي نماذج مبتكرة ساذجة وتجريدية في أغلبها، وهي زخارف وأفاريز بسيطة تبرز عن هيكل الدار المشيّدة.

تبنى الدور من طابق واحد وبيتونة مكعّبة ترتفع في بنائها عن مستوى البيت عموما وتكون رابطة بين فضاء سطح الدار وجوفه، لا يشكل بجلّه ظاهرة معمارية خاضعة للفحّص.

من المعلوم أن الشناشيل هي الصفة الغالبة للبيت العراقي إبان طوره الملكي، داخل المدينة أو الأزقة القديمة التي تكاد تتعانق لتحجب أشعة الشمس.. شناشيل مصنوعة من الخشب المزخرف تمتص حرارة الشمس وتسرّبها.. تجمع بين مهارة فن الحفر على الخشب وزخرفة الأرابيسك والزجاج الملون ودخلت بقوة في التشكيل العراقي بحجة التراث المعماري الباذخ، فغالبية التكوينات الفنية تشترك بفنون التقويس العباسية متأثرة بأشكال المنارات والمآذن والزخارف المورقة النباتية،

وهي الأخرى نتاج الفنون الإسلامية وتراثه الفقير والبسيط، إذ تُغلّف واجهات البيوت في الأزقة وتضيق جدا عند البيوت المتقابلة تجعل من الزقاق مسربا محببا للذوات التي تعيش في كنف الملكية في المجيء والرواح حيث تصنع ألفة عراقية طابعها البساطة بعيدا عن روح الحداثة القسرية - فارغة المحتوى - التي جلبتها حركة الجمهورية الصاخبة.. تنتهي في هذا المفصل رحلة طابوق الكوَرة وتدشن بشغف حداثة رحلة الطابوق الجمهوري.

قبل العقد الثمانيني الحربي، إبان فترة المخاض السياسي الجمهوري الثوري والصراعات الآيدولوجية الدائرة.. كانت هناك نهضة عمرانية واسعة في المدينة العراقية الوليدة.. بعد أن احَتلّ الريف الجمهوري المدينة الملكية وفرض أساليب التحديث الايدولوجي.. حيث أتيح القرار الصادر من (مجلس قيادة ثورة الجمهورية) حق التملّك لقوات الجيش وقوى الأمن السرية والعلنية في المدن بل والتسّيد على أهلها لاستيلاء حكومة القرية على المدينة.. وتلك فرضت ثقافتها وسلطتها بطريقة أو أخرى على أفراد المدينة المتطلعين للسلم والحياة الآمنة.. تملّكت قوات الجيش والمقربون من (حكومة قرية الثورة) قطع الأراضي الفارهة وابتنوا البيوت المُحدثة على طريقة البيت الريفي/ المديني، بطابعه المعماري الهندسي النمطي يوحدها الطابوق الجمهوري، بعد إطلاق مبدأ الإقراض من المصارف العقارية للعاملين المتطوعين للقوات المسلحة وذوي قتلى الحروب.. دخلت الحداثة المعمارية المرتجلة على البيت السبعيني الناشئ لترسم هياكله الصندوقية ضمن نطاق المدينة الأفقية المخططة وفق خرائط الدولة البوليسية..

كان للبيت الملكي أكثر من غرفة تطل على باحة الحوش، فيما عمد إلى زراعة شجرة السدر أو التوت داخل الفناء لتزيد من النسائم الباردة وبرودة الأجواء أثناء الصيف اللاهب.

* * *

ثانيا: في عمارة البيت

غالبا ما تستهويني متابعة النشرة اليومية الخاصة في المناطق السكنية لبيوت الحواسم والمناطق الفقيرة، هي ليست نشرة بالمعنى السائد، إنما هي بورصة متحركة، حيث أقوم بإحصاء تدوينات معلنة للبورصة مخطوطة أو مشطوبة على جدران البيوت كصحافة مجانية. (الدار للبيع المراجعة مع صاحبه.. أو الدار للإيجار المراجعة مع فلان الفلاني). تتغير هذه النشرة بالشطب العشوائي وباللون الأسود تبعا للمشاكل الاقتصادية المتصاعدة أو الهابطة والحلول المقترحة.

ترى أين يذهب أصحاب البيوت المباعة؟ حتما أنهم يذهبون إلى بيوت أقل مساحة أو بيوت خارج المدن أو الهجرة لبلد آخر، حتى تبدأ مرحلة إزالة روائح وذكريات الساكن السابق بطلاء الجدران في كل فترة تحول، وربما تعثر على رأس مسمار أثري في الجدران العلوية لنزيل مرتحل يبقى أثرا على المالك الأول.

حكاية: الدار للبيع

أسير في الأزقة تطالعني الجملة الخبرية «الدار للبيع» مكتوبة بخط رديء بطريقة الرش، الدار هو المادة الهيكلية التي تحيط في معنى

البيت حسب المستوى الثقافي السائد، والأخير احتوى على كائنات متحركة في المحيط المسوّر من الداخل، يحزنني كثيرا شيوع تك الجملة العابرة، كيف نبيع ذكرياتنا دفعة واحدة؟ أين نهرب منها وهي تلاحقنا زمنيا ومكانيا عبر تاريخنا. أحزن كثيرا لوداع رائحة الذكريات وأنا أنظر للعفش المتكدس في سيارة الحمل، طبعا صاحب البيت/ الدار المتحول لذاكرة أخرى يجلس قرب السائق، فيما النساء يغطيّن وجوههن فوق أكداس الذكريات لا فوق أكوام العفش. البيت للبيع مع الدار يحصل ذلك عندما نودع البلد كله، أليس ذلك ممكنا؟ أحد الأشقاء السودانيين خرج بعدما اشتدت لوعة فاقة الحصار، سأله احد الصحفيين في الأردن عن مشاهداته عن البلد المحاصر:

ـ كيف وجدت العراق والعراقيين؟

ـ يا أخي مفيش ولا حاجة. بس كل بيوتهم «زي بعضها، مكتوب عليها الدار للبيع، وكل واحد هو بيمشي ويغول «الله كريم».. بس.

***

حكاية: معلّم الشبابيك

في عمر المراهقة تعلمنا من معلم قد بالغ في طوله كثيرا، يسمونه مداعبة «أستاذعيطة» طويل جدا كلاعب كرة سلة، هوايته ليس جمع الطوابع، إنما في لذة التلصص من الشبابيك، لكن الغريب أن كل الناس تتلصص عليه في ليلة تلصصه وأستاذ عيطة لا يعلم.

يأتي «عيطة» في منتصف الليل مع زميل له قصير القامة» تحت التدريب» ليمارسا هوايتهما في التلصص. طبعا بعدما يستطلعان كل

الشبابيك التي توفر الستارة لهما مشاهدة مريحة للزوج فوق زوجته على السرير أو على الأرضية.

يبدأ عمل التلصص بتعيين النافذة بعد جولة استطلاع نهارية، يأتي الاثنان ليلا ثم يقوم أستاذ عيطة برفع الأستاذ القصير المربوع لينتشي بمشهد متخيل وحتى انتهاء مشهد العرض، ويكتفي برواية القصير له عما شاهده للمشهد الجنسي. خيال أستاذ مربوع أفضل بكثير من واقع كنت متلصصا مع بضعة مراهقين آخرين عليهما، ولا مرة واحدة استبدلا الأدوار، تبين أن عيطة يكتفي برواية الأحداث المباشرة همسا من زميله القصير، يروي له المشهد من المداعبة واللعب حتى طريقة الجماع والآهات أثناء الجماع، ولم أعلم وقتها أن أبي كان يتلصص علينا في مراقبتنا لمعلمينا. أمي كانت هي الأخرى تتلصص على أبي عندما يخرج إلى مراقبتنا.

المدينة تتلصص على شخوصها ليلا في سلسلة متواصلة تنتهي بشرطي الأمن الذي كان يراقب الجميع، من دون أن يهمه الأمر أو يرفع تقريرا بذلك لعدم أهميته كما يعتقد إلا لذوي الصحف المطوية.

القصة وما فيها عندما دنونا منهما اكتشفنا أن الخمرة لعبت لعبها في رأس المعلم المربوع المرفوع على كتفيّ أستاذ عيطة وهو يروي ماذا يحصل في غرفة الزوجين من مشهد حكائي ايروسي آسر. ذهبا في حال سبيلهما منتشين بالحكاية. أخذني الفضول فقفزت فوق كتفي زميلي لأرى المشهد عن قرب، فوجدت أن الغرفة فارغة من كل شيء وفي الصبح اكتشفنا أن البيت فارغ وأهله قد تركوا الدار منذ فترة طويلة.. ضحك أبي

ومن خلفه أمي والجيران وأهل الحي كلهم. المعلمان ماتا للاندفاع إلى أقصاه في ممارسة الخيال، لكن رجل الأمن بقي يراقب الجمع.

مادة التلصص هذه واحدة من الدروس التي تعلمتها في النظر من زاوية مختارة لما يحدث من حولي، ثم أعود للبيت لأسجل ما يحدث بطريقة منتقاة بحذر، وربما أخزنها في منجم الذاكرة.

***

إذا كان المأكل والملبس هما القطبان المهمان في اكتشاف وتفحّص حركة ذات الجمهورية، فإنهما بحاجة إلى فضاء للتداول واجتذابهما.. محل السكنى هو المكان الأرحب للقطبين الأولَيين وحاضنتهما وهو طبعا الحيز الذي تسترخي فيه الذوات تحت إيقاع مناسب في النوم أو الاسترخاء أو تناول الطعام.. ويعتبر هو حلقة من حلقات تفحّص الذات العراقية بجمهوريتها، التي فيها يكتمل الدرس الاجتماعي في قراءة الذات العراقية، والتي كان مُخططا لها الذوبان في ذات الجمهورية الكبرى من (عبد الكريم قاسم إلى صدام حسين).. ذات الجمهورية التي تعرّضت إلى كشف كل مضامينها بعد الـ2003 (حقبة زمنية) بكل سلبياتها وعنفها وشرذمتها وطائفيتها وزيف هويتها الوطنية المزعومة، فإن البيت هو الملاذ والعرين والقفص والخيمة المحدّثة، الملاذ للذات المرعوبة الخائفة والمُعتدى عليها في محاولة سحقها ثم إذابتها..وهو العرين للذات المتسّيدة داخل حصنها.. وهو أيضا قفص الذات الأنثوية المحبطة والمستلبة الإرادة، حيث استكانت بل وأحبت ذلك القفص ذهبيا أم فضيا أم رماديا..

إن هندسة البيت العراقي من الخارج هي إضافة حقيقية إلى اكتشاف

نمط الذات المحدّثة أو الساكنة.. التحديث الذي طرأ على شكل وهندسة عمارة البيت العراقي الخارجية إبان حقب الجمهورية، كان تحديثا فرضته حقبة الكولينالية بجذبها نماذج وعناصر التحديث، مع العلم إن نمط التحديث لم يكن جوهريا بل كان بعضه عشوائيا في كثير من مفاصله، إذ لم يكن متناغما مع الإرث المعماري الذي ورثه، فأصيبت عمارته وفي أغلبها وخصوصا المحدّثة منها بالتناشز وفقدان عنصر الهوية المحلية..

من تنك بيت الحواسم المتموج وفق مستطيل تتكئ جدرانه من صفيح الزيت الفارغة مملوء بالطين على بيت آخر من بيوت الحواسم، إلى حجر الصوّان في بيوت من دبل فاليوم لأحياء جديدة ومطلّة على النهر أو في الأحياء المستحدثة في حقبة الما بعد، ثمة هندسة كلية حتمية بسذاجتها وتعقيدها، سوى في بيوت الحواسم أو في الأحياء الجديدة، هذه الهندسة تشتغل على نمذجة معدّة سلفا في لاوعي المعمار أو صاحب البيت.. في الأولى البحث عن سقف وجدران كستر وحماية وإحساس وجودي قائم في ظل الجدران الأربعة وفي الثانية بحث عن عناصر جمالية منتخبة وإحساس وجودي بالرفعة والتميز عن بيوت الحواسم الصفيح..

وإذ تُخطّط الأحياء السكانية وفق المنظور الأفقي على شكل مستطيلات وبمستوى نظر تحتاني، أي بمعنى مستطيلات غير متحاورة تمتد مع خط الأفق والشوارع الافتراضية.. أجد إن التشابه في فلسفة معمارية البناء لدار الجمهورية صُممّت بخاصية سرّية تسهل السيطرة عليها إبان لحظات الشغب.. حيث المداخل واضحة والمتاهات

معدومة، بعكس أحياء الملكية المتجاورة وذات المتاهات المتعددة.. قد تكون فلسفة التخطيط العمراني لمنطقة سكنية تقليدية إبان الجمهورية ولكنها رُسمت بدقة متناهية لسهولة السيطرة والمراقبة اليومية وإحكام السيطرة في حالات الفوضى..

البيوت من الخارج تكون أسيجتها ملبوخة بإلاسمنت مع دعامتين للباب الخارجي المصبوغ بألوان الأبيض أو الأزرق الفاتح أو البيج مع فسحة صغيرة للحديقة المربعة مع واجهة غرفة استقبال الضيوف وفوق درفتها أيقونة (أم سبع عيون أو كف فيه عين أو قرن الغزال المأخوذ من العهد الملكي) ومن الجهة المقابلة رواق يؤدي إلى المطبخ.. إن الكرم المزعوم والتراث الديني جعل الاستقبال في فم البيت ويفصل عن باقي أفراد العائلة.. حيث تبنى بيوت أحياء المعلمين والموظفين بمساحات أوسع تصل إلى (600) متر مربع بحديقتين خلفية وأمامية.. المساحات هنا تقترب من الخمسة في أربعة أمتار لغرف المعيشة،وأكثر قليلا لغرف الاستقبال وتبنى من العقادة وحديد الشيلمان أو الكونكريت لموظفي الدولة، وقد وزّعت قطع الأراضي بأحياء منتخبة في المدن المستحدثة أو الناشئة.. وتقتصر الديكورات من الخارج على ما جلبه الصنّاع المصريون عمالا وأسطوات في قوالب الكونكريت إبان مرحلة الثمانينات الحربية، وهي زخارف وأفاريز بسيطة تبرز عن جسد الدار المشيّدة.. تبنى الدور من طابق واحد وبيتونة مكعّبة ترتفع في بنائها عن مستوى البيت عموما وتكون رابطة بين السطح والداخل. وسوف تكتمل الرؤية عن البيت الجمهوري المنمّط ونهمل الاستثناء لأنه لا يشكل الظاهرة الخاضعة للتفحّص..

البيت السبعيني يختلف عمّا قبله وما بعده كثيرا.. إن انتشار سياسة الموجة الاشتراكية في عزل الأحياء وإنعاش المناطقية السكانية وفق الانتشار الأفقي لأغراض سياسية سرية.. هناك أيضا مجموعة أحياء للموظفين ولعمال السكك والنفط ولمراتب الجيش نواب الضباط والعسكريين الكبار وعمال الموانئ والأحياء الفقيرة التي كانت تسمى بأحياء الثورة وأحياء أخرى مثل المعلمين وحي نواب الضباط وحي الشهداء والمقاتلين والأسرى وحي قوى الأمن وأحياء الاقتصاديين والمحاربين وغيرهما.. يمتاز دار الجمهورية السبعيني بالشكل التقليدي من الداخل.. هناك الرواق الطويل المسمّى بالكليدور ثم الهول الذي يأتي مباشرة بعد غرفة الاستقبال العظمى، والهول هو شبيه الحوش المكشوف في العهد الملكي، وهو يجمع العائلة لمشاهدة التلفاز والاستراحة أو الاسترخاء وتلك عادة عراقية في القيلولة الطويلة والاسترخاء وهواية الكسل والنوم طويل الأمد.. وإذا ما أتيح لبعضنا التعامل مع ثلة من عمال البناء وأسطواتهم نكتشف هول مصيبة تلك الذوات المستلبة تمارس الطغيان والتجبر والاستغلال في التحايل على المواطن المسكين، علما إن أجورها تناهز ما يتقاضاه أكبر القضاة أو الأطباء..

كان للبيت الملكي أكثر من غرفة تطل على باحة الحوش والبعض عَمَدَ إلى زراعة شجرة السدر أو التوت داخل الفناء لتزيد من النسائم الباردة وبرودة الأجواء أثناء الصيف اللاهب.. فيما يبنى بيت الطور الجمهوري الأول عادة من الطابوق الجمهوري المثقب ويتم رفع السقوف بواسطة الشيلمان والتسقيف بنظام (العقادة). في الصيف عادة يصعد أهل الدار

إلى أعلى الدار للنوم على الأرض الترابية للسطح وهناك قبل السطح نجد البيتونة وهي الغرفة المربعة التي تعتبر مخزن البيت السبعيني وفوضاه.. كذلك هناك الحمام والبادكير وغرفة الاستقبال الطويلة نسبيا، حيث تلاءم حضورَ اكبر عدد ممكن من الضيوف وتنفتح في حالات الزحام الشديد كالأعراس والتعزيات على غرفة الطعام..

لقد تطوّر البيت العراقي في عهد الجمهورية في طور الصعود/ الصمود نهاية عقد الثمانينات الحربي.. ذهب البعض للتمرد على خريطة البناء الموحدة الاقتصادية، والتطلع نحو روح الحداثة الموجبة التي أغوت بالاستمالة ذات الجمهورية الكبرى للعمل بتفاصيلها،إذ تمّ البحث عن خرائط تحاكي النظم الغربية المتطورة للقصور المُحصّنة وبيوت المزارع الخاصة، في عمارة البيت غرب/ شرق وخصوصا لشريحة ضباط الجيش الكبار، الذين أغدق عليهم النظام بأكثر من مكرمة أو مرحمة وطنية من لدنه. هنا نصطدم بنظام الحداثة في فن العمارة مع هندسة اقتصادية في تنفيذ البيت العراقي مع المحافظة على البيئة الإسلامية الغالبة في وضع الخريطة المناسبة بعد أن دخلت آليات الكونكريت ومواده في تنفيذ البيت الجمهوري الحديث.. وقد عمدت ذات الجمهورية الكبرى في وحدة التخطيط العمراني تفرض نظام الخريطة المرسومة من مديرية البلدية كشرط ملزم قبل التسليف الحكومي للمصارف العقارية، لضمان هندسة المدن الموحّدة.. رغم أن المشروع أصابته الكثير من التجاوزات والالتفاف عليه، لكنه يبقى محاولة مدنية صرفة..

للحداثة سمة امتياز في نظام الحدائق والممرات الفاصلة مع كراج

وباب عريض وألوان طلاء خارجي بعد عملية النثر الإسمنتية وبناء الطابق الثاني بنفس الخريطة التحتانية.. غير إن التحديث الأعم حدث في نهاية عقد التسعينات لتجار الحصار وخصوصا تجار الطحين والمضاربين في العملات الأجنبية وتجار بطاقة التموين ومورديها. كذلك فئات صاعدة من ضباط الشرطة والجيش وتجار الطحين والمقاولين.. وبدت مرحلة البيت الجمهوري(دبل فاليوم).. طبعا هناك تقليعة تشد الانتباه مارستها ذات الجمهورية في طورها الأخير.. حيث تجد معظم بيوت الأحياء مخطوط عليها بخط رديء عبارة(البيت للبيع) ولا أجد سببا جليا للذي يختلف مع زوجته في الليل لينقش هذه العبارة وما يلبث من شطبها حين المصالحة.. وهناك إشارة لدى ذات الجمهورية في طور انتعاشها الأخير، هي غلبة روح تقليد الآخر وعدم الاختلاف معه.. البيوت كلها متشابهة من حيث الهندسة المعمارية والديكورات المرافقة، كذلك اقتناء السيارات المتشابهة التي تستوردها الحكومة، حتى الملابس وحتى طريقة الكلام ونمط السلوك العام تجده موحدا في كل فحوصات ذات الجمهورية التي تميل إلى التعمية السلوكية الموحدة.. فيمحل السكنى في الأزياء والمطبخ.. وقد استكانت الذات الصغيرة وذابت في روح الذات المتسلطة الكبيرة وأصبحت ذاتا (قدرية.. غيبية.. خرافية) مدجّنة مطيعة لرغبات الذات الكبيرة دون أن تتفوّه بكلمة.. بمعنى انسحاق الذوات الصغيرة المتمردة على نمط ذات الجمهورية وفقدت مبررات المحافظة على مرجعيات الذات الحية، كذلك فقدان الخصوصية المصاحبة لها..

كذلك لو أمعنا النظر إلى الأثاث داخل البيت، نجد اختفاء ستارة

الحجب الخشبية عن الرواقات واستبدالها بنمط البناء الحاجب أصلا في المجازات، مثلما أُستبدلت الآنية النحاسية في حقبة الملكية بالآنية المصنوعة من الألمنيوم أو البورسلين في حقبة الجمهورية.. حتى الأبواب الخشبية أصبحت أكثر أناقة وهي تتشكّل بحداثة ما بعد إدخال المزخرفات الهندسية والنباتية والدهان بالسبيرتو - دملوك.. وكأن مرحلة اجتثاث فكري وثقافي واجتماعي لحقبة منتهية..

تمر أطوار الجمهورية الثلاثة بتغيرات جوهرية في بنى تكويناتها الداخلية داخل الجمهوري/ البيت، وبنظرة فاحصة للمحتوى الداخلي في تغيرات الأثاث، نجد اختفاء الستارة المقطّفة (قاتمة الألوان) وحلول الستائر المزّهرة والمشجرة بألوان زاهية مبهجة.. حتى أواني المطبخ النحاسية والأباريق الحمر تختفي لتحل مكانها موجة ضاربة من الألمنيوم، الكراسي الخيزران والهزاز الملكي وتلك المصنوعة من خشب الأبنوس والزان ذات الرائحة العطرة وإذ تكون مع ذات المستخدم بلاغة مشهدية رائعة، لتحل محلها كراسي أنابيب الألمنيوم والمتشابكة مع الأنابيب المطاطية الملونة أو الأشرطة الملونة.. ثم مرحلة الكراسي الحديدية الموحدة، في حين تكتفي بيوت الما بعد بكراس من البلاستك المضغوط.. فيما احتوت غرف الاستقبال على طواقم حمر أو زرق من الخشب المبطن بالإسفنج والمُغّطى بالقماش..

إن شكل البيت العراقي ينقسم إلى أقسام عدة.. هناك بيوت الأحياء الفقيرة التي لا تزيد عن 100 متر أو دون ذلك في مربعات المدن أو في مركزها الضيّق، الفقراء يتجمعون غالبا في قاع المدن رغم شدة الازدحام وضيق الأمكنة.. وهناك أحياء موصلة عبر طرق حديثة، يكون فيها النهر

حيويا في أحيان كثيرة، وهي إذ تقترب من النهر في تشكلها الأول وهذا أحد أسرارها المستترة.. ان مخططات المدينة العراقية.تشمل أيضا بيوت الأحياء الوسطية.. وسطية في البناء والمكان ومستوى المعيشة.. بيوت عمال وموظفين يقطنون هذه الأحياء التي وزّعتها الحكومات كمكارم وهذا شأن كل حكومة.. تحت مسميات عدة هي الثورة أو الحي العسكري أو الشهداء.. هناك بيوت الأغنياء وتجار السوق وهي عموما بيوت سيكون طراز العمارة فيها غير موحد وتقع عموما قريبة من المزارع المحيطة في المدن أو قريبة من النهر.. تمتاز باتساع الفضاءات والحديقة الأمامية والخلفية والهيكل المرتفع عن مستوى الشارع العام.. يفتتح غرفة الاستقبال كمحطة استراحة الضيوف إشارة الدخول.. والغريب في الأمر إن ذات الجمهورية تميل إلى البذخ في إطالة غرفة الاستقبال التي نادرا ما تستخدم وتقلّص من مساحة غرف المعيشة.. وعموما تنفتح غرفة الضيوف على غرفة الإطعام في رحبة واسعة هي الأخرى نادرة الاستخدام.. كذلك هناك أكثر من حمام ومراحيض خارجية وداخلية،إذ لا يسمح للضيوف من استباحة مراحيض العائلة.. وفي نهاية الرواق الخارجي يتراءى لنا باب المطبخ المطل على الحديقة.. وكذلك هناك أحياء بيوت المعلمين والموظفين الآخرين وتمتاز باقتصاد الهيكل وصغر المساحة المشيدة واتساع الحديقة الأمامية وتتسم بالهدوء والرقي النسبي والنظافة العامة وشيوع المناطق الخضراء، أيضا تكاد تختفي فيها مشاكل السطو والسرقات وتقل تجمعات المتقاعدين ونواب الضباط أوقات العصر أو المساء، وغالبا ما تأخذ فن عمارتها من الخريطة الموحدة سالفة الذكر، وتمتاز بالاقتصاد والانكفاء وإبعاد العائلة عن الضيوف قدر الإمكان، هذه الخريطة مستفيدة

من هندسة عمارة بيوت التجار والموسرين، لكن ضيق المساحة المشيدة يضعها في منطقة وسطى.. غالبا ما تصبغ بيوت العامة العراقية من اللون البيجي المحبب لذائقة الذات العراقية الوسطى وهو اللون المحايد الذي لا يلفت النظر (العقلنة) التي لا تثير فضول التساؤل.. وتصبغ الإزارة السفلى بلون قريب من اللون البني.. أما المعلمون فهم ذوات وسطية تتوّحد أيضا في المأكل والملبس والسكنى، حيث يكون البناء موحدا فأن بعض الذوات التي لم تتسلم (مكرمة) قطعة السكن فأنها تتمرد وتذهب على حافة المدن لتشكل بيوتا خارجة عن الأنساق العامة، فتجد بعضها لازال هيكلا مأهولا أو أضراسه العليا منخلعة بشكل فوضوي.. ورغم إن هذه الشريحة المهمة قد تعرضت إلى تعسف وقمع عظيم، لكن البعض الكبير منهم أصبحوا ذوات جمهورية مصنوعة خصيصا لخدمة الجمهورية، ومثلما تعرضت كل ذوات الجمهورية إلى ضغط الحصار التسعيني، هم كذلك لقد وضعوا قوائم مطولة لبيع أثاثهم قطعة قطعة حتى انتزعوا الشبابيك والمراوح والشيلمان لغرفة الخطار والبيتونة.

إن نظام البيت العراقي من الداخل يعتمد على الإغلاق شبه التام.. تكون الستائر دائما من قماش القطيفة في اللون الغامق الأحمر أو الأزرق الكحلي مع قماش ستن أو شيفون أو خام الشام تحت الطبقة الأولى، وفيه عدة مزايا أهمها توفير الظلمة اللازمة للنوم أو القيلولة وتقليل توهج الشمس والهدوء والسكينة التامة.. وإذا جاء أحد الغرباء (خطار) سيعم الهدوء وتغلق الأبواب على بعضها ويكون التخاطب عبر الهمس والإشارات ولا يحق للإناث رفع أصواتهن أو جلب الشاي أو الماء الذي يكون فاتحة الشرب أو الأكل ورغم ان العراقيين الأقل تديّنا

في المنطقة لكنهم يتظاهرون بالتدين كلما أتيحت الفرصة للتمظهر، إذ يأخذون من الدين الطقس وورثوا التقاليد منه وتركوا تعاملاتهم تحكمها عوامل أخرى عديدة..

تعتقد الذات العراقية بمباركة الماء في البيت أو خارجه وتود النزول أو بناء البيوت قريبا من الأنهر أو المسطحات المائية، حيث تستخدمه للتنظيف والغسيل والمباركة والتطهير.. فيما تقوم الأنثى داخل البيت الجمهوري بوظيفة التنظيف كهوية ثابتة لا تتبدل، من الكنس بمكنسة خوص النخل إلى ترتيب الأثاث والتقليل من فوضاه المستديمة وازدحام كبير في الأثاث غير الواجب، كذلك تقوم بمهمات أخرى لخزن الماء أو التسوّق من السوق وتنظيف الأواني في المطبخ، ذلك طقس قد ارتبط بأنثى البيت بمهمة أزلية..

داخل غرفة الاستقبال ثمة صورة حائلة الألوان معلّقة على الجدار وهي لكبير العائلة المتوفى.. ثمة صورة أخرى للشهيد إن وجد،للأب والجد وتلك المخططة أو المرسومة، إنها هوية مشاكسة للفناء في أعلى الصورة، وأحيانا توّشح بشريط في زاويتها العليا للشهداء.. طبعا تلك من سمات العهد الجمهوري لكثرة الموتى فيه.. دائما تكون الأرائك طواقم مائلة إلى اللون الأحمر.. ثمة قرآن كريم محطوط على مسند مفتوح ومصلّى للضيوف.. هناك في عمق مشهد الاستقبال بوفية من خشب الصاج المصبوغ قسمها العلوي مزججا.. تتراءى خلف الزجاج بعض الزهريات والأقداح والأباريق المذهبة والآنية المزخرفة وحيوانات متوحشة أسود وفيلة وديكة.. أما المحمل الأرضي فهو معد للأطباق الثقيلة الصينية البيضاء.. الفضاء المحيط طغت عليه الحيادية وابتعد عن

الجرأة والالتزام التام بتوحيد الرؤى المشتركة للعراقيين الجمهوريين.. طبعا تركت روح التدّين طابعها على غرفة الاستقبال إبان عقد الثمانينات الحربي، بعكس عقد السبعينات الذي كان أكثر جرأة ربما تجد مكتبة فيها كتب كارل ماركس أو انجلز أو عن الديالكتيك وفيها أمهات كتب الأدب من رواية الأم والبؤساء وأحدب نوتردام إلى روايات عربية لعبد الرحمن منيف أو نجيب محفوظ.. أو نجد صورة للزعيم الشيوعي فهد أو احمد حسن البكر أو ماو تسي تونغ أو جيفارا أو للإمام علي(ع) وجهاز تسجيل نوع رايزنك يبث أغاني أم كلثوم وأحيانا تشم رائحة العرق الزحلاوي أو المستكي وبعض مزهريات لورود صناعية.. لا توجد لوحة رسم تظهر الجماليات إلا في بيوت المثقفين والشيوعيين الذين غالبا ما يخلفونها وراءهم في طريق تركهم البلد إبان جمهورية الثورة بما كان يعرف حملة الإبادة الكبرى1979 م، لا يوجد نحت بارز سوى إن الجدار المقابل يحمل ساعة جدارية غالبا ما تكون متوقفة في حساب تفاصيل زمن الجمهورية وثورتها البكر، ولكن ثمة صورة حديثة أو ملونة للجمهوري الخامس تملأ الجدار المقابل ينظر ويسمع فيها ما يدور داخل ذات الجمهورية الصغرى، الصورة يضعها كل من يريد التخلص من شرور التساؤل والفضول.. أو المداهمات المفاجئة للزيتوني وأهل السفاري..

البيت العراقي الجمهوري في أحياء الفقر المعدة للنازحين من الأرياف أو من المدن البعيدة سيكون اقرب إلى محاكاة البيت العراقي سالف الذكر مع عشوائية في بعض التفاصيل.. (البيتونة) وهي قبة البناء المكعب والناتجة من التحام السلم الحجري مع فضاء سطح

الدار ستكشف عن الفوضى العراقية بكل صلافتها.. (البيتونة) تصغير إلى كلمة بيت.. حيث تتحول إلى هامش في مكعب البيت فهي مخزنه الفوضوي وهي صلة الوصل وحلقته بين الداخل وفضاء السطح.. أكياس الطحين والتمر والأحذية القديمة والبراميل المعطوبة والخشب والحديد والافرشة التي رُسمت عليها خرائط من اثر التبول والقطن المنفوش.. وفيها مصباح معطوب يشتغل من أسفل السلم وأعلاه.. البيتونة عالم الصخب والعشوائية وهي إذ تحتضن كل ما يراد إخفاءه..

غالبا ما يكون الحديث عن فوضى سطح المنزل الجمهوري ذا شجون ومفارقات مضحكة.. فهو المساحة الملائمة لمعرفة أبعاد وقياسات المنزل هندسيا.. كذلك هو تلة التفكر ومتابعة النجوم في نزقها وفلتانها من فلكها.. عندما تكون الشهب حكاية أسطورية يلوكها الصغار في ليالي الصيف.. إذا كانت البيتونة هامشا محضا، ففضاء السطح يمثل هامش الهامش في الشتاء ومركزا أو قطبا محوريا في ليالي الصيف.. عندما تُزرع السطوح بالنواميس البيض وصواني الرقي على الأسيجة ومشارب الماء والقوارير الفخارية تنز بصمت مقدس.. السطوح في النهار غير ما هي في الليل.. في النهار عبارة عن مجموعة نفايات وأنقاض شتى وأسرة وافرشه الليالي الفائتة.. حبال الغسيل تتدلى رغم أنشوطاتها ومثقلة بالطابوق المتدلي.. أبراج حمام ومزاريب مخلّعة وطابوق مهشم وبقع البول.. ليس بين تفاصيل السطح إي جامع يجمعها في إطار الدراسة..يفصل سطح كل منزل عن الآخر بأسيجة مهشمة الطابوق وبإمكانك أن تجد سطوح لعشرة بيوت مرة واحدة.. ما الذي يجمع زمر السمك المجفف مع إطارات وعجلات معطوبة بالحمائم

وأبراجها؟ طبعا ليست ثمة من جامع بينهما لكن جمالية سطح المنزل الجمهوزي هي بتلك الفوضى غير الجامعة..

لقد أخذت البيتونة اسمها المصغر هذا من اسم البيت وهي أيضا عبارة عن مكعب، على أرضيتها يرتبط سلّم الوصول من الداخل الأرضي إلى السطح وفي حافتها الأخرى باب الخروج إلى السطح.. وهي إذ تكون حلقة الوصول بين الأسفل والأعلى.. بين غرف المسقّفات والفضاء المفتوح.. بين الأرض والسماء.. وهي بمثابة عالم الأثاث المتروك.. البيتونة تعبّر عن فوضى البيت العراقي وارتباك أثاثه بل تظهر هذه الفوضى الفقر المدقع لذات الجمهورية في لا وعيها.. أفرشة وأكياس التمر وكراسٍ بثلاثة أرجل والحف فيها رائحة البول وأحذية ملتوية وصرر لملابس عتيقة وقنان لكوكا كولا في صناديقها وقنان أخرى لحليب معقم، وثمة كيس للخبز المتيبس، كذلك ثمة دفاتر وكتب مدرسية شبه ممزقة، وعلى جدارها الداخلي تعّلق أصابع البامية في قلادات مثبتة بمسامير على الجدار ومن الجهة الأخرى تعلق قلادة صغار السمك المتيبس.. البيتونة عالم اللامبالاة والإهمال والنسيان. أما إذا ضاق البيت في الضيوف فتتحول البيتونة إلى مكتبة لمراجعة الدروس.. يمكن أن تكون البيتونة هامش البيت الجمهوري حيث تكون مفتاحا لفضاء السطح وعالمه، ستكون بالمقابل مفرغة هواء البيت وروائحه.. مكعب الطابوق الجمهوري بهامته العالية يبرز من هيكل البيت الخارجي ويؤشر إشارة واضحة لهندسة البيت الجمهوري.. نستطيع القول الآن إن الذات الجمهوري تتلذذ بفوضى ما حولها بكل وضوح..

إن الطائرة المروحية ستشكل منظورا تحت مستوى النظر مغايرا لرؤية ذوات الجمهورية لسطح المنزل الجمهوري.. الطيار يرى العالم

الصاخب، ثمة متناقضات وفوضى لا ينظر لها ذات الدار رغم التخطيط المثالي للشوارع ومناطق السكنى، فالسطح لا يمكن أن يكون عرضة للمشاهدة اليومية من الآخرين.. هو انعكاس لفوضى الذات المستترة، النسق المضمر في جماليات الفوضى غير المنظورة.. ربما هو الحياة المسكوت عنها في مجتمعات بذوات تهاجر إلى السطوح هروبا من أمر ما.. كم من مداعبات المراهقة وتصاعدات الشبق؟ كم من مغازلة لابنة الجيران فوق سطح جمهوري من دون ستر يغطي الأجساد؟ كم من أحلام في مشاريع زواج خيالية أو الاستمناء في حالة شريط سينمائي تتعدد فيه صور الجميلات؟ أو ممارسة تمارين الخيال بصورة ممزقة أو باهتة لمجلات الإباحة والاستمناء تحت سطوة صور سود وبيض.. عندما تزدحم غرف المعيشة بالآخرين الزوار أو أهل الدار، يهرب الأطفال أو المراهقون إلى فضاء السطح المفتوح لمواصلة الأحلام المكشوفة للسماء.. أما للمطالعة أو نشر الغسيل أو المغازلة أو عمليات جنسية خاطفة تمتاز بالبراءة وتقليد الكبار.. سطوح المنازل حياة سرّية تتكشف وتنهار مع انهيار روح الجمهورية وتآكلها من الداخل.. يبقى السطح هو نافذة الهروب إلى العالم الآخر.. إلى سطوح أخرى أثناء اشتداد الطوق الأمني، لتكون كل السطوح سطحنا.. السطح هو مداعبة جوقة الحمام وهي تحوم على بيوتات قريبة أخرى..

حكاية الراديون:

لقد دخل الزائر الجديد إلى البيت الجمهوري، جالبا معه موجة الحداثة الجمهورية.. الراديو الترانزستور (الساحر المرعب) في بياناته ووعيده، صغير الحجم نسبيا ماركة توشيبا مغلفا بجلد احمر ومثقّب

بثقوب دائرية قرب سمّاعته وله أريل لماع صقيل.. راديو ماركة فيلبس وبعدها ناشيونال بأربع موجات، ثم دخل في الطور الثاني إبان عقد الثمانين الحربي راديو روسي كبير الحجم نسبيا بـ(11) موجة، تم توزيعه على وكلاء الشركة الإفريقية، لكن التنافس بين الشيوخ الكبار بقي على حاله في الالتزام الأخلاقي بالتوشيبا أو الناشيونال (العزيز) الذي لا يتأثر بالتشويش كثيرا خصوصا لسماع أخبار الأسرى وسماع تحاياهم إلى ذويهم، إذ غفل المشوشون الموجة القصيرة الثالثة عن إذاعة لندن، وعندما تعقد حلقات التهافت على الأخبار اليومية يتنافس أصحاب راديوات التوشيبا والناشينوال على نقل أخبار لندن ومونتي كارلو يبدأ الكلام على النحو التالي:

- يقول أبو لندن حالفا... الحرب قائمة والله..

- البارحة سمعت الإذاعات في (الراديون) الحرب يقولون تنتهي الأسبوع القادم..

- عمي بكيف الله والراديون وال...

يكون مكان الراديو مقدسا في العهد الجمهوري فهو على رف مرتفع بعيدا عن عبث الأطفال وقد توضع عليه خرقة بيضاء وربما كانت خضراء.. هذا الرف هو مكان الراديو الملكي القديم [لمبات] نوع سيرة والذي أحيل على التقاعد ولازالت الأخبار سيئة في صباح كل يوم من أيام الجمهورية كم من مذياع(راديون) قد تهشّم لسبب ما؟ كم من تلفزيون قد تحطّم في لحظة عراقية غير متّفقة مع خط الجمهورية؟ والأخيرة لا تكتفي بالمذياع، فسرعان ما حلّ التلفزيون الأبيض والأسود

في بثه المنتظم الموجه للشرائح المقصودة من الذوات..

في زيارته (الميمونة) للبيوت الجمهورية العراقية.. يمارس الذات الكبيرة هوايته في استكشاف ذواته المحكومة بتقليب القدور في المطابخ.. ثم يفتح الثلاجات ويتذّوق ما يروق له.. ثم يداعب الأطفال وهو يصغي لنسوة البيوت في اهازيجهن وتوقع زيارته (المباركة) ثم يدلي بقراراته الحكومية..

من مذياع (اللمبات) الملكي إلى راديو فيلبس الجمهوري ثم التلفزيون الأسود والأبيض إلى الملون إلى أجهزة الفيديو ثم الأقراص المدمجة والكومبيوترات ورسائل الشفرة السرية في موجة اتصالات الانترنت.. ثمة ذوات جمهورية ترفض التحولات.. ذوات لا تعرف أين هي من تاريخها أو من لحظتها أو مستقبلها..

* * *

ثالثا: غرفة المعيشة

في العودة السريعة إلى مخطط خريطة البيت الجمهوري، أجد غرف المعيشة لا تتعدى في أغلبهن عشرين مترا مربعا، هذه المساحة هي المثلى لتكييف الأجواء داخلها سواء في الصيف أم في الشتاء.

غالبا ما تتوسط مساحة البيت وتطل من نافذتها الوحيدة على بقعة متروكة من البيت تركت للتهوية أو لوضع مبردة الهواء فيها وتطل من النافذة، وتسمى هذه المساحة الفارغة بالترك أو المكشوفة. ربما نجد أكثر من غرفة معيشة داخل البيت الكبير، والمعيشة تعني هنا غرفة النوم

وممارسة الجنس المشروع والاسترخاء بعد الممارسة، لكن الأسرة الجديدة تكتفي بواحدة شريطة وجود غرفة استقبال الضيوف والمطبخ والحمام والمراحيض والسلم المؤدي إلى السطح. الغرفة الطويلة تدعى غرفة الاستقبال وجدت للتباهي ومنافسة أبناء العم والأقارب في وجوه الكرم العربي، يقابلها الوجود الحتمي والتقليدي إلى مراحيض خاصة للضيوف في إحدى الزوايا المطلة على الشارع. وبعكس غرفة المعيشة التي تكون أصغر من غرفة الاستقبال عادة.

تزدحم غرفة المعيشة في الكثير من الأثاث وفوضى صاخبة بالموجودات السرية والعلنية. ثمة كلاشنكوف مغلفة بالنايلون راقدة بانتظار حوادث المستقبل، وسكين طويل وربما عصا متينة تركن في الزاوية، وصور جدارية أخرى للمتوفين.

تبدأ غرفة المعيشة بخزان الملابس والأفرشة والكوميدنو لوضع جهاز التلفاز فوقه، الكنتور الخشبي يعج بالمتناقضات ملابس شتوية مع داخلية قديمة في المجرات الداخلية مع قوط لفترات وموضات زمنية متعاقبة وقمصان بألوان شتى، يخصص القسم العلوي منه إلى علب الأوراق الثبوتية وألبومات صور ممزقة الحواف مع سند طابو البيت الجمهوري، مع علبة اسطوانية للبخور تبث عطورها كلما فتح الكنتور، ثمة زاوية سرية للمدخرات العينية كالحلي الذهبية ومبالغ مالية مطوية بعناية.

ثمة مروحة سقفية ومصباح وكراكيب أخرى تضيّق الأنفاس بعشوائيتها، كذلك ثمة ستارة تزدحم بلطخ الزهور وتفضلها الزوجة بلون

بيج، والبيج هذا هو اللون الحيادي الذي يتناسق مع كل ألوان الجدران. ثمة صورة جدراية أما للزوج أيام الشباب أو لرجل مقدس بهالة صفراء أو صورة مضببة لابنة المعيدي الأسطورية. الغريب أن الذات العراقية لا تعير اهتماما لقيمة الفضاء داخل غرفة المعيشة، لا توجد ثقافة الفراغ المريح، وتعدّه حالة سلبية تبعث على الوحشة والفقر وتصف البيت الخالي من الأثاث كالجامع.

ترقد الذات بعد نوبة العمل الطويلة في غرفة المعيشة التي تضوع بالبخور الهندي ورائحة أم السودان أو كولونيا «الريف دور»، لتكن غرفة المعيشة مدعاة إلى فرصة الاستلقاء المغناطيسي، ثم تخلد للنوم العميق بعد فترة مستقطعة للجماع التقليدي مع الزوجة وتفضله الذات في وقت الليل. فيما الزوج يفضل البقاء فيها أثناء أيام العطل لوقت طويل قبل الخروج إلى فسحة الاستراحة داخل الهول. غرفة المعيشة تقليدية وتكاد تتنمط على كل ذوات تلك الجمهوريات.

حكاية: عادل موشان

في فترة التجنيد الإلزامي إبان حرب الثماني سنين، حفر عادل موشان غرفة معيشة كاملة بكل أبعادها الهندسية تحت غرفة المعيشة الفوقية، وقد عمل على تأثيثها بما يلزم للعيش فيها حتى نهاية الحرب. يخرج من الغرفة السرداب مرة أو مرتين كل شهر للاستحمام ومن ثم يعود مسرعا إلى عشّه لغرفة معيشته السرية هذه في ظلامها الرهيب ليستقر بها ليرسم نهايات محتملة لنهاية الحرب المملة.

يوما ما سمع عادل موشان من مذياعه الناشونال وهو ممدد يضع ساقا

على ساق في غرفته السرية يحلل النداء القيادة العامة للقوات المسلحة في دعوة المواليد في بيان جديد وطازج، إنه بيان حرب جديدة عن حرب غزو الكويت، أخبره المذيع مباشرة من المذياع الذي اهتز أثناء تلاوة البيان بأن الحرب القديمة قد انتهت وبدأت الحرب الجديدة وعليه الالتحاق فورا، وما بين فترة ما بين الحربين ضاع عادل موشان، حيث خرجت الناس للشوارع للرقص والغناء في يوم 8/ 8 / 88. لم يصدق كل ما قيل عن نهاية الحرب، لكن الأمر لم يدم طويلا حتى عادت الذوات لدعاء النصر اليائس لنهاية الحرب الجديدة، أما هو فلم يصدق الخبر واعتبره محاولة من النظام لاستدراجه للخروج من سردابه ثم القبض عليه. بقي ينتظر لتصديق الخبر أو نفيه، لكن أمه ماتت قبل نهاية الحرب الأولى ولم يعلم بموتها، تأخرت الأم في طرق باب السرداب عليه حتى عاجلته المنية في الظلام من دون أن يحاول الخروج إلى الشمس.

***

رابعا: الحمّام.. رطوبة جسد

ثمة رطوبة دافئة على عتبة باب الحمام، وروائح صابون الرقّي المذاب «وطين خاوة» وهو شامبو النسوة في المدن ينشر عطوره في فناء البيت ممزوجا بعطور أخرى مثل تخدير الدارسين وشربه ما بعد الاستحمام الشتوي والذي لا يتكرر إلا مرة واحدة بالأسبوع.

حكاية: أعمى البيت

تتحسّس عصا الأعمى الطريق داخل أروقة البيت الجمهوري الجديد بيسر وسهولة، من دون أن يصطدم بما يعيق حركته في طريقه إلى الحمام

الجديد ليتم استحمامه الشهري في أول جمعة من كل شهر.. مستمتعا برائحة الطابوق الجمهوري الذي يبعث رائحته من الطين المفخور برطوبة لزجة..

ثمة اعتياد وحساب دقيق للخطوات تقوده بوصلة خفية لمعرفة الاتجاهات بينما الرائحة هي فنار سفينته التائهة.. نوع الرائحة ستقوده حتما إلى مبتغاه فهو يعرف من الذي يستحم قبله من خلال لون وطعم رائحته المنبعثة من داخل الحمام، أما إلى المطبخ فتلك رائحة البصل والبهارات وسمنة العظم المهروس تستفز مجسّاته، لكن عصياه تقترب من صوب الركن الآخر من الممر عند نهاية السلم، سيلتف نحو اليمين داخل الباحة الداخلية لتدله الرائحة إلى المكان/ الرطب الذي يريد فقد صادف اليوم جمعة الاستحمام. إذن هو على عتبة الحمّام الجمهوري، فعصاه لها أنف بوليسي مثلما هو له انف راداري وأكثر من عين ترى بحاسة الشم..

ينزع الأعمى ملابسه في منزع الحمام، قميصه المفتوق تحت الإبط وفانيلته المسرودة في مكان الثدي ولباسه المملوخ الطويل وقد بان شكل قضيبه من تحته، أخيرا يعلق عصاه في المسمار المعوج الذي أخذ شكل قضيبه، ليدخل ـ ربه ما خلقه ـ داخل مستنقع الرطوبة الجميل وسط الحمام الساخن، تتحسس يداه وانفه وقدماه الأشياء التي يحتاجها في الاستحمام. هذه الليفة وتلك صابونة الرقّي وطاسة ماء الاغتراف، يغطي جسده الممتلئ برغوة الصابون المذاب متحولا إلى عضو متّقد منسجما بخيال يأتي كل شهر مرة واحدة. طقسه الشهري ينث دندنة غناء غير مترابط من أنغام مختلفة، ساعة مباركة تنتهي تختم بكلمة (نعيما) من بقية أفراد العائلة.

المكان الأكثر ظلاما ورطوبة في موقع معيشة بيت الجمهورية.. هو الأكثر اتضاحا في علاقة أعضاء الجسد فيما بينها ومع العالم الداخلي الرطب.. هو يتحسس الأعضاء واحدا بعد واحد.. هل الاستحمام حاجة بايلوجية أم ممارسة طقس أُدخلته حقبة الجمهورية أم الملكية؟ ذلك ما يكتشفه الأعمى الآن.. نعم فللاستحمام جانب مهم لاستدراج محاكاة الأعضاء في ترويضها ثم تدريبها لتستطيل قليلاً.

ثمة فنار يشبه المئذنة الصغيرة فوق كل سطح تقريبا إبان الطور الملكي لخروج فتيل الدخان الأسود من تحت أرضية الحمام، ثمة آلية معقدة لإحماء الحمام حيث تمتد الأنابيب وهي تخلط الفحم بالنفط الأسود وخروج الدخان الأسود من فنار البيت. وتلك الآلية تغيرت كثيرا بعدما انتفت الحاجة إلى الفحم الحجري واستبدلت بالنفط الأبيض وفي الطور الرابع والخامس دخلت أجهزة السخانات الغازية والكهربائية، حتى غدا فنار البيت يتيما مهجورا عافته حتى الغربان وطيور الغاق.

الرطوبة لازمة مكانية صرفة ودائمة للحمّام مثلما هي الظلال والسكينة لازمة لغرف المعيشة.. تؤثر الحواس على إيقاظ بعضها، مثلما كانت العلاقة متشابكة في المطبخ، حيث الشم والتذوق هما الحاستان الفاعلتان عندما تؤديان وظيفة بوليسية في المطبخ لضبط إيقاع نسق الطعام في ملحه وحلوه.. يكون الإحساس بالانتشاء والاستعداد النفسي لخوض مغامرة ما، إلى مكانين.. الأول هو المنزع للتخلص من عطونة الدنيا ووساختها والتهيؤ للعري الكلي، وإذ يمثل الجنة الأرضية الوسطى في اعتدال الأجواء، الممر الوحيد إلى الحمام الداخلي

الرطب والأكثر سخونة والعابق برائحة ممزوجة في البخار حيث ينسب هذا المكان إلى الجحيم الحلو.. في الحمّام الداخلي تعمل السخونة العالية على استطالة الأعضاء، وإذ يعكس الصدى وضيق المكان ليعطي للحنجرة ميزتها الكامنة فينطلق الصوت متنغما على أغان قديمة مناسبة.. فيه يتذكر الأعمى طرق الاستمناء السرية والتمتع بحرية الوحدة والتوحد مع باقي أعضاء الجسد.. في مغازلة ذكورته الفتية، في إطالة القضيب وظله الفنتازي على الجدار.. تنتفخ خصيته فيكون لونها قرمزيا مثل خوخة يانعة.. كلما انكمش القضيب وقلّت حرارته غدا لونه قاتما بوضعية الذليل المنكمش كشيخ مصاب بمرض مزمن، يتحسس عروقه الزرق ليرسم خرائط متشعبة ومعقدة على مساحة القضيب المستطالة.. الخصية في اتقادها وعتمتها وتلملم جلدتها بتعرجات وتعرجات تتحول.. يضحك على ذاته الذائبة..فتضمحل الذاكرة شيئا فشيئا لتتحول إلى ثمرة تين سوداء..

ينظر إلى أصابع اليد في ارتباكها وهي تتعاشق مع بياض الصابون ورغوته فوق الأظافر وجلد الأصابع.. ثمة رعشة خاطفة يستجيب لها جسده المتكور فينتفض لينهض باحثا عن بقية الأعضاء الهاربة..

يقول: أحسست بالرجولة عندما عزفت أمي من دخول الحمام معي لتفرك فروة رأسي وتحممّني على إيقاع صوتها العذب وهي تغني أغنية صبيانية فنتازية.. فجأة قالت لي: كفى أنت غدوت جاهزا للاستحمام بمفردك..أنت اليوم ومنذ هذه الجمعة رجل بكامل الأعضاء والحواس.. الأم تستحي من ابنها..

أنهي ما بدأته والتفت إلى الأوساخ البنيّة التي بدأت بالنضوج

والارتخاء والتكور، وهي تتقّصد وتذوب، فتكفي الليفة المصوبنة لإزاحة ما علق بالجسد طيلة الأيام التي مضت.

❊ ❊ ❊

معماريا ينقسم الحمام في طوره الجمهوري الثالث إلى مكانين يفصل بينهما جدار له باب صغير أو ستارة من القماش من الزخرف الهندسي أو النباتي.. المكان الأول، يطلق عليه المنزع (المخلع) وهو أقل سخونة من المسبح وأقل إنارة.. ويستغل لخلع الملابس ويدخل الرجل أو الأنثى خاليا إلا من الخاولي والليفة التي ترافقه في سلخ الجلد من الرأس حتى أسفل القدمين.. لا يزال المُدلّك يمارس مهنته في مراوغة ودغدغة الأعضاء وكأنه يحاول انتزاعها من مكانها في حمام السوق.. المنزع هو المكان الأقل إنارة حيث يحتوي على مغسلة ومرآة تستخدم للحلاقة والثلاجة الخشبية أو الكوز.. ثمة تعاليق أو مسامير لتعليق الملابس النظيفة.. ينتهي المنزع إلى خارج الفضاء الرطب من جهة ويصل إلى الحمام الداخلي الساخن من جهة أخرى..

الاستحمام أول محرّض إيجابي لتمرين الخيال.. أية مخيلة تلك التي تمرّنت عليها في الحمام الشتوي؟ هنا علينا مراقبة الحمام في الشتاء.. هو سردية طويلة الأمد وعلينا مراقبته باستمرار في قصته داخل البيت.. أستطيع جلب أجمل امرأة عصية حتى على الخيال العادي.. مصباح علاء الدين هو الوحيد الذي أفركه بلطف مع رغوة الصابون فتتجسد نساء ونساء.. ممثلات مصريات ومطربات عالميات وبنات الجيران متزوجات أم عذارى يحضرنّ خجلات أمامي.. هذه قيامتي إذن.. اعري

كل واحدة في كل جمعة نظافة جديدة وطقسها السرّي.. عندما يسمو الخيال بالدعك المتواصل يتحول تدريجيا إلى واقع متخيل بفضل الحضور المبكر لعلاء الدين من فوهة المصباح.. زوجات الشهداء وبنات الجيران وصاحبة السمك وبائعة اللبن ومعلمّة الصف الثالث المكتنزة.. نعمة الخيال اكشفها للتو..العري تحت مصباح أصفر في حمّام ساخن صغير.. وأنت تبحث عن ملاذ أو زاوية أو مقعد حجري في تلك القيامة الجميلة.. مراوحة القدمين لسخونة الأرضية تجعل الطريق سالكا إلى التفكير بما تؤول إليه الأجساد في جهنم الحمراء.. هذا العُري يجعلنا نطيل النظر والتلذذ بكل فاصلة من تفاصيل الجسد بكل عضو مائع أو مترهل تحت سطوة الرطوبة والبخار الأبيض المتصاعد من أرض جهنم.. حتى يكاد الجسد يتماهى في رعشة صغيرة ثم نوبة غناء طقسية مضحكة.. أولى تمارين المخيلة والتدرب على استيعاب العالم من خلال الجلوس في هذا المحجر الصغير.. تنطلق الأحلام جاذبة كل ما عجز الواقع عن تلبيته.. أجمل الممثلات العالميات.. أجمل الأجساد البضة النائمة في أصبوحة صيفية على سطح الجيران.. أجمل ما جلبته الدرابيل المقربة للحم الأبيض والممدد بين ناموسية وناموسية أخرى على سطوح المراهقة المرهفة بالخيال.. نواظير الأحلام الصيفية تضيق وتعجز أمام النشاط المتّقد للخيال في بقعة الحمام الرطبة ورائحة الصابون ممزوجة برغوة بيضاء مبقعة بفقاقيع لاصفة..

الحمّام الساخن يحيلني إلى التفكير في أرض جهنم.. البادكير والفتحة الشاقولية التي تخرج الدخان الأسود من عملية اشتعال النفط الأسود والأبيض في آلية احتراقِ بدائية تؤدي إلى تسخين أرضه.. عموما

سيكون مكان اشتعال النار من فتحة صغيرة في زاوية المطبخ تؤدي إلى قيام جهنم. وان مكعبه الصغير سيؤدي إلى تسخين أرضه بوقت قياسي، كذلك تسخين الماء في صفرية قد بُنيت والتصقت في زاوية الحمام.. هناك حنفيتان واحدة للماء الحار من الصفرية الساخنة وأخرى للماء البارد يصبّان في حوض صغير من الكونكريت الأبيض أو من فسيفساء ملونة.. في الزوايا العليا للحمام يعشش العنكبوت والسحالي تتنزه على الجدرانِ لالتقاط البعوض والذباب.. الحجارة السوداء لسلخ القدمين وباطن القدمين.. ثمة آنية وصرر لم أدرك كنه تفاصيلها في هذه اللحظة هي من لوازم الحمام الجمهوري الذي يتبجح البعض في عزيمة واستقبال الجيران في طقس الاستحمام أيام الجمع والتلذذ في تناول الدارسين أو البرتقال بعد الخروج من جنة الاستحمام الشتوي.. الطقس الجماعي هو من التابوات، لكن جمهرة وطوابير العوائل التي تتجمّع في بيت له حمام جمهوري هنا نحصل على عنوان باذخ للطقس الجماعي الأليف.. فيه يؤكل البرتقال ويُشرب الدارسين والليمون.. في المناسبات الكبرى كأعياد نوروز وزكريا والمولد النبوي.. تُشاع البهجة والأمل في ليلة الأحلام السعيدة ليلة لا تتكرر لسلخ الجلد والإذعان لسطوة أحلام الغد..

كان الحمام الملكي أكثر خصوصية للعوائل الارستقراطية.. بينما يذهب كافة الشرائح المتبقية من الذوات الملكية إلى حمام السوق للرجال والنساء في طقس احتفائي أسبوعي يتكرر عند الخاصة فقط..

أما في العهد الجمهوري فبعد الانفتاح البسيط وتوزيع الأراضي على قطاعات واسعة من المواطنين وفتح التسليف العقاري للبناء من الدولة،

فقد تفنّنَ البناؤون في بناء الحمام الساخن على طريقة المخيال العراقي في صورة جهنم الحامية.. حتى المنزع أيضا بُنيَ بطرق حديثة تجعل درجة الحرارة فيه معتدلة وقريبة إلى صورة الجنة الأرضية.. كذلك يكون المنزع استهلالا لا من حيث هو الهامش وطاردا لأمراض الشتاء في اعتدال درجة حرارته.. والمتن هو الحمام في مركزيته وارتفاع درجة حرارته لإذابة الأوساخ وكنسها.. عندما يكون الخارج من جهنم مستريحا في المنزع وبيده برتقالة لاستعادة الانتباه والعودة إلى حياة الدنيا الأرضية.. إذن الجنة والنار قد زرعهما اللاوعي العراقي بطريقة تكاد تكون غريبة في التصورات الواقعية..

في ثقافة الحمام الجمهوري ثمة مزج بين ما هو تراثي وحداثة قسرية مفروضة، لا يمكن في الحمام الجمهوري المزاوجة بين المراحيض والحمام، فالمراحيض للنجاسة والحمام للطهارة..حتى إزالة شعر العانة لا يُنصح به داخل الحمام، ثم أن نظام عمل منظومة مياه المجاري الثقيلة تعمل بمعزل عن منظومة المراحيض..

في الصيف فقد يُستغنى عن النفط الأسود والأبيض وإشعال النيران ويصبح الاستحمام شبه عادة يومية خصوصا بعد الممارسات الجنسية الشرعية أو لإزالة غبار العمل خارج المنزل.. يختفي الطقس الجماعي الشتوي للعائلة في العهد الجمهوري. كلما تقدمنا نحو مآلها المحبب. ويعمد في أغلب الأحيان إلى عادة تبريد الماء المجمع في الآنية الكبيرة ووضعه في ظلام الحمام ليبرد.. ويظهر أبو بريص متنزها على جدران الحمام الداخلي ومنزعه ينمو ويعيش على أكل البعوض والذباب، كل عام يكبر، ولكن لا يشيخ، ثمة ثلاجة خشبية تختفي من المنزع في غياب

شمس الملكية وتحل محلها الثلاجة الكهربائية وتدخل في المطبخ مع حقبات الجمهوريات الخمس..

في داخل الحمام تميل نساء حقبة الجمهورية إلى استخدام صابون الرقي حسن قدح وأبي الهيل والغار الحسني وتستعمل ليفة نبات الجوز أو شجرة الليف، بينما عجائز الملكية مازلن يستعملن أمشاط الخشب والحناء والسبردج والطين خاوة والحجارة السوداء وصرر أخرى لا أسماء لها.. داخل الحمام الجمهوري الشتوي والصيفي ثمة حياة لا تنسى أثقلت ذات الجمهورية بالمزيد من أحلام الطقس المبهج الذي اختفى في حقبة الما بعد.

* * *

خامسا: مراحيض جمهورية

حكاية: أعمى المراحيض

ها هو الأعمى بعصاه الرادارية من جديد يواصل مسيرته الاستكشافية في ملحقات البيت الجمهوري.. بعصاه التي تناغمت مع الإحساس برؤيا أفضل للواقع الجديد، وهي إذ تأمره أن يدير ظهره إلى غرفتي المعيشة الوحيدتين والمتقابلتين، يتجّه نحو بداية سلّم البيت الذي يؤدي إلى السطح.. العصا تتحسس والأعمى يشم رائحة النفثالين واليوريا في مزيج يشم رائحته كل صباح أثناء قضاء حاجته اليومية، عندما يتم فطوره تدفعه ساعته البايلوجية بالضغط على بطنه ليذهب بعصاه إلى دار المراحيض.. هو يعرف بالضبط أين يضع قدمه الآن وكيف إن آسته

المكورة لا تمس الحائط الجصّي.. حارس المكان إبريق من المعدن بعد أن غادر زميله الخلاسي من نحاس محمر وذهب مع إدراج ملكية ضائعة من بين الأصابع.. والأخير يطل بعين ضاحكة على الزمن الجديد من فوهة البلبولة على ما يجول برأس الأعمى من أفكار سود. ثمة عناكب تتبعها صراصر حمر تتنزه في الزوايا العليا لتلتقط الذباب، وإذ يحجب الباب الخشبي العالم الأول عن مكعب العالم الجديد يعمّ الظلام وتنبعث الروائح ممزوجة بعطونة تاريخ العائلة.. متر مربع كل تكوين هذا العالم السراني، وقد جرت العادة في أغلب مراحيض الجمهورية على مقت هذا المكان النجس ودفعه بقوة إلى خارج البيت تقريبا وقريبا من الهواء الطلق في منفذ السطح الوحيد.

هي الذات العراقية العمياء إذن تتمتع بلحظات التفريغ الآن، متأملة ما يحدث من انحطاط متواصل، تنتشي مرة بلحظات الامتلاء وأخرى بالإفراغ.. وفيما أمكنة الامتلاء تملك قيمة قصوى في مسعى الرقي والألفة والنشوة وتتوسط البيت وتعتبر طاهرة ومادة مقدسة للقسم كالخبر(وحق هذه نعمة الله)، تكون أمكنة التفريغ موحشة وسرية وقذرة ومحطة للنجاسة والقذارة تبعث على الخوف من المستقبل في انفجارها، لكنها بالمقابل تبعث على متعة التأمل والفردانية في التفكير، إذ تجد منفذا مناسبا للقادم من الأيام.. كان الأعمى يمضغ فكرة جديدة ويقلبها مثلما يقلب الخضار أو بطيخة راوية.. يحدق مليا في روح الأفكار المتروكة والمهملة.

من سطح منزل الجمهورية ننزل عبر سلالم مثلومة النهايات.. نفتح بابا يطل على مكان مظلم من جوف هذا المنزل.. ومثلما للحمام

الجمهوري ديدانه وحشراته، فللمراحيض حشراتها وديدانها أيضا.. تعشش العناكب في زواياه الأربع.. الصراصر تتنزه في عمق الجوف، وتعتبر حارس المكان التاريخي، بينما إبريق المعدن يستبدل بالبلاستك بعد إحالة إجبارية على تقاعد الخدمة، إبريق أحمر بلاستيك يطلّ بعينه الضاحكة في طور الجمهورية الرابعة كمؤشر لتطور الصناعات البلاستيكية. لأننا نأكل أكثر من أوزاننا ونحدث أزمة عالمية في أطنان الرز وتحدث أزمة عالمية تؤشرها منظمة الغذاء العالمي في استهلاك ذوات الجمهورية معظم الخزين العالمي من الرز المستورد والفيتنامي على وجه الخصوص بدرجة استبيانية رسمية باستهلاك ما يقرب من 10./ . من الرصيد العالمي، ومع ذلك لم تعر الذات لمكان التفريغ أدنى وزنا لصيانته، بدت الحاجة للتفريغ بأكثر من مكان محجوب وإن صغُر حجم مكعبه.

حكاية: مُغنّي الحمّام مُفكّر المراحيض

مرة في سالف دهركم ودهرنا ودهر الذين انقرضوا، كنت في قاعة امتحان نصف السنة بالضبط.. كان لمدرّس الفيزياء الشيوعي جاذبية وسطوة ظاهرة، الرجل الأنيق الحاذق في تضمين أسئلة نصف السنة ألغازا علمية مأخوذة من كبد الواقع المعاش، علقت في ذاكرتي ليومي الأرقط هذا هذه الأسئلة:

س: لماذا نغّني في الحمّام؟

س: لماذا نرى البعير من خرم الإبرة؟

س: لماذا تأتي الأفكار الجديدة في مكعب المراحيض؟

الأسئلة هي أمكنة تترى والذات هي مكان الحلم، عليه أن يطرح سؤاله ويمضي إلى حتفه، هو غير معني تماما في أجوبة شبحية كانت أم حقيقية، كثيرة هي الأجوبة التي تُفسد ألق السؤال، وعظيمة هي الأسئلة التي ظلّت دون أجوبة تُذكر، وتلك إشكالية قائمة وكبرى لمشاكل الوجود الكلي.. غير إن السخرية كانت ممزوجة بلغط الطلبة خارج قاعة الامتحان، لا تنم عن إدراك حقيقة تلك الأسئلة الشبحية.. مثلا:

ج: لضيق مكان الحمام/ لرطوبة الجدران/ لتضخيم الصوت/ لانعكاس الصدى، تعمل تلك المؤثرات على تجميل صوت الإنسان رغم قبحه.. يزيح الإنسان ما عُلق به من مؤثرات ضاغطة وأدران ثم إعادته إلى كينونته الأولى.. يبدأ بالجعير داخل الحمام ويفشل بالغناء خارجه.

ج: لأن احتمالية وجود البعير في الأفق زائلة، سينهي عمره فوق التل.. من ثقب الإبرة نستطيع مشاهدة الكون الدائر كله/ لأن الكون قد ضاق جدا فان خرم الإبرة هو الأوسع.. فوجود عدسة العين بين الإبرة والبعير تكون الأقرب إلى الإدراك المحسوس، وإذا انقلبت المعادلة يستطيع البعير مشاهدة ثقب الإبرة بأم عينه. أحدهم أجاب بطريقة لافتة:

ج: في المراحيض هناك عملية تفريغ يومي مثلما يشبه الطقس الدائر، هي إزاحة ما والكل يتذكر قاعدة باسكال في الإزاحة (كأس الماء وقطعة الفلين نصف الطافية على سطحه.. الجزء الغاطس منها في الماء أصغر من الجزء الطافي، الماء المُزاح بقدر الجزء الغاطس).. عملية التفريغ التحتانية تصاحبها دينامية عالية الدقة في حركة الامتلاء، عملية استلهام لأفكار هائمة في فضاء المراحيض.. والمُزاح منه ليس بالضرورة بقدر

حجم الفكرة الدائرة، فالأفكار دائما ملقاة في فضاء المراحيض.. أليس كذلك؟ استحى الجاحظ من ذكر المراحيض وأبقى الطرقات لكنه ذكر تطابق الحافر على الحافر من الأفكار الشاردة.. لكن زمن التواجد في المراحيض هو زمن انبثاق الأفكار المؤدية إلى إدراك الحقائق.. زمن التحرر من ضغط العسرة والجفاف إلى زمن الانعتاق من عبودية التحجر.

في الزمن الملوكي وقبل أن تحط مكان النجاسة داخل البيت، كان مكان التغوّط المثالي للرجال هو حافة النهر وفي الهواء الطلق، مكان مريح وخصوصا للقروي الذي جاء إلى المدينة لأكل الكباب مع شربت الزبيب الخالص، يحاول أن يجمعها ويذهب بها إلى حافة النهر والتستر بدشداشته من الخلف والتمتع بحلم التغوط الهوائي الحر، زارعا ألغامه البشرية على الضفة بكل هدوء.

بينما يكون ذلك مكان خلوة موجِبة... استراحة مؤقتة، بل إعادة مراجعة السلوك العام أو نمط المواجهة المحتملة بين ثنائية العسرة والإسهال، بين الانقباض والتقلص ومرونة الأحشاء في شربت الزبيب.. سيتم استحضار العدو الافتراضي وضربه في متر المراحيض المربع، جالس القرفصاء أو على مقعد الراحة الأثير.. تُرى هل هذا فصل من الجحيم أم لحظة اعتراف؟ المكان الذي سيذوق فيه أمر العذاب وفنون الانتقام كما فعلها العمى من قبل.. المكان الذي اندلقت لباب الأفكار الكبيرة فيه، مكان الطقس الجماعي في التجمعات الكبرى.. أيستحق هذا الاهتمام؟ ربما يخبرنا الأعمى بهزة من رأسه الكبير.

مكان يدعى الخلوة / الخلاء/ بيت الراحة/ الأدب/ الطهارة/ المرافق/ المراحيض/ الحمام/ دورة المياه/ دبليو سي WC/ التواليت

/ المحجر الانفرادي/ ... القائمة تطول والمسميات لا تنتهي، هي في النص المدّون دالة المكان الأضيق في مساحة البيت الشرقي، إذ لا تتجاوز المتر المربع الواحد دلالة احتقار الأمكنة النجسة، بين نجاسة وطهارة تتفصد ثقافتنا بالتشّكل الموجِب للتمظهر.. لكن بالمقابل راح يبني غرفَ الاستقبال الشاسعة ومترامية الأطراف على حساب مساحة المراحيض.. نحن نحتقر النجاسة، لكنها موجودة بالقرب منّا، وإذ اعتادت بلاغة اللغة العربية بفقهها الفضفاض.. أن تعكس دالة الشيء وتلمح إلى مدلولاته لتمنح ما فُقد من الشيء ذاته، فتُسميَ الأعمى بصيرا والمراحيض طهارة أو الأدب، هكذا فالعربي يقولون عنه (لبيبا) يقلب المعاني وإدراك ما ضُمر من أنساقها في مضمار حقل اللغة.. ذلك نسق ثقافي أدلى بمكنوناته مرة واحدة هذي الساعة تلبية لذات الجمهورية..

لم تتغير المرحاض بين عهدين فاصلين سوى اختفاء إبريق النحاس الخلاسي وعودة إبريق المعدن في أطوار الجمهورية الثالث ثم يتحول إلى إبريق من البلاستك في ثمانينات الحرب بألوان عدة وبهيكل متوحد في أزمنة التحقيب الخمس. كذلك تكون مراحيض طور الملكية من بناء الشق الغائر في معمارية المقعد الحجري ثم المقعد البلاستيكي ثم في أفولها إلى المقعد الفرفوري الصقيل.. أما المقعد الغربي فقد كان منبوذا في الثقافة الإسلامية العامة بوصفه صناعة يهودية نجسة، فالأخدود المحفور في باطن الأرض هو الأفضل، بينما الأفضل من هذا وذاك هو الذهاب إلى الخلاء الخارجية حيث الهواء الحر يلعب في التفاصيل المكشوفة خاصة ضفة النهر.. بين مرحاض عمومي وآخر ملكي/ مدني تكون عملية التفريغ طقسا صباحيا في الثاني، واضطراريا في الأول.

أمام كل مراحيض عمومي ثمة حارس يجلس كتمثال من شمع يحرس المحاجر الصغيرة ويقبض ثمن التغوط، يحدق بعبارات خطت على الأبواب الستة (اسكب الماء قبل الخروج/ الإدارة غير مسؤولة عن الحاجيات) كان كئيبا بعدما تقطعت به السبل للعيش، فجاء مترددا في البدء إلى حراسة وإدارة المراحيض العامة لرجل يملك أكثر من عشرين وحدة منها، حتى ما يجمعه من مبالغ تافهة يعطيها لزوجته فتذهب خلسة لتغتسل بالماء والصابون.

يحّدق في تغير سحنة الوجوه، بين الاحتقان في لحظة الما قبل والاسترخاء في لحظة الما بعد. وهو يمنع أهل الشواذ بالدخول المزدوج إلى حجرة المراحيض الواحدة حسب تعليمات المالك.

إن بعض ما نستحي منه للذهاب إلى تلك الأمكنة الضيقة في ثقافتنا العامة هو ثقافة احتقار الأمكنة النجسة كما أسلفنا، ونحن نزيد من نمط التفكير هذا من نجاستها في هذا الضيق وذلك الاحتقار.. نبني بيتا بمساحة شاسعة ونترك للمعمار أن يضع المتر الواحد للمراحيض المحتقرة قرب الباب الرئيس للدار أو أية فسحة أخرى.. شريطة أن لا نضع بابها مواجها لجهة الشمال لئلا تسكنه الشياطين في هذا المتر المزدحم بمكان الإبريق المصاب بالجرب.

العين تملُّ النظر إلى البقعة ذاتها من الجدار في كل صباح أثناء ممارسة طقس التفريغ، فتعيد النظر من جديد بفكرة أخرى، تنطلق من الرأس لتصطدم بالجدار أيضا وتعود خائبة إلى تلافيف الرأس.. الجدار

نفسه والبلاطات والشقوق ذاتها والجبين المتعرّق ذاته. تكتشف ذات المراحيض طريقة إغماض العينين كوسيلة جديدة لإطلاق الأفكار المتعسّرة مثلما حدث للأعمى وهو يغمض عينيه إلى الأبد مستبدلا عينيه بعصا بورخسية ساحرة وذكية..

في تراث ما وجدته وفق مخطط المراحيض الملكية، سواء في منظومة التصريف الفنية لهندسة البناء ونسق التسريب والتصريف أو الامتصاص وصولا إلى حفرة الخزن للثقيلة منها، نظاما شرقيا سلسا في آلية التصريف الثقيل تعمل الأرض على تلافي الانسدادات، فهو أكثر سهولة وانسيابية مما نحن عليه اليوم المزاوجة بين المنظمة الشرقية التراثية والغربية الحديثة. تُبنى المراحيض في شق متري من الآجر المفخور والمطلس بالقار بين كل آجرتين أو الطين الحري، إذ ينزل الشق بمسافة المتر تحت أرض طينية تتوفر فيه قابلية الامتصاص والنفاذ باتجاه واحد فقط، وصولا عبر مجرى مغلف في الطابوق إلى مكان الخزن الرئيس المسمّى بـ(الجومة) الطينية الدائرية من اللبن غير المفخور وتلتصق حجيرات اللبن بالجص والنورة وهي (الجومة) الأولى الأصغر حجما والتي تؤدي إلى الجومة الكبيرة التي تجمع الثقيلة منها.. وتلك تسمح لخاصية النفاذ لتجمع المواد الثقيلة والامتصاص للمواد السائلة التي تذهب عبر أنبوب من خشب الصنوبر إلى الجومة الثانية الكبيرة وهي كما أسلفت للمواد السائلة التي تمتص من الأرض القريبة ويضعون أنبوب التنفيس الهوائي في الأولى خوفا من الانسدادات المحتملة.

اختفى النظام الشرقي الملكي مع اكتساح الجمهورية لما قبلها، لتتغير البنية التحتية لهندسة التصريف الشرقية، مع موجة التأثر بهندسة

العمارة الغربية عبر طواقم المهندسين المجددين. بعد تصلب الأرض وطغيان التحديث القسري والبناء الفوقي الغربي، أصبحت الحاجة للمزاوجة في طور الجمهورية الثالثة، ومن ثم إرساء المنظومة الغربية في التصريف كحل جذري لبنية المدينة الكلية.

تُبنى المراحيض الشرقية في البيوتات العراقية في فترة ما قبل الحروب الخارجية مقابل سلم الدار الصاعد إلى البيتونة، مكان مرتفع بنفس الآلية الهندسية القديمة يسمح في التهوية الحرة وعدم الاكتظاظ بروائح غير مرغوب بها داخل قفص البيت الكلية، وإذ تتغيّر هندسة التصريف، تتعرض لانسدادات وطفح متكرر وتخسفات واختناقات جمة.. يختفي (القبطان) من زيارة البيت كمنقذ دوري يعمل على نزح ما تراكم داخل المراحيض الشرقية، لتحل سيارة السحب والشفط الاوتوماتيكي.، وفق جدول زمني مفرغا إياها من انسدادات محتملة قبل حلول الشتاء وطفح الأخريات من بيوت عالية الأسس نحو أخريات أقل مستوى في تشابك مقرف، مما عملت الذوات في بناء البيوت المرتفعة عن مستوى الأرض الطبيعي.

كل الأمكنة القذرة سواء كانت مراحيض السجن ومراحيض عسكرية أم دائرة أم عامة، هي بالأصل فصل من العذاب الذي رُسِم بدقة لسحق ذوات الجمهورية لتمنعها من التحليق الحر.

تبدأ الفكرة بالتبلور عن مراحيض جمهوري رسمي.. من مراحيض السجن الجمهوري الانفرادي (صفيحة دهن الراعي) تكون هي المقعد.. إلى مراحيض ردهة الطوارئ المشبّعة برائحة الديتول والدم،

معرجا على مراحيض قاعات سجن أبو غريب الشهيرة من ق1 إلى ق6 ـ كتابات وصحافة حرة وأحلام للهروب من كوّة التهوية العليا ـ حتى مراحيض الأمن العامة والحاكمية أو الشعبة الخامسة أو في كراج العلاوي والنهضة العموميتين، ومراحيض الأقسام الداخلية للأنا وجرأة الأدب النسوي الحر، وهي إذ تلغي خلف الباب المغلق أنوثة الرسم الدال بوضع العضو الهائم في فم بؤرة الدلالة، إذن الدعوة كانت مفتوحة للتنزه الطليق في منجم الذاكرة، بدءا من مراحيض معسكرات الجيش ومراكز التدريب الكبرى أو مدارس القتال إبان حرب الثماني ووفود أفواج عظمى من الجند المستجدين، إلى مراحيض القصر الجمهوري الرحبة والشاسعة وصولا إلى مراحيض الطفولة في المدارس الحكومية. تلك صورة بائسة لجمهرة الذباب الأسود الطنان والانسدادات المتوالية في الذاكرة.

بول برايمر يذكر في كتابه «سنتي في العراق» عن انسدادات متوالية في مراحيض القصر الحمهوري في بداية أيام حكمه، يذكرها بشيء من الاهتمام ويعطيها أولية قبل مصائب البلد العظمى.

إن الدخول غير الآمن لبعض أصناف المراحيض المذكورة أعلاه تعد قضية إشكالية، أما وقد حصل الخروج الآمن أو المرتبك منها، يُعد سابقة خطيرة من دون أضرار تذكر، تلك فلسفة احتقار مقززة لنمط أمكنتنا التي أخذت حيّزها في تكوين لنظافة ثقافتنا والذاكرة معا.

حكاية: عودة الأعمى

يقول الأعمى: مصيبة عظيمة يا أخي هذه الأمكنة تندلق من رأسي

وأنا جالس القرفصاء في هذا المتر المربع الشهير، لمَ كل هذا الظلام، لمَ كل تلك الرطوبة؟

فكل مراحيض دخلتها خلّفت فايروسها في ذاتي الثكلى، وفوق كل بقعة من الذاكرة تحرسها ذبابة طنّانة، وفوق جناح كل ذبابة طنّانة ثمة فكرة يمكن أن أتجاهلها الآن ولحين معلوم.

كل أنثى رقيقة ستدخل مرغمة إلى مراحيضها الخاصة وتترك بعضا من رائحتها في هذا المكان. الجميلات لا يدخلن المراحيض مطلقا تلك نظريتي بصراحة.. إنهن يتسامين فوق ذلك القرف البشري.

لم أرِ مراحيض معسكرات الجيش ومقر التسفيرات الرهيب في الحارثية ولكنهم حدثوني عنها كثيرا أصحاب العيون والأنوف الشمّامة، وهم يتحدثون عن مراحيض جهنم الحمراء بكل قسوتها:

ـ كيف هي أحوال السجن؟

ـ السجن مرحاض العتمة سيدي البصير، وعندما يكون الذهاب إلى المرحاض فصلا من العذاب فجحيم دانتي أهون منه في غياهب السجون. يعلن عن الموعد في ساعة باكرة، نفز على صوت: مراحيض مراحيض.. تذهب الذوات الملتاعة كلها دفعة واحدة بالطوابير إلى المراحيض، في ساعة مبكرة معلومة كل فجر وحسب الساعة البايلوجية تتحرك الأمعاء لتنزل فضلاتها، أفضل المساجين من كان نصيبه في أول الطوابير، وأتعسهم من كان في آخرها. هل تصدق أيها البصير أن كل الذوات المحبوسة تتغوط دفعة واحدة وبحركة واحدة وبصوت هائل يندفع من البطون، يهجم الذباب دفاعا عن مملكته الناشئة في ظل التغوط الصباحي، عندما يخطئ

السجين في التهديف بثقب أصغر من حدقة العين في جملونات حجز الرضوانية ضمن جمهورية الإبادة الخامسة إبان إبادة المنتفضين الكبرى ـ آذار 1991، تخيل سيدي أن يشح ماء التنظيف في البراميل لكثرة الثقوب، ليس بدافع القصد من «السلطة البريئة» بل قدرة الخبثاء من الذين يعانون القبض المزمن.

ـ سيدي أيها البصير:

ـ يحدث أحيانا أن يصاب السجين في الإسهال، عفوا سأكمل كلامي حتى وان أصبت بالغثيان، عندما تتغوط في أقسام العامة أمام السجناء بصريح التلصص في المراحيض السفري أو على قطعة من بطانية في الليل داخل قاعة المعتقل، وقبل الإذن الصباحي للتوّجه المقيّد بالطوابير، سيتعرض السجين ـ مريض الدانزنتري ـ باللوم والتقريع وعليه تنظيف مكانه والقاعة كلها معا، عندما يكون طقس التفريغ جماعيا لتذويب الذوات في كلّية هائمة وسحقها بهدف ترويضها.. ها إني أرى خجلهم وشحوب وجوههم وارتباك مصائرهم وأصوات الطحير والضراط الخجول المتقّطع مقموعا باسترجاعه إلى الأمعاء مرة أخرى، يسمى بالضراط العكسي.. السجناء يصمّون آذانهم مما يسمعون لسيمفونية القبض أو التبعرر.

أما للحديث عن الفصل الجديد من الجحيم الأرضي لمعسكرات العمر المدوية بالصخب الجماهيري،فكلها محفوظة في ذاكرتي ومحفوظة أيضا على أجنحة الذباب الطنّان.. فكل الأماكن قابلة للزوال وكل الروائح تختفي إلا هذه، سيدي أيها البصير.

***

الأم توصي ولدها الصغير، (لا تلعب مع الشياطين)..(لا تدخل مراحيض المدرسة).. (احبسْ بولتك الكبرى لساعة المغادرة)..(كل التلاميذ في الصفوف الأولى حبسوا ما يمكن احتباسه حتى ساعة العودة إلى البيت). تلك قيامة أخرى عندما تسيح بولة الطفل من تحت بنطلونه وهو داخل الفصل الدراسي، بماذا ترى يسمونه في فرصة الدرس؟. قال: مَن منّا لم يبل على نفسه في الصف الأول الابتدائي وهو لم يستطع تجاوز عتبة دخول مراحيض المدرسة الكارثية.. تلك إشارة بسيطة من رعب الجمهورية الخامسة في صعودها المدوّي بالحروب والتعبئة العظمى للحشود.

❊ ❊ ❊

كارثة مدوية أخرى لم يغطِ رمادها إلا رماد الحصار، عندما دخلت معسكرات الجيش مودعا من أمي بطاسة ماء مرشوشة خلف ظهري على عتبة باب البيت الجمهوري لتحفظني من مكر عزرائيل وشياطين القوالين وكتبة التقارير. كانت مراكز التدريب تعاني من انقلاب النمط السائد فيها بعد أن غصّت بآلاف القرعان من المواليد الملتحقة في بيانات مديرية التجنيد الشهيرة في1981، كان لزاما على جنود الشغل والبنائين الهواة منهم هروبا من قسوة التدريب، يذهبون للعمل وبناء خمسين مراحيض لجند المركز(ترد مفردة الخمسين دالة مراحيضات المعسكر/ المركز/ السجن) بساعتين فقط حسب توجيهات (السيد الآمر)، كما عبّر عنها نائب الضابط (عواش) وهو لا يعرف من لندن سوى ساعة غرينج ويعد (اسراعيل) بنت كافرة نجسة مثل مراحيض الجند.. جمهوريات العسكر تنتج وفرة عالية في نواب الضباط كطبقة وسطى ومنتفعين ضباط وقادة

الجمهورية وطبقة دنيا مستلبة من جنود تقوم بحماية الطبقتين السالفتين، وعندما انهارت الخامسة هرب من هرب من العليا خارج الحدود وبقيت الوسطى والدنيا تبحث عن صيرورة جديدة للذات لكن دون جدوى. وهذا الحال يعم الكثير من الشرائح والفئات.

تستطيع أن ترى فداحة حرب الثمانينات ومحارقها، من خلال مشاهدة خمسة جملونات متروكة قد دُفنت ببراز الجند تماما إلى حافاتها الشاهقة قبل بناء نسقي المراحيض.. تستطيع مشاهدة خراب بصرة الحرب، عندما ترى في الغبش الرمادي أجساد الجند تبقى في قاعات المنام هامدة من التعب دون حراك، وتتنزه البنطلونات الخاكية والبساطيل والخوذ تهرول في التيه من دون رؤوس تذكر كما روى ذلك الأعمى في مذكراته.. انقضت ولم يغطِ رمادها إلا رماد الحصار.. انقضت ولا أحد يذكرها في لحظة الما بعد.. يقول الأعمى كرهت النظام الجمهوري بكل أطواره لكرهي لبنية مراحيضه.

عندما تلتزم أنماط جديدة ليست مستقاة من النظم العسكرية العالمية، إنما من وحي ما توجبه الفكرة من هيكل متراص لكل خمسة مراحيضات متقابلة دون سقوف أو أبواب، تنتهي بقذف قاذورات الجند إلى الخلف في حفرة عملاقة وهي مكان مثالي لتعذيب ومعاقبة المخالفين من النسق والغياب.. خصوصا أثناء الأزمات أو احتدام المواجهات العسكرية الكبيرة.

وما تسّمى (بأيام النقلة) سيكون التبرز خلف مجمع الخمسين لهو أفضل حالا من الدخول في الجوف الخانق فجرا.. حيث ترى من عمق

الجوف شوربة العدس المبروشة مختمرة تتصاعد منها أبخرة الشتاء في منظر يشيب لها الرأس، وقد حال لونها خاكيا تسبح فيها يرقات وسلابيح خاكية ويحرسها ذباب بذات اللون.. قال الأعمى: (قيامة أرضية كبرى يا ويلي يا بويه يا يمه) تتحول بيوت الراحة كما كان يدعيها إخوتي نواب الضباط وهم ظاهرة مجتمعية خطيرة يجب الالتفات إليها وتفكيك رؤاهم الماثلة كلما مررنا على معسكرات الذاكرة التي لم تتهيكل بعد، إلى بيوت انفجار الألغام في كل قدم تنقلها في أول خيوط الصباح قبل نعيق بوق النهوض القسري.. نعق بوق النهوض وهبّت خوذ الجنود راكضة قال الأعمى: رأيت خوذا تهرول تسحل جنودا خلفها، دق جرس الفرصة الأولى الكبير وهبّ التلاميذ إلى المراحيض دفعة واحدة.. أترون أية سريالية تلك التي كنّا عليها أيام المراحيض المشتركة؟ لولا رعب الجمهورية من مراحيضها إلى حروبها، لما أصاب روح الذات المنفعلة المستفزة على الدوام والغلظة في التعاطي هي واحدة من صفاتها لكونها نتاجا مرا العهد جمهوري سادر في غيّه.

ينعق البوق ذو الشريط الأحمر كل صباح طوووووط طويلة هي النعقة الأولى إذن، وأخرى مطوّحة في وسطها بحّة حزينة تشبه نعقة أبواق مرعبة أخرى في يوم الإعدام الجماعي لذوات الجند الهاربين والذين لم تشملهم مكرمة العفو الأخيرة.. بوق النهوض/ بوق ميدان الرمي/ بوق العرضات/ بوق حلاوة الجيش في الاستعراض الكرنفالي في السادس من كانون/ بوق ساحة إعدام الهاربين خلف شرك المعسكر/ بوق ساعة النقلة إلى الجبهات/ بوق الإزعاج الليلي/ بوق البيانات العاجلة في المذياع/ بوق التشييع العسكري/ بوق تائه بيد مجنون في طرقات

موحشة.. هكذا فكل بوق إشارة للنحيب المر ودهري ودهركم ودهرهم والمشتكى إلى الله مثلما ذكر الأعمى، إلا بوقين هما بوق كشافة المدرسة الابتدائية النحيل وبوق عيد العمال المبهج.. آه ما أجمل صوت البوقين، وما أقبح أبواق أخرى.. البوق إعلان لخراب مدو لذات الجمهورية.. وعليه فان أي بوق هو نعيق وإشارة شؤوم ونكد وسحق متعمد لذوات جمهوريتنا المقيتة.

***

حكاية: مراحيض الجنود

تُقسم المراحيض حسب تسمية معاجم جمهورية العسكر إلى صفين متقابلين في المعسكرات الثابتة.. مراحيض النسق الدال بدلالة السهم على جدار قاعة الإعاشة في السهم السيميائي الدال بالخط الأحمر، إن شاهدته فستحل عليك أيها الجندي ساعة التفريغ وجرس إنذارها في قرقرة البطن وبوق النهوض، والنسق الآخر يقابله بالطول ذاته وبالشكل نفسه، أما الحديث عن مراحيض السادة الآمرين والقادة والضباط فهي جنة أرضية بوسعها ورائحتها يخصص اثنان من الجند غير المسلحين لتنظيفها في الليل.. يتناوب عليها غير المسلحين، في الأولى لا توجد سقوف وفي الثانية ثمة سقوف ومراسل للتنظيف وبمقعد شرقي وآخر غربي حسب الرغبة والاشتهاء، في الأولى المقعد ليس سوى شق في الأرض.. وتضيق حتى تصطدم المؤخرة في الجدار الخلفي أثناء الهبوط والصعود (ساعة التفريغ القصوى)، لذلك قد توجب عليك (الطحير) وقوفا والقذف والتفريغ وقوفا أيضا كما هو بغل الجبال المرقط أو حصان العربة.. وفي الثانية المصبوغة بالصبغ الأبيض فوضعت على

رواقها مزهرية هي عبارة عن خرطوشة مدفعية كبيرة، ورغم اتساع المعسكرات إلا إن ضيق المراحيض يبقى النمط الأكثر ثباتا واحتقارا وبؤسا.. هي نوع من أنواع العقوبات الأرضية في ضيق الأمكنة المحتقرة وهو الصفحة الأولى من فصل الجحيم الأرضي داخل جحيم جمهورية العسكر، حتى إن عقوبة تنظيفها وتسليك منظومة مجاريها البدائية تصيبك بمرض الطاعون والربو المؤقت أو سرطان البلادة خاصة للجنود المعاقبين.. وتلك من آيات العقوبة الأشد للغياب المتكرر في الركس لمنطقة الحزام في إفراغ الجفرة وتسليك المجاري المغلقة مرة واحدة مع جنود سلاح سز عوران/ عرجان/ طرشان / شلل رباعي/ مجانين/ منغوليين في ساعة التدريب الأولى. وتلك آية عقوبة الغياب حين توضع قاذورات الجند الصباحية في صفيحتين فقط من (دهن الراعي) بينهما عمود رابط يوضعان على ظهر المعاقب شريطة أن يكون سليما في قوائمه الأربع.. يحمل ويسير يس يم وينشد النشيد الوطني، جريا إلى خارج شرك المعسكر الذي لا يرى له بيان في الأفق المحيط.. مصيبة الساعة السادسة والعشرين تحدث كل يوم هنا في مراكز صناعة ذوات مُخصصة لخدمة شبح الجمهورية المتعسكرة.

***

حكاية: ساحة العرضات:

- سيدي أنا خريج..

- خريج مريج الكل يشرب من الإبريج.. اثبتْ.

- سيدي هذا ماجستير..

ـ كلنا مثلما تقول. سنعطيه عيادة للمراجعة بعد الدوام للمعالجة.. ثابتْ.استعد..

ـ في طورها الخامس إبان ثمانينات الحرب، تتحول المدينة إلى معسكر أو قل مركز تدريب تحت شعار (التدريب ثم التدريب ثم التدريب) يبدأ المعسكر الكبير من بوابة كل مدينة (الباب النظامي الرئيسي) وحتى آخر مطعم أو إعاشة فيها.. لتصبح المدينة ترزح تحت شعار جمهوري موّحد (الوحدة/ المدينة بآمرها)..

ـ يبدأ طقس زيارة الجند إلى مراحيض المعسكر والهبوط إليها في الساعة الثالثة صباحا عند (طقة الأبريج).. لا ترى في الساعة سوى ارتطام الخوذ الدائخة بالبساطيل المتشابهة ومرتبكة الخطى.. قياطينها تسحل خلفها مبعثرة في التيه الصباحي بحثا عن مراحيض آمنة.. بأم عيني شاهدت البساطيل تمشي وفوقها خوذ مترنحة إلى الخراء.. قالت عصا الأعمى ج م غم: ثمة أنطقة ـ قياطين ـ بساطيل ـ وخوذ يبعثرها هذا البوق كغراب، المخيف بنعيقه المر وخلفهم يلهب ظهور البساطيل وضرب على قمم الخوذ.. حكمة المعسكر لهذا الصباح القبيح،إذ يتداول حكمة الليل جنود متروكون أو معاقبون (لا تأكلْ حتى لا تنزل إلى جحيم المراحيض) تلك حكمتهم في التفريغ والامتلاء، صاح أحد الخفراء: نفد الماء عليكم أيها المستجدون بالإستحجار ذلك في فقه المراحيض لعلمكم.. شحّت الحجارة من مركز التدريب ولم يبق غير الرمل، قال رئيس عرفاء الوحدة: إذن عليكم بالاسترمال هذه تعليمات السيد الآمر.. خصوصا أيام الآحاد ـ الاثنين ـ الثلاثاء.. تكون اللازمة الأكثر

وضوحا هي أزمة الماء في البراميل.. رئيس عرفاء الوحدة هو بالأحرى نائب ضابط بشريط احمر تقع عليه مسؤولية متابعة فريق خفراء القاعات من المتروكين عوران ـ طرشان ـ عرجان ـ مخابيل ومعهم المعاقبون بأسبوع الضبط للغياب المتكرر، عليهم تسليك الخمسين دون استخدام الماء، نقل محتويات جفر الخمسين في صفيح الدهن خارج المعسكرات.. يقسم فريق جنود الشغل إلى قسمين: حمالون (بغّالون) وركاسون (غطاسون) في لبّ الخراء. سؤال: أي ذات أنتجتها مراكز التدريب. أجاب الأعمى وهو جندي غير مسلح أعادته لجنة شرحبيل لرؤية الخسائر غير المنظورة.. الحمالون يحنون ظهورهم ويمشون على قوائم أربع والركاسون يركسون في الخراء الخاكي إلى النطاق يرفعون الصفائح المحملة (جرار العسل) ويسلمونها إلى حمالي القسم الأول، بينما عريف جند الشغل يضع الكمّام على فمه ليراقب انسيابية الشغل في صباح مركز التدريب. المعاقون المعاقبون لا يصلحون إلى القسم الأول كحمالين لخلل ما في إحدى القوائم الأربع، والغاطسون الراكسون لا يصلحون للبغللة أو التثاؤب أثناء تحميل الجرار.. فتلك أوامر قيادة معسكر الضبط كمكرمة أو استرحام. قال العريف: ثابتٌ في الخراء.. داوم حسب المنهج. مراحيض وحدات الجيش المتحركة أو الجبهات، لم تكن بالمرة أفضل حالا أو رومانسية بالمطلق، لكنها تدخل نمط السريلة العراقية المحضة في فصل الجحيم (منذ تأسيس الدولة العراقية عام1921 لغاية إعداد هذا البيان هذا نرفل بسريالية عراقية مضحكة/ مبكية لصناعة ذوات خاصة بنا)..

عندما تمسك إحدى الوحدات قاطعا ما، ومسك الأرض هذا بمثابة مصطلح خاص بلغة العسكر التي انتشرت وتداولت لدى ذوات الجمهورية الخامسة خاصة، يحصنون مقر الفوج أو اللواء وآخر ما يفكرون به هو بيوت الراحة المفقودة، فالحرب قائمة ولا مجال لبناء الخمسين كما هو الحال في المراكز، إذ يختفي النسق الواحد لبيوت راحة الجند ويتحول إلى خندق شقي مكشوف يزرع كل صباح في أنواع مختلفة من حيث اللون والشكل من ألغام بشرية تزدحم أو تقل حسب خريطة حساسية المكان وقرب العناق مع العدو، إلا أن آمر الوحدة يتميز عن بقية المقاتلين بصناعة مبتكرة له من حمامات ومراحيض يبتكرها مخيال (جنود الشغل البنائين) لإكمال مراحيض السيد الآمر في اليوم الأول من مسك الأرض.. فهي عبارة عن خرطوشة مدفعية مدفونة في الأرض يقذف السيد الآمر محتوياته بدقة في إصابة الهدف وخرطوشة أخرى لمدفعية 152 ملم تنقل ألغام السيد الآمر إلى مجرى خارجي يسمّد الأرض لتكون خصبة في العطاء.. صاح الأعمى: ثابتْ. استعد.. يس / يم.. إلى الوراء در.

* * *

الفصل الثالث

الأزياء:

أولا: القمصان

حكاية: قميص الرئيس

في عقد السبعينات الذي يعتبره مؤرخو المقهى بالعقد الذهبي في الاسترخاء المجتمعي، وبه حصل انفجار هائل في توافد الموديلات وركوب موجة الموضة لكلا الجنسين، من بنطلون الجارلس العريض والمصنوع من قماش الديلوين المزخرف بأكمام عريضة تصل حتى الأربعين والخمسين سنتمترا والقمصان الزهرية الضيقة بياقات طويلة تشبه إذانات الدواب بأحزمة جلدية عريضة، أما أنثويا فثمة تنورة «الميني جوب» كموضة عصرية للفتيات. يذكر العلامة الدكتور عالم الاجتماع حاتم الكعبي في كتابه النفيس «حركة المودة» أن المودة تتكرر عبر حقب السنين وفي تكرارها تأكيد على أهميتها التاريخية ونزوح حاد للتجديد.

يذكر أصحاب الذاكرة الفاعلة كيف استطاعت الفرق الجوالة لوزير الداخلية آنذاك «سمير الشيخلي» من ملاحقة طالبات الجامعة ورش الصبغ الأسود على ملابسهن أو تمزيق التنورات القصيرة ـ فوق الركبة

- بحملة شعواء وقاسية لمقاومة أزياء الحداثة الوافدة، إذ استطاع الحاج «خير الله طلفاح» خال حاكم الجمهورية الخامسة ونائب رئيس الوزراء آنذاك من التحريض على الأزياء الوافدة من الغرب والمستعمر، بمعنى أن القروي غالبا ما يحافظ على التمسك بتقليد أزياء الآباء والأجداد.

بينما ظهر في شوارع أوربا بعض الشباب من الأجانب والفلسطينيين ممن يرتدون قمصانا من نقشة اليشماغ الذي يُعتقد بعروبته، أو عمل الوشاحات منه، كدلالة رمزية على دعم القضية الفلسطينية برمز اليشماغ عالميا، ذلك هو التصدير اليتيم لشكل الزي العربي خارج الحدود.

هل توجد لدينا أزياء عراقية فيها ملامح الخاصية العراقية؟ هل يظهر العراقي في أزيائه الشعبية منتشيا بمحلية الأزياء وفلكلورها؟ هل هي أزياء هجينة كما يقول البعض؟ هل تشترك معنا دول الجوار في مداخلات الزي وتطعيمه؟ الأسئلة التي يمكن أن تكون مدخلا لخلخلة شجرة النمط الساكنة المستقرة وهزّها بعنف لمعرفة ما ينتج عن هذا الفعل..

إن ما يلفت النظر في إشكالية التعاطي مع الزي، تبقى محكومة ضمن أنساق اجتماعية وفكرية وتراثية تقليدية، هذا الأمر يتّضح جليا في العراق وخصوصا في أزياء ذات الجمهورية.. بمعنى إن الزي أي زي لا يمكن أن يكون مقبولا إلا إذا أعطت الذائقة الإجتماعية جواز قبول له، وتحت قاعدة (البسْ ما يعجب الناس، وكلْ ما يعجب نفسك)، يطرح هذا المثل العراقي العامي النموذج الموّحد لتعاطي الزي في الشارع العراقي ويترك هامشا بسيطا لانسجام لوني يشتغل أو يتناغم مع الذائقة

العراقية الكليّة، التي تتحكّم فيها جماعة (ثقافة الرصد النقدي) الذين يقفون على ناصية كل شارع أو مفترق طرق لرصد الملبس وموضوعة تناغمه مع الذائقة النمطية وما تسميه بـ(العقلانة) في ارتداء ما يتناسب مع تقدّم العمر، في نسقيّة ألوان رمادية وقاتمة ونبذ موضوعة التشجير والتزهير والزخرف والألوان الصارخة، وإذا حصل مثل ذلك الخرق فهو يحق للفنانين وما شابه. بينما يسمى الشخص الذي يرتدي زي الأفندي أو القميص والبنطلون وحلاقة الشارب بالمثقف، فالمثقف بمواصفاته الجديدة يرتدي الزي الأوربي الوافد وهو المروج له بين فئات المجتمع الأخرى.

ثلاثة مناهج نظرية تتداخل لإبراز الزي العالمي كهوية كليّة، الأول في علاقة الملبوس وتناغمه مع حركة الجسد والثاني في علاقة الألوان مع بعضها ومع المحيط الكلي في الانسجام الهرموني وقبوله الديني والاجتماعي، أما المنهج الثالث فيتمثّل في مديات القبول الكلي له ومستوى الإعلان عنه والترويج له بقبوله وانتشاره وصيحته..

(الخفة هي طريقة لإدراك العالم بشكل يتيح الرؤيا بشكل أعم، ترتكز على أسس فلسفية وعلمية.. الخفة في بحوث الأنماط الثقافية هي واحدة من مفاهيم حداثوية معاصرة، يقام على أساسها تفكيك الظاهرة التاريخية والمجتمعية بطريقة الطيران وإنتاج المتخيل الشعبي متخلصا من براثن الواقع الثقيل والجاثم على الذاكرة والذي لا يتيح التفحّص الدقيق للظواهر، وإذ تنتقل الخفة من الأدب إلى تحليلات سوسيولوجية، فمن الطبيعي أن تنتقل بسلاسة إلى المناهج البحثية الحديثة كمفهوم فلسفي معاصر، يقفز هذا المفهوم على المتحجر من القواعد الصارمة في

المناهج البحثية الكلاسيكية بشكل كروباتيكي أساسه الخفة والسرعة والدقة في إنتاج الأفكار، فهي إذ تصلح للرصد والتحليل وإثارة الأسئلة كمنهج نقدي ـ ثقافي تكون بوتقة الوعي الاركيولوجي واحدة من أدوات اشتغاله وربما بطريقة ساخرة أحيانا.. إننا بمحاولة كهذه إذ نعيد صياغة الأنساق بكل شغف البحث ولذة الاكتشاف، بكل قنوات الوعي المتراكم لتحرير ذاكرة من أسرِها، هنا نقصد الوعي التاريخي الحديث للوقائع والظواهر على السواء، التاريخ هو ليس فقط تاريخ سير الملوك والحكام (الملكي/ الجمهوري) وأروقة السلطة ومطابخها، ليس تاريخ الوقائع والحروب والحملات، إنما تاريخ العوام في ملبسهم ومأكلهم ومساكنهم ونوع ثقافتهم ولهجاتهم.. كيف يتكون المقدّس والمدنّس في يومياتهم وسيرهم ومروياتهم المنتفخة والتي ليس عليها اتفاق أو إجماع؟؟ كيف تتشكل الظواهر والأنماط في قاع ذواتهم؟؟).

إذا اعتبرنا إن الأزياء في جانب منها تحمل جينات التحضر والرقي بل هي في تطورها بلاغة لونية تنسجم مع متطلبات الحاجة الإنسانية في التمظهر (الحضارة الغربية) والحجب والتستر (المجتمعات الإسلامية)، فإن موضوعة الأزياء تبقى هي الكاشف الفعلي لدراسة المجتمعات وذواتها، بمعنى قدرتها على كشف العوامل السايكولوجية والعوامل الأخرى التي تؤثر في صناعة وإنتاج الأزياء.

ثمة قميص غالبا ما نفضل لبسه دائما، أما لفصال خامته أو لبرودة قماشته أو لونه المريح للذائقة وإذا اجتمعت حالتان من ثلاث ستكون حتما الأفضلية لهذا القميص أو البنطلون.

خلع الرئيس الجمهوري الخامس بدلة مدنية رسمية وارتدى رسميا

البدلة العسكرية في احتفال القيادة المهيب لشخصه، ملبس عسكري بلا نياشين أو أوسمة أو عصا التبختر الرئاسية، تسمى في اصطلاحها العسكري (بدلة قيافة) وغريمتها بدلة الميدان التي تُكنى (بدلة عرضات).. لم يبدِ عليها رئاسية سوى النسر الغاضب في منتصف الحزام/ النطاق والمسدس الهابط في الجنب والبيرية السوداء المائلة مع نسرها إلى جهة اليمين، سوى لونها السحري الذي يماثل بدلة كاسترو الصيفية.. حدث هذا بالضبط بعد بدء حرب الخليج الأولى أيلول 1980، أصبح المهيب الركن القائد العام للقوات المسلحة بسرعة فائقة ولم يكن مسلكيّا.. لون البدلة العسكرية الرئاسية، سيكون مغايرا تماما لكل بدلة زيتونية أو خاكية في البلد المتعسكر تحت الخاكي/ الزيتوني/ السفاري(لاحظ بدلة عبد الكريم قاسم العسكرية المتواضعة).. هذه الثلاثية التي اصطبغت فيها قامات الذوات الجمهوريين.. كان سر اللون معروفا في خلطته السحرية لدى بعض الرسامين المهرة..من رسامي الجداريات الكبيرة خصوصا جداريات الساحات العامة ومداخل المدن العملاقة.. إلى جداريات بانورامية-ملحمية تبدأ من السيف والحصان وتنتهي بالمسدس (9 طارق) وملحمة الجند خلف القائد الرمز/ الضرورة، في الجدارية يبرز الرئيس الخامس ببذلته العسكرية وألوانها الخاصة جدا وهو يقلّد الجنود أنواطا أو يسحب حبل المدفع أو بين الجماهير في الخوذة أو البيرية أو شادا رأسه بيشماغ أحمر.

حكاية: رسام الجداريات

أخبرني صديقي رسام (جداريات الريس) ويدعى (ع. بـ. ج) ذات يوم في المقهى، بعد أن تلفت يمينا وشمالا قال:

لرسم لون (بدلة قيافة الريس) يضع الرسامون المحترفون سبعة إلى ثمانية ألوان من أطياف وموجات مختلفة.. الأسود مع الأزرق مع الأخضر مع البياضات في أماكن الضوء، وقليل من الأصفر والأسود إلى مناطق الظل على البدلة الرئاسية الخاكية.. لونها قريب من لون البحيرات الساكنة عندما تحيطها الأشجار العالية مثلما وصفها أحد أكبر الرسامين في صحيفة الجمهورية.. بعض من كاتمي الأسرار يقول أن قماش البدلة استيراد خاص من معمل نسيج روماني، والبعض الآخر يقول إنها فرنسية وفريق آخر ذهب ليقول بعد أن وضع كف يده على إذن صاحبه ليفشي له السر الرئاسي.. إنها من معمل نسيج عراقي سرّي، متخصص لإنتاج نسيج زيتوني رئاسي من الهرم حتى القاعدة.. المعمل ينتج فانيلة ولباس وقمصلة وبنطلون كلها باللون السحري الرئاسي.. ملابس الرئيس تختلف تماما عن كل طواقم الحمايات في أطواقها الخمس وعن بذلات المكاتب السرّية الملحقة بمكتبه، وعن كل طواقم ديوان الرئاسة والسكرتارية الرئاسية..

تختلف من حيث لون بدلة الذات الكبيرة فهي ضد الكوي والرصاص و(غسل ولبس).. تبث روائحها الخاصة والتي تتحول إلى مجسات الشعور بالخطر.. باردة في الصيف ودافئة في الشتاء.

إن أحد المقربين من طوق الحماية الأول يرتدي اللون القريب من لون زيتوني الرئيس، لغاية لا يعلمها اقرب المقربين من المرافق الأول تسمى (بدلة الشبيه) المواكبة لإتمام جولات الرئيس وخطوط الحماية الأربعة. وصلت تقنيات الجداريات الرئاسية العظمى إلى إن الرسام الأول تخلّص من طريقة المربعات الفنية في رسم البورتريه بل تخلّص

من الفانوس السحري في رسم الوجوه.. أصبحت الذات الصغيرة ترسم ذاته الكبيرة وهو مغمض العينين في (لحظة إلهام فطري) كما صرح لصحف الثورة والقادسية والجمهورية.

قالها وفعلها عندما قهقه وأعلن إن هذا اللون (الخاكي) سيكون مودة لل(ويلاد)..ها.. ههههه ههههه.. بعدها أصدر قرارات كثيرة بحق القوات المسلحة.. امتيازات ومنح ومكرمات عبارة عن بدلات زيتونية، عوضا عن السيارات وقطع الأراضي، بدلات زيتونية خاصة (رئاسية) تمنح المكانة الاجتماعية لمن لا يملك هذه المكانة. وصلت إلى تمنّي البنات الزواج من الضابط العراقي (لو مُلازم لو ما لازمْ) الضابط الجمهوري الذي تقدّم الصفوف وأصبح في واجهة صفوف المجتمع بعد هروب كوكبة العلماء وصفوة البلد الحقيقيين.. وأصبح في كل زحام أو حشد ما متقدما على كل طابور.. دائما ستجد هناك مدخلا خاصا للضباط وقوى الأمن الداخلي في أي طابور.

كانت عسكرة حقيقية بامتياز لذات الجمهورية الخاكية، حيث تطورت صناعة نسر الجمهورية العراقية وأصبح ذهبا خالصا عيار21 ولكنه لا يقوى على الطيران.. نسر في الحزام أم النطاق أم الأكتاف أم في البيرية قرب النجوم، سيبقى هذا النسر سببا في إدامة مأساة الذات العراقية البندولية.

***

ثانيا: اللون المفضّل

«شلونك» هي أول مفردة تدل على مشكل اللون في العراق، وهي

مفتتح الحديث واستهلال الحوار بين شخصين من العراق.. مفردة التداول الأكثر انتشارا في ربوع البلد، دالة السؤال عن اللون تكشف عن وضع الشخص المسؤول عنه صحيا واجتماعيا واقتصاديا. أنها سؤال اليوم التقليدي عن أهمية تغيرات اللون في الحياة العراقية، والمقصود بها ما هو مخبوء تحت اللون.. أي ما بعد اللون الظاهر وصولا إلى أعماق الحالة الاجتماعية والصحية والاقتصادية حتى يتغير اللون بتغير الحالة العميقة.. مادة شهية تختزنها مفردة شعبية دالتها السؤال عن الأحوال العامة بدلالة اللون الطافح على المظهر.. حتى وإنْ انحرفت كثيرا بمرور عوامل الزمن والتغييرات الكثيرة لدى مستوى معيشة الجماعات.. أصبحت لا تعنى باللون فقط، بقدر ما يُراد لها أن تصل إلى الانطباع العام عن الأحوال والمزاج بكل صورهما.(شلونك.. شلون أحوالك)، بمعنى ما هو لون مؤشر البارومتر المزاجي لحالتك الآن؟ ما هو مؤشر الأحوال العامة؟ هل هي سودة مسخمة مثلا؟ أم قدمي أخضر عليكم. ترى كيف يدخل اللون في مصائر الذوات بكل صورها اليومية. بهذا التبسيط الساذج نستطيع الاستهلال للدخول إلى ما هي اللون العراقية، ليس كعامل يدخل في تغيير المزاج العام فحسب، إنما كعامل يؤشر الوضع الثقافي والسايكولوجي العميق للذات العراقي القلقة.

حكاية لون: حبيب حديقة

كان حبيب شابا أريحيا في عقد الثمانينات في محلتنا يعمل عامل بناء بأجر يومي بسيط، يهتم في إثارة الشارع والسوق باستخدامات الألوان غير الشائعة في الأزياء والموضات الوافدة والعصرية، مثلا كان يلبس القميص الفلفلي الفاقع المثير للعين والبنطلون الجارلس

الأحمر المشع، كان عرّابه في الموضة شخصا يدعى جبار الخياط، رجل ذو بشرة سوداء يجمع كل مجلات الموضة الرجالية القادمة من خارج البلد، يقص الصور ويعلقها داخل محل الخياطة، يأتي حبيب حديقة ليضيف ويبالغ في الزي الغربي في البنطلون أو القميص بشكل لافت ومثير لحساسية الشارع آنذاك رغم رفضه لتسمية حديقة، ويعدها سبّا فاحشا يستدعي إماطة اللثام عن عضلاته الناتئة. في إحدى المرات تفتقت قريحة حديقة لإضافة البلك الذهبية على البنطلون ليثير الانتباه والمحافظة على الريادة، عندما حاول بعض المراهقين تقليده في اللون المثير للعين والمبالغة في خياطة موضة البنطلون الجارلس والمارلس والقميص الحدائقي.

توفي الخياط جبار في الحرب مع إيران وأغلق المحل بعد موته نهائيا، وحزن حديقة على صديقه وأطال لحيته، وبالغ في حزنه كثيرا خصوصا عندما لبس بنطلونا اسود ممزقا وربطة عنق حمراء وقميصا أسود أيضا. رفض الخياطون التعامل مع هوس وجنون حبيب حديقة في اللون والزي الخارق للمألوف، ولم يجد من يحتضن أفكاره الجنونية وتحول تدريجيا إلى صحراء قاحلة وخفّت موجة الألوان الصارخة من حياته إلى الأبد.

اللون في لسان العرب هو هيأة، كالسواد والحمرة. قيل لونّته فتلّونْ، والفعل لوّن أي فصل بينه وبين غيره، فالألوان أذن هي الأنواع، والأنواع هي الأعماق السحيقة للنفس الإنسانية. إذا كان فلان متلونا أي أنه لا يثبت على شكل، فقيل متلّون كالحرباء، تُقال للشخص الذي يلبس لكل حالة لبوسها أي «يتحرّب» من حرباء..

هل بدأت الحياة على كوكب الأرض باللون الأسود والأبيض؟ أم أن الألوان كانت ألوانا محايدة مختبئة تحت الصخور أو تحت الثلج أو في الكهوف المظلمة التي تقتل فاعلية اللون بفعل العتمة؟ هل يستطيع الرجل البصير إدراك خاصية اللون الأزرق من الأخضر، أم أن تخيله هو الذي يقنّن خاصية اللون ليتذوق جمالياته المتخيلة، ثم يسقط تصوراته الطوباوية «المتخيل اللوني» عليه؟

هل اللون هو نتاج الثقافة البصرية للمجتمعات؟ أم أنه تلبية لنداء الحاجة النفسية لمصنع الذات؟ أم هو ربما نتاج اتفاق كلّية الجماعة وترميزاتها للمقدسات الساقطة على ظاهر الأجسام والأرواح والذوات. أم نتاج نمطية الموجودات على إسقاطات البيئة والعوامل الطبيعية والحاجة البايلوجية أو تأثيرات الديانات وطقوسها مثلا! هل يكون اللون محايدا بطبيعته؟ ترى اللون الأبيض طاغيا صيفا في جنوب العراق، اعتقادا منهم أنه اللون الأكثر برودة من غيره، بعكس الرمادي الذي يجلب الحرارة في الشتاء.

هل الذاكرة الجمعية هي التي تضع اللون بمكان ما لتوصيف حالته؟ لماذا معظم الألوان في اللغة العربية على صيغة أفعلْ؟ وخارج تلك الصيغة هو مشكوك بعربيته؟ كل تلك الأسئلة بحاجة إلى فحوصات جوهرية لدراسة أبعاد اللون والجماعات والتشكيل البصري الطاغي لديها. ثمة أسئلة بحاجة إلى تفكّر في إجابتها رغم أن ظاهرها يدل على بساطة المحتوى، لكن العمق يكمن في تفكيك الظواهر. حتى تحول اللون بكل موجاتها إلى خاصية من ضمن المعتقد والطقس والتديّن. دلالة اللون الأبيض على ضفة النهر عند المندائيين في عيد البنجا مثلا

يعتبر مفتتحا لممارسة الطقس والحاجة الروحية للطهارة، ومثلما يكون الأخضر اللون الشائع بقدسيته للطائفة العلوية ويخص الشيعة الإثني عشرية منهم، أما العمامة السوداء فهي دالة النسب للرسول محمد وأهل بيته الكرام.

تلك الأسئلة مفاتيح لأنثروبولوجيا فيزيقية معاصرة.. ربما بدا هذا الحقل حديثا على منظومتنا الثقافية المتشكّلة لملاحقة ما ينتجه الغرب في تطورات البحث الدرس الانثروبولجي المشوّق، لكنه من الأهمية في إدراك ما يلمَّ بنا من تهويمات وأسرار في قضية لون الجماعة/ الطائفة/ الزمرة/ الكتلة/ الشريحة/ الفئة/ الطغمة/ الفريق على الأقل في إثارة الأسئلة في هذه المرحلة المبكرة، ستدلنا حتما على نتائج باهرة في دروس «الانثروبولجيا الاستقصائية» خاصة في الأرض الخام، فالأنواع اللونية المختلفة في فئات المجتمع العراقي وذواته، تخضع للمقدس والتنميط المجتمعي والظرف الجوي، أحاول جاهدا تفكيك ماهية العلاقات اللونية داخل بنيات الجماعات العراقية على اختلافها.

استطاع المفكر المصري وعالم الاجتماع المصري «جمال حمدان» وهو الشخصية الإبداعية المصرية الكبيرة وبجهد ذاتي في قراءة الأمة المصرية من خلال جغرافية الأمكنة أولا ـ كتاب (شخصية مصر) - و خاصية اللون، حيث يحيلنا تدريجيا في كتابه إلى قراءة اللون «البرتقالي»السائد في الحارة المصرية من خلال بريقه ليتكّثف تدريجيا ويتحول إلى أيقونة لونية غايتها جذب العين من دون إبعادها، خاصة في الأفراح الشعبية. يقابله اللون الأزرق في الجماعات العراقية بوصفه طاردا لشر الحسد وطاعنا لعين الحسود وطاغيا على الزقاق والدربونة

العراقية. حتى راح البعض من هذه الجماعات يضع النعال المقلوب في وجه الناظر فوق عتبة الباب الأزرق، ووضع الكف وداخل الكف عين ـ الحسود لا يسود ـ فوق الدرفة، أو ربما وضع ناب الفيل أو قرن الغزال على عتبات البيوت، أو صبغ أبواب البيوت باللون الأزرق الطاغي، فميثولوجيا يعتبر في الديانات العراقية الأزرق لون القداسة والطهر ثم يأتي الأخضر والأبيض، وما تعميم صبغ المخابز باللون الأزرق إلا كدالة على قدسية السماء وما فيها.

يكتسب اللون لدى الجماعات العراقية طبيعة توصيفه ودلالته وفق المتغيرات الجغرافية والطبيعية والميثولوجية والدينية والطائفية وفق منظومة عاملة بنظام محسوب.. اللون له خاصيته في مناسبات الأعياد، وفي الصيف له خاصيته أيضا كما في الشتاء، دلالته في الأحزان أيضا هو الأسود لدى الشيعة والأزرق الكحلي لدى سنة العراق، كما الأفراح لها ألوانها الخاصة، كما هو في التمثيل الدبلوماسي والوطني، مثلا في ملابس الرياضة «لون فانيلات لاعبي كرة القدم الخضراء» هذا اللون الشعاراتي والسياسي لحقبة البعث، وألوانها الثابتة للتمثيل البلدي والمأخوذة عادة من ألوان العلم الوطني أو الإيقونة اللونية لمؤسسات البلد آنذاك.. كما هي بصمة اللون لدى الأحزاب ما بعد ال2003..

اللون إذن هو الأيقونة الماثلة أمامنا مرة للتفاؤل والفرح والسعادة وأخرى للتشاؤم والحزن والفقدان. خصوصيته تظهر في الصحراء كما في المدن المكتظة أو فوق الجبال، في داخل البيوت وصبغ الجدران باللون (البيج) من الداخل والخارج والأبواب باللون الأزرق، في زرقته الطاردة لشر الحسد، كما في عتمة عقلنة الملابس لكبار السن، كما هو

الأمر للعاهرات وبائعات الهوى لهن ألوانهن البراقة قبل ال 2003وما طرأ من تغيير الزي واللون معا لديهن كنوع من التمويه المفروض ومقتضيات المصلحة الخاصة للمهنة، فارتدين العباءة الخليجية السوداء ما بعد ال2003 كواحدة من أسرار خفايا المهنة وإذ تخفي تحتها ألوانا براقة وأزياء المهنة البراقة والخليعة، إذن فاللون صيغة تعبير وحاجة نفسية مرادفة للزي، وباعث إشاراتي للآخر الذي يشتغل على التفريق والفصل بدالة اللون.

أحيانا نجد في لون الملابس حاجة نفسية لإتمام الأناقة وكسر الرتابة وأحيانا نجده طلبا للشفاء.. ميثولوجيا يكون اللون الأحمر طاردا لمرض الحصبة وإشهارا علنيا للمصاب، أما بياض ملابس غرفة الإنعاش وأروقة المستشفيات يمكن عدّه تعبيرا عن الراحة النفسية وانتظام نبض القلب، وما لون طلاء السجون ومنصات الإعدام وبياض الأكفان إلا تعزيزا لذلك الرأي، فمثلا وبعد التفحص الدقيق لقراءة الظواهر اللونية، وعلاقتها بالزي، أدركت أن معلم المدرسة ـ حديث التوظيف ـ في جنوب العراق يرتدي البنطلون بلون رصاصي والقميص الأبيض، وقد تبين أن الأمر قد رسّخته فرضية غبار الطباشير المتناثر والقميص الأبيض للحياد ووقار المهنة، ولم يكن في مجال التقليد أو تنميط الظاهرة العشوائية حتى بعد قدوم القلم والسبورة البيضاء.. وعامل الميكانيك استبدل بدلته الزرقاء ببنطلون الكاوبوي، وعامل البناء ارتدى الملابس الصحراوية لتلائم عمله والسروال الكردي العريض الذي يتيح له حرية العمل فوق الأسيجة.

هناك ما يسمى بفروض المهنة وواجباتها القسرية وليس طبيعة التقليد

أو نمطية الزي واللون.. الكاوبوي الأزرق الغامق ينتشر في أروقة العمل خارج نطاق الأروقة الرسمية بدالة اللون والقماش العملي.. اللون الأزرق بكل درجاته يهيمن على ذائقة اللون العالمي قبل أن يتحول إلى السواد الطاغي كموضة عصرية..

هناك أكثر من دالة مرّمزة داخل اللون في الحياة العراقية.. وللبحث عن تفكيك العلائق الدالة على المحتوى اللوني نحتاج إلى الرصد والتأمل والمقارنات والنظر إلى تاريخ الجماعات المنضوية في سجل الفحص..

تنحصر مصادر دراسة اللون بين التشكيل والتلوين في الرسم، أو في سايكولوجية الألوان قي الحياة العامة، وكثير ما نكتشف زيف اليقينيات والثوابت في طبيعة اللون المصاحب للحالة، نحو أن اللون الأصفر للغيرة والأبيض للنقاء وما شابه ذلك. الْم يكن لون بياض الكفن لونا مرعبا، والأسود يتحول من الحزن إلى زي العصر للمشاهير؟ تلك إذن مفارقة مرعبة. في حين أن البحث في كل مصادر اللون في الأنثروبولوجيا الفيزيقية، يصيب بخيبة أمل كبيرة.. فمثلا يرتدي (الزرقاوي) أحد أهم قادة تنظيم القاعدة المقتولين في العراق، يظهر في أفلام اليوتيوب بأزياء معتادة وبلون أسود في حين يرتدي ابن لادن الدشداشة البيضاء والجماعات الإرهابية تلبس ضحاياها البدلات البرتقالية. اللون يدخل كقيمة رمزية وليست جمالية في العنف العالمي، بينما التيار الصدري في العراق يرتدي أفراده أيضا اللون الأسود حزنا على السيدين الصدرين الأول والثاني وفق تفسيري من خارج النسق. كذلك قوات مكافحة الإرهاب والفرقة الذهبية أيضا تتّشح بالسواد، إذن فالأسود صفة الاقتتال

في العصر الحديث، لما له من تأثير سحري على عناصر الحرب وزرع روح الهزيمة في نفسية الطرف الآخر.

كيف نفسر ألوان رايات العشائر العراقية؟ وما هي قصدية الهلال الأحمر في غالبيتها، في استخداماتها للراية الحمراء والهلال الأبيض أو العكس من غيره.. اللون الأحمر في الراية العشائرية حيث يمثل الجاهزية للاقتتال وزرع الخوف في العشائر الأخرى كما تدل التفاسير المتاحة..

كما هي رمزية العمامة البيضاء والسوداء في حوزة النجف وما هو سر تراكم نسق ألوان الكشائد لدى الموالي والسادة الأشراف والخدام وسدنة الحضرات في الأضرحة للتمييز عن غيرهم بالكشيدة. أما اللون الأحمر وطغيانه في العلم العراقي فقد جاء من بيت شعر شهير، يتحدث عن خاصية الأحمر، كما يؤكد بعض الفيزيائيين بخاصية الاستطراد، بحيث يشاهد اللون الأحمر عن مسافة أبعد من لون آخر، تردد الموجة الطولية له أكثر من غيره.. كما هي رمزية اللون الأصفر في علامات المرور للحذر والتهيئة.. وفي عالم السيارات يكون اللون الأزرق للتبريد والبرتقالي أو الأحمر للتدفئة.. إذن هناك اتفاق عالمي متّفق عليه من سكان المعمورة على تقبل إيقونة اللون العالمي مع حفظ خاصية اللون المحلي.

كيف نفسر انثروبولوجيا ألوان رايات الأحزاب العلمانية والدينية كالأحمر للحزب الشيوعي العراقي والأصفر للمجلس الأعلى وحزب الله والأسود للتيار الصدري؟ اللون الأيقوني في الطائفة أو القومية أو رمز الدولة.. فتلك الظواهر مدعاة التأمل والاكتشاف اليدوي البسيط..

إذا كانت الراية الحمراء لتأسيس الاتحاد السوفياتي القديم بمطرقته

ومنجله، فمن الطبيعي أن يتمثل اللون الأحمر النقي في الأحزاب الشيوعية العربية ومنها في العراق، لكن لماذا كان الأخضر الزيتوني لحزب البعث؟ ولماذا تتمثّل الأحزاب الإسلامية الشيعية في لون أصفر أو أخضر أو يرتدون الملابس السود؟؟ تلك الأسئلة لإثارة الغبار وتفحص ما يلوّن حياتنا.

نخلص إلى الخاصية العراقية لأهمية اللون ورمزيته في عموم الحياة العراقية، من الناحية الدينية وقدسيتها والمجتمعية وإشاعة نمطية اللون، كذلك دخول تأثيرات اللون في شكل الزي العراقي ليأخذ الحيز الأوسع من خاصية الزي.

❊ ❊ ❊

ثالثا: الدلالة المظهرية

يقول روجيه باستيد ROGER BASTIDE بخصوص نظرية الألوان.. إن اللون مهما انشطر وتعدّدت درجات الضوء المسلّطة عليه يبقى صامتا لا روح فيه، إلا عندما يتعامل معها عنصر التذوق ونوع الثقافة البشرية المتداولة في المحيط، فالعقل البشري في محيط المجتمع هو الذي يعطيه معنى ودلالة ودرجة قبول واتفاق أو رفض.. فالعين ليست مهمة في الاختيار والنظر إلى لون بعينه، أنما باتحاد ذائقة الجماعات على قبول ورفض سياق اللون في المكان والزمن المناسب.. فالرجل الكفيف يعلم جيدا انه منظور ومراقب من قبل الجماعات الناظرة، فيشير إلى ذويه إلى تسمية الألوان المتفق عليها اصطلاحيا، من دون أن يتعامل معها بصريا أنما حسيّا وتحصل تنسيقات اللون لديه على مقبولية الجماعة المحيطة

ضمن نظريات التعامل الكليانية مع حسيّة اللون وتدرجه ضمن محيط درجاته، أما في الاتفاق والرفض أو مدى رمزيته.

على مستوى اللغة العربية فقد تركت ثلاثة ألوان من سبعة ألوان قوس قزح، وهي البنفسجي والبرتقالي والنيلي.. وهي ألوان مهمة في الحياة ضمن منظومة فكر الدوائر الإسلامية والعربية في الشرق.. فيما قفز اللون الأزرق بكل مدلولاته الميثولوجية أو جذوره الرافدينية، لما يمتلكه هذا اللون تحديدا من رمزية تكاد تصل إلى القدسية، فهو إذ يمثل لون زرقة السماء وما تختزنه من مكانة رب السموات فيها، كذلك يستخدم هذا اللون في طرد شر الحسد قديما وحديثا، وسواء نتفّق أو نختلف عن هذا المنحى، يبقى اللون الأعم رافدينيا هو الأزرق العام في كل فنونهم وتطلعاتهم في تمثلاتهم الحضارية، حيث وصلت لنا شاخصة إلى هذه اللحظة التي نتفحّص فيها اللون الرافديني قديما، فيما ورد اللون الكحلي أيضا في الأساطير العراقية بحكاية الغراب وكيف يستطيع نقل غبار الكحل بمنقاره ليترك الأثر على الطريق لتستدل به أنثاه.

قبل هذا البحث كان لي تصور سابق، عن رمزية اللون ودلالته في الحياة العامة والرافدينية خاصة، قبل لحظة الشروع في البحث عن جذور وأصل اللون فيها الحياة، وما هي مديات مرموزاته وتدفق دلالاته، فالمتاحف كمادة ملموسة ومحسوسة ورؤية بصرية للمشاهدة من دون تدخل عنصر التخييل سواء في موطنها الأصلي أو في المتاحف العالمية، أو في مواقعها الأثرية وصورها، فقد أعطت نتائج تتوفر فيها علمية النتائج بعد استنطاقها للمجتمع الرافدينيي في تمظهرات اللون في الحياة العامة..

أن المباحث الانثو ـ آثارية تعطي تفسيرا علميا معاصرا ومقبولا إتجاه الظاهرة اللونية وأنماط مرموزاتها في الحياة الرافدينية القديمة ضمن السياق التاريخي للظاهرة ومحاولة قراءتها مع المعطيات الآنية حديثا، وأن طريقة البحث هذه تنتمي بحقيقتها إلى النظرية الأنثروبولوجيا الثقافية، وتلك نظرية معاصرة في قراءة الآثار والرقم الطينية والمومياءات والنصب الأثرية وما تحتويه مدافنها وقبور الملوك والسلاطين فيها. النظرية التي أثبتت فعاليتها في تفسير ظواهر مجتمعات الحضارة الرافدينية من خلال آثارها والتنقيبات أو الحفريات المستمرة..

حكاية: كابوي انكيدو

أن تلك المعاينة أعطت ثمارها في حقيقة الألوان المفضّلة لدى الآلهة في المعابد والزقورات أثناء طقوس العبادة والمناسبات الدينية بمقاربة فاعلة.. وكان في معظمها يسودها البياض المشوب بصفرة فاقعة أو زرقة بعض اللقى، فيما كانت ألوان ملابس العبيد تستلهم ألوانا حائلة من السواد والبرونز المخضر، فعمّال البناء يصفوّن في الآجر المفخور والطوب والقير الأسود في سلالات أور الثلاث، حيث نشطت حركة البناء والعمران، فالضرورة حتمّت ألوان الرماد من جلود الدواب على الشغيلة هناك.. أما عامة المزارعين فقد كانت صبغة اللون البنيّة المائلة للعتمة، والمنسوجة من جلود الحيوانات السائدة، وتلك هي نتائج معطيات التنقيب والحفر والمقارنات بين السلالات والعصور والحقب.. وطبعا ثمة متغيرات تطرأ على بنى اللون في المناسبات المفرحة والحزينة والتي أفرزتها البحوث الانثو ـ آثارية..

لكن النظرية الأنثروبولوجية المتفحصّة للظاهرة، تبيّنْ أن النظام

اللوني وحساسيته في الحياة العامة، تأخذ من الطبيعة «جلود الحيوان وصبغة الزهور والنباتات «وما يطرأ فيزيائيا على أسس اللون المستخدم وأثره الكبير في معظم تفاصيل الحياة اليومية في الحضارة السومرية بشكل كبير وأعم. نستطيع أن نخلص أيضا، أن خصوصية الآلهة آنذاك جعلت تميزها من خلال ألوانها الخاصة وهي بطبيعة الحال تختلف عن ألوان العامة. وماذا عساني أعمل حين التفكير العملياتي في أزياء انكيدو ابن الغابات القاسية واختلافها عن ابن مدينة أوروك العظيمة، هل كان يرتدي قطعة من الكابوي على سبيل المثال تختلف عن بدلة الحرب الأنيقة التي يرتديها جلجامش؟

ومن خلال خاصية الفحص البصري للسياق التاريخي وأهمية المعاينة المباشرة للوقائع واللقى المتحفية أو تلك المتروكة بالعراء، حيث كوّنت المادة التفصيلية لطبيعة اللون في الحياة الرافدينية ومديات فرز استخداماته.. أغلب الظن أن كل الآثار المتروكة من آنية وقوارير ومستلزمات الحياة يغلب عليها اللون الأزرق والفيروزي، حيث يشكل اللونان المذكوران مادة فنيّة جمالية وثقافة عصور قديمة، ونستدل منها أن الألوان المتعددة كانت موجودة آنذاك وليست محصورة في الأسود والأبيض فقط، بمعنى أن الحياة الرافدينية القديمة تعتمد على موجودات الطبيعة السهلة بعيدا عن كيميائية الصناعات الحديثة والصبغات اللونية الصناعية، لذلك أخلص إلى القول أن اللون تاريخيا يتطور وفق النهج الحضاري، تعكسها حالة تطور الحياة العامة بصناعاتها المتعددة.

من جانب آخر يرتبط العامة من المجتمع الرافديني القديم بعلاقة

سلبية مع اللون الأحمر.. ففي بداية شهر نيسان وظهور كوكب الزهرة بشكل واضح في صفحة السماء يعتبر بادرة شؤم وخوف عند العامة آنذاك كاعتقاد ميثولوجي راسخ من خلال إشارات الطبيعة.. فيعمد على عمل عجينة لونية مستقاة من بعض الأزهار ذات الصبغة الحمراء ووسم وجوه الأطفال وكذلك وجوه الخراف الوليدة بصبغة حمراء دفعا للروح الشريرة التي يرسلها كوكب الزهرة.. ليرضى عنهما كوكب الزهرة الذي يعتقد أن روح اينانا كانت متلبّسة داخل هذا الكوكب..

أيضا ففي الحياة السومرية ثمة جذور قائمة لغاية اليوم على جذور اللون السومري، تبرز خاصة في الاحتفالات العامة والطقوس العبادية أو الميثولوجية.. لغاية اليوم يحتفل أهل الجنوب بالمناسبات الدينية والوطنية بوضع سعف النخيل على عتبات البيوت،، حيث يبرز اللون الأخضر الذي يوشّح البيوت في شهر آذار، بوضع سعف النخيل بشكل أقواس على البيوت دلالة الفرح، كذلك تعلق الألوان الصفراء والحمراء برايات على امتداد الشوارع. عندما يخرج ديموزي (تموز) الراعي أو الفلاح البسيط عشيق الآلهة عشتار من العالم الأسفل بعدما سيق عنوة إلى العالم السفلي حيث يبقى نصف سنة هناك ثم يخرج في النصف الآخر منها بعد توسلات عشتار للآلهة، وعند خروجه يعم الفرح لدى العامة ويكون اللون الأخضر هو الغالب على زينة الشوارع والمأخوذ من سعف النخيل تحديدا.. فيما يكون اللون الأصفر وليس الأسود هو لون الحزن العام بلون الأرض المحصودة من الغّلة.. تموز وهو من صنف العامة وليس من طبقة الآلهة الحاكمة لذلك يتم الانحياز له من قبل المجتمع السومري.. وبعد انقضاء الأشهر الستة المخصصة لخروجه

يعود من جديد إلى العالم السفلي، فيحزنون عليه وتعم الكآبة في بلاد الرافدين ويعبرون عن الحزن باللون الأصفر.

***

رابعا: رمزية اللون

لأن أطوار الجمهورية لم تدرك ماهية الأزياء بوصفها رُقي للثقافة الحسّية عالية الإدراك، حيث لا توجد سوى دار واحدة حكومية تدعى (دار الأزياء العراقية) أخذت على عاتقها التعامل مع موروثات فلكلورية من الأزياء التراثية بنوع من البلادة، ولم تهتم بالمعاصرة، لم تنظر إلى الحداثة بوصفها حاجة عصرية مطلوبة جماهيريا.

فن الأزياء يمثل نسغ الثقافة الراقية التي يتقاطر عليها مصممو الأزياء لابتكارات وتقليعات غريبة في كل موسم لتلبية الحاجة وكسر عنصر التكرار. يبدأ المشاهير للبحث عن جديدها ومن ثم ترويجها في قاعات العرض، لتنتهي في أفريقيا أو الشرق أو جنوب العراق كتقليعة موسم ما. نحن نستقبل الأزياء كمقلدين ليس إلا، وإذ نستمتع بهذا التقليد دون النظر إلى علاقة الزي في المكان والبيئة والمزاج والفضاء العام.

إن موضوعة الأزياء تبقى إشكالية كبرى في الفضح الثقافي والتاريخي ضمن نسق الجمهوريات المعلنة الذي نحن بصدد إعادة تفكيكه وإنتاجه من جديد، ضمن تحولاته الثقافية المستمرة، ذلك إن الزي يبقى علامة ثقافية فارقة في فضح الحقبة التاريخية بما احتوت من إرهاصات لونية ومنظومات مجتمعية مستورِدة للجمال والتذوق عبر قنوات اتصال مؤدية

أو غير مؤدية أحيانا، فالدراسات الحديثة على هذه الشاكلة هي التي ستقرأ التاريخ بوعي الحداثة الذي نطمح لتدوين وقائعه بكل هامشيته أو مركزيته من سير الوقائع اليومية، على إن الدراسات الاجتماعية الحديثة تخلّصت من هيمنة المركزي واشتغلت على صياغات وإنتاج الظاهرة الشكلية البصرية والمفاهيمية في إطار الهامش الفاعل، وبعيدا عن زيف قراءة التاريخ الذي تكتبه السلطة وفق منهجة مفاهيميها السلطوية.

حكاية: عودة كرار سائق الستوتة

الزي العام لكرار صاحب الستوتة الحمراء هو التراكسوت الرياضي، يصلح للعمل والنوم والتنزه الحر، بعدما أزيحت فرضية زي الدشداشة جانبا من الحياة العراقية الشعبية. هيمن هذا الزي الرياضي على الشارع برمته، وهو عبارة عن سروال رياضي وقمصلة من اللون ذاته بلون واحد وخطوط عمودية على الأرض، التراكسوت الذي انتشر بشكل غريب لدى الطبقة الفقيرة وعمال التنظيف والبناء وسواق الكيات والستوتات. اجمعوا على انه الزي العام لهم، من خلاله يستطيعون التنقل بحرية من مكان العمل إلى المقهى ومراجعة دوائر الدولة والعودة إلى البيت والنوم فيه، فهو مثل آلة «ست البيت» في المطبخ تصلح لكل الخلطات والطحن، هو كذلك يؤدي كل الأغراض. ثم انه زهيد السعر ومعروض في كل الأسواق، في الشتاء يكون اسفنجيا وفي الصيف من قماش خفيف بارد. يملك كرار ثلاثة تراكسوتات، إثنان للعمل وواحد للذهاب به إلى عزاء ميت أو مناسبة دينية. يستطيع بيسر التنقل به بين المحافظات أو حتى السفر خارج العراق إن استدعت الضرورة من دون وجل أو حياء. أنه البديل الرسمي عن الدشداشة لأزياء شعبية ما بعد ال 2003،

غير أن الدشداشة لم يعلن موتها الرسمي بعد، فأصحابها ما زالوا يكيلون التهم والاستهزاء بأصحاب التراكسوتات بل يصفونهم بـ«الملطلطين».

إذا كان اللون في الزي هامشا فان هيأة الزي تتحول إلى متن مؤثر في قراءة التحتانيات المجتمعية، وإذا قلبنا المفهوم بوعي الخفة فإن لون الزي سيكون هو المركز الجاذب والمتحول إلى هامش الظل تاريخيا، إذ تختفي هيأة الزي ولونه إلى ظلام الهامش المتروك تحت تاثيرات عامل الزمن.

أول ما عملت الحقبة الثورية الجمهورية بعد عشر سنين من العمل على إزالة تسيّد اللون الأسود والرمادي والكحلي من فيريائية المشهد البصري الطاغي آنذاك، ووصفته أنه من مخلفات زمن الرجعية الملوكية العميلة. بما فيه من خلع السدارة الفيصلية والبدلة الملكية، للقبول بألوان أخرى جديدة هي اللون الصحراوي الثوري والخاكي والزيتوني وبدلا عن السدارة الملكية هو اليشماغ الأحمر والكاسكيتة الخاكية. كذلك إشاعة ألوان العلم أحمر / أخضر/ أسود/ أبيض هي فوضى لونية ترفرف فوق دوائر الحكومة لدولة التحولات السريعة.

السؤال الأكثر إلحاحا هو التالي: متى يصبح اللون رمزا شعبيا أو مقدسا وطنيا كألوان العلم المتعددة مثلا؟ متى يكون النمط شعبيا في بياض بدلة العرس وبياض لباس الحاج في طوافه أو بياض الكفن الذي يلف الجثة؟ يصبح اللون الأبيض رمزا للنقاء والطهارة والسعادة ويشكل حيزا من مساحة العلم كمقدس وطني عندما يكون حدا فاصلا ضمن المعتقدات العامة أو لحظة تبلور الهوية الفرعية في معايشة الطقس بوصفه خاصية الجماعة، ضمن صياغة اللاوعي الجمعي.

الأسود هو رمز الحزن والوقار والعقلنة وإخفاء مفاتن الجسد (العباءة)، يصلح أن يكون رمزا لأزياء الحزن والوقار، لأنه يمثل رمز الظلام الكئيب، وكذلك يدخل خانة المقدس الديني في حيزه ضمن فضاء اللون/ المقدس أو فضاء اللون/ المعتقد أو اللون/ الهوية داخل منظومة لونية العلم كإعلان لبلاغة وطنية حسيّة لكنها فوضية محضة..

إن تحوّلات المنظومة اللونية الحسيّة إلى دلائل وإشارات يدركها الجمهور تتنمّط في لاوعيه وذاكرته في عهود سياسية مفصلية في حياة الذوات.. ألوان الملوكية لها من الخصوصية تختلف عن ألوان الثورات/ الانقلابات في زمن الجمهورية.. يكون اللون ظاهرة ويدخل ضمن نظرية الألوان عندما تتعمم على مساحات المدن داخل الزي الملبوس، ويصبح مقبولا بعدما ضغطت مفاهيم الحداثة بقوة التحديث القسري لتقبله.

الألوان رموز وليست دوالا في سياق المفاهيم الشعبية لدى الجماعات، فدلالة اللون الأحمر مثلا تعني إشارة الخطر القاتل، الأحمر بلون الدم والنار فتحولت الإشارة البصرية إلى دالة متفق عليها، فعندما يكون اللون الأحمر في العلامات الضوئية دلالة للتوقف الصارم والخطر. ويتحول اللون إلى رمز محلي معترف به كما هي أعلام الدول وإشارات الأحزاب والتيارات والمنظمات.

تتداخل الحواس في مادية اللون وتأثيره السايكولوجي، وحاجة الذوات له. إذن نحن نحاول زحزحة اليقينيات ونشكك في الثابت وتلك هي الطريقة المثلى لاستبيان الحقائق من نظرية اللون وتحوله

إلى المقدس منها ليس في التصنيف السايكولوجي لمفهومية ودلالة اللون، إنما من التعاطي الانثوبولوجي له، فيكون الأسود لونا مقدسا لدى جماعة بعينها في حين يكون الأخضر مقدسا تاريخيا لفرقة أخرى.. فيما جماعة أخرى تأخذ الأبيض مقدسا دينيا لها قريبا من النهر الجاري المندائية مثلا، بذلك يدخل ضمن خطوط التابو التي لا يمكن تجاوزها ضمن سياسة الجماعات القامعة لرمزية اللون لدى الآخر المقابل والمضاد لونيا.

إن أهم مكونات الأزياء والمحرك لبلورة شيوع النمط في الزي هي ثلاث وظائف فاعلة في بلورته.. تمثّلاته الحياتية المكونة لمادة الزي المدني وهي على التوالي: ألوان الأزياء ومادتها المتكونة من نسيج الخام ومديات إنتاجه المصنعي المستورد أو المحلي وثالثهما هي هيأة الزي المتمم لها وفصاله.. بمعنى خياطتها وتطوّر الفصالات والحواشي والمطرزات وفق نمط كل حقبة سوى ملكية تقتصد في استعمالات اللون وتميل إلى «القاتم العقلاني»، أو جمهورية متدفقة في طوفان لوني صارخ يتماهى مع ضجيج الحقب الثورية العنيفة.. هذه العناصر الثلاثة هي مادة الزي المدني ومحوره، وهي المحتوى والمعطى الدال على خصوصية التفرد واستحقاقات البحث النظري..

إن أولى علامات بذخ الطبيعة هي منحها هذا التميّز في طرحها هذا الطيف المتنوّع من الألوان المتنوعة في حزمة بثها، وهي إذ تتداخل مع بعضها لتتناسل مئات الألوان الفرعية التي تمنح المشهد البصري هذا الغنى وذلك التنوع. إن شرط التطور التاريخي هو الذي أوصل الحاجة الفعلية إلى هذا التراكم في تنوع الأزياء ومزاجية الألوان.. تلك

المعطيات الأولى رغم عدم الخوض في التفاصيل الداعمة لها، طبعا هناك إشارات واضحة في التفحّص على الارتباك اللوني الموجود على سطح الذات العراقية المعاصرة في زمن جمهورياتها الخمس.

حكاية: جاسم الفضّي

إنه أحد الذوات من (الحماسيين) الثوريين ويدعى جاسم الفضّي لكثرة أحاديثه عن الطيور الفضية التي يصطادها في الطفولة قبل انخراطه في الحزبية، قام بصبغ يشماغه بألوان العلم العراقي في إحدى المسيرات الراجلة التي قامت بها جماهير حزب البعث لتستعرض قوتها ومدّها الجماهيري أمام الشيوعيين في بداية عقد السبعينات، قام الفضي تزلفا وتقربا ولافتا النظر بحركته تلك، حتى أصبح بين يوم وليلة عضوا في الجمعية الفلاحية ورفيقا فاعلا في الحزب، لبس يشماغا زيتونيا وعقالا من نفس اللون لنفس الغرض ووضع ميدالية بيضاء على ياقة سترته الزيتونية، فيها خريطة العراق وتحتها شعار الحزب (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة) وقلم جاف في جيب السترة الصغير لكتابة التقارير السريعة. تسلق الفضي سلالم الصعود الحزبي بعد أن أطال شاربه الكث وحلق لحيته وتعلّم شرب الخمر على موائد المسؤولين، وتعلم لغة الحزب الجديدة باستخدام كلمة (رفيقي) بديلا عن (أخي).

كان مؤشر اللون في أطوار الجمهورية في ارتباك وفوضى واضحين، يتناسب مع تقلبات الأطوار الثورية العنيفة، حتى في موجة ألوان الجداريات الصاخبة والساحات العامة وصور الفوتوغراف بالقطع الكبير، وإذ يظهر رجل السلطة الأول في عقد الثمانينات بالسيجار الكوبي

واليشماغ الأحمر مشغولا بحملات جني محصول الحنطة والشعير في الحقول، أو على قمم جبال كردستان في موجة لونية هائلة ستترك آثارها في بلاغة المشهد البصري السياسي وتأثيراته على سايكولجية الإنسان الخارج من فلك الملكية.. ففي عهد الجمهورية في طورها الأول ثمة إشارات لونية متغيّرة طفت على السطح الجمهوري المتشكل، تبدأ من الجداريات الملونة أو ألوان أزياء الطبقة الحاكمة (بذلات القيافة/ العرضات) ولا تنتهي بالجداريات الزيتية الملونة والعملاقة أو البث التلفزيوني الملون وفق نظام لوني خاص (سيكام) سيكون سببا في إصابة ذات الجمهورية بفوضى اللون.

* * *

إن الأزياء عيّنة دقيقة على اكتشاف ما يختبئ تحت الحقبة التاريخية، مستوى التحضر والخط البياني لمستوى التمدّن في (التأثير والتأثر).

إن النظر في صورة فوتوغرافية اُلتقطت بالأسود والأبيض، حيث تحتوي الصورة على مجموعة شخوص يسعون لإدراك فترة التقاط الصورة، تُقلب الصورة على القفا، وإذ يتعذر معرفة تاريخ الالتقاط، يُذهب إلى تقريب زمن الالتقاط عند التمعن في هيأة الزي الذي يرتديه أصحاب الصورة، بذلك يدخل الزي في إعادة إنتاج التاريخ القريب أو البعيد وفق معطيات مادية لهيأة شخوص الصورة وأزيائهم. أما العناصر الجمالية الأخرى فتلك خاصية مهمة في مستوى التذوق ودرجة تحضره، وعلى ما تقدم فلا يمكن لأحد أن يرتدي البنطلون الأحمر مثلا مع القميص الأخضر ما يسمى بـ(الشذوذ اللوني) أو ما يسمى بفوضى

الحواس أو التلوث البصري، بذلك سيُنحر عنصر الجمال ويفسد الذوق العام ويذهب الحجب والقناع معا.

حكاية: جارلس رسمي

في بداية عقد السبعينات وفي طفح سيل المد الجمهوري في طوره الثاني وبداية الثالث.. ظهر أمين بغداد وهو يشن حملات احتجاجية حاقدة على كل من يرتدي البنطلون «الجارلس» موضة عقد السبعينات، وكل بنت ترتدي التنورة (الميني جوب)، عمل مع فرق إجرامية منتخبة على شق نهاية البنطلون في الشوارع، وقامت الفرقة برش الصبغ على تنورة البنت، أو صبغ السيقان وقص الشعر الخنافس بطريقة الأكس أو عمل شارع في الرأس.. إذ اعتبر السيد سمير الشيخلي ذلك ترويجا للاستعمار الامبريالي، وبذلك أصبح وزيرا للداخلية برمشة عين.. كان خير الله طلفاح خال السلطة هو المحرك الخفي لتلك الحملات الجنونية التي تعود عليها الذوات وسط تلك الفوضى. والشيخلي هذا مكتشف قبلة الرئيس، أي تقبيل الرئيس من ثديه.

إذن ما هو البديل؟ البديل هو التشبث بالأزياء العربية والإسلامية.. ما هي تلك الأزياء؟ لا جواب مع موجة عارمة من المبالغات في الذهاب إلى أقصى الموديلات في فنون الاستعراض وكأنها موجة احتجاج عارمة على السلطة.. حيث ظهر الرمز اللوني في بدلة العنق الخضراء والقميص الأخضر كدلالة سياسية.. وبالمقابل كان اللون الأحمر المناوئ للحزمة اللونية الخضراء أيضا دلالة سياسية أخرى.. الألوان تتصارع ليس في إطار اللوحة الفنية حسب، بل في الشارع الجمهوري.. حتى شكل الشوارب (من الهتلرية/ الباشوية إلى الشباطية، نسبة إلى

الثامن من شباط عام ثورة البعث في 1963)، فتسريحة الشعر الطويل (الخنافس) وشكل الزلف الطويل تحت مستوى شحمة الإذن، مع بدلة السفاري ولفة الجريدة ووضع القلم في جيب الكتف الصغير..

الذات الملكية ذات مدنية، أو طامحة نحو التمدن وتحديث منظومتها الثقافية وفق التطلعات العالمية والعصرية باتساق عالٍ.. وهي بهذا ذات هادئة متحضرة تتأثر بتقاليد المدينة وتنصاع لشروطها، ليست لها خصومة حادة مع الحكومة إلا ما يتعلق بالحياة اليومية وتوفير الخدمات، بينما ذات الجمهورية فهي ذات ريفية، رغم أنها ارتدت أزياء المدينة قسرا وأبقت على العادات الريفية كنمط معيشي بيئي يتفاخر به ابن الريف الذي ريّف المدينة أو حاول في ذلك، بدعم من السلطة وهي ابنة الريف التي استولت على تقاليد المدينة، إذ تذهب الذات المتريّفة إلى جذرها الأول إبان أيام الجمع والعطل الرسمية أو عندما تضيق حلقة الاقتتال حولها أو محاصرتها.

إن الحداثة وفق منطق الأحزاب التي هيمنت على هرم السلطة آنذاك كانت تعني إبقاء العادات والتقاليد(الأصيلة) كتراث فاعل وأصيل، وارتداء الأزياء الغربية في المدينة ليس إلا محاولة كولونيالية، بمعنى أن الحداثة إذا كانت غير ذلك فهي واحدة من حلقات الامبريالية العالمية والاستعمار العالمي الذي لا ينسجم مع فكرها.

إذن فهي ذات منغلقة على محيطها العربي القومي أو الإسلامي بقوة السلطة، وما المدينة بالنسبة لها إلا فرصة سانحة للمكوث في ربوعها وإخضاعها بالقوة لمتطلبات المزاج الريفي.. وتعتقد إن الريف هو الأصل والمدينة زائلة.

إن الأفندي التقليدي هو زي غربي وَفد إلى مدن العراق المركزية في ملوكية القرن العشرين يصاحبها ثقافة أوربية، وقد قال عنهم لونكريك (الأفندية انتشروا في الولايات المدنية الثلاث.. بغداد والبصرة والموصل) مع المحافظة على نمط لغوي ينتقي مفردات أجنبية كدالة الأفندية، ثم ظهرت فئة أخرى يذكرهم الدكتور علي الوردي في اللمحات يسموّنهم (بأهل الجيب)، هم في صيرورتهم الأولى حلقة قبل التحول إلى مرحلة الأفندية، فيما الزي العربي الذي يتمثل بالزبون أو الصاية والدشداشة هي سمات نمطية الأزياء الشعبية للفقراء وهي المعتاد مشاهدتها في السوق والشارع والعمل، فيما مؤسسات الدولة ودوائرها تقتصر على زي الأفندية بوصفه الزي الرسمي لذات المملكة ولجمهورها من الموظفين أو طبقات عليا أو رجال الصحافة والمثقفين وصولا إلى كتّاب العرائض.. بمعنى انحسار الزي الشعبي وهيمنة أزياء العصر الكولونيالي المصاحب لطور الملوكية المتقادم..

اللون هو أول إشارة رمزية على الاختلاف المقصود، بل هو الدالة المحلية على إعطاء سمة وطبيعة المكان وتاريخ المرحلة ونمط الأجواء وطبيعة المناخ.

إن التمثّلات اللونية هي بالضرورة ذات أبعاد فلسفية غير ناتجة من حاجة مجردة فقط، إنما انعكاس لضرورة جمالية مرة أو لتطابق طقسي مرة أخرى أو لضرورة حسية أو تأثير معتقدات دينية بعينها أو تأثيرات مناخية أو جغرافية تتطابق مع البيئة المكانية، كذلك طبيعة العمل تدخل عاملا في تشكلات الزي وطبيعته، ففي الحي الصناعي أو المعامل الميكانيكية تجد لون بدلة العمل الزرقاء القاتمة، كذلك تجد البنّاء

والعاملين معه يرتدون الألوان الصحراوية. إن طبيعة اللون الأبيض تفضل في الصيف وتحديدا في الجنوب العراقي في المدينة أو الريف بعيدا عن حاضنة الصحراء، هو حاجة ليست جمالية مجردة بل هي نتاج مهيمن لتأثيرات البيئة، في تناغم وانسجام لوني مع الطبيعة ومتطلبات المناخ، مثلا تكون (الدشداشة البيضاء) تحت أشعة شمس حارقة مكيّفة هوائيا مع الريح، هي تكيّف منطقي يتواءم مع طبيعة الطقس الجاف. كذلك الصحراء تنتج ألوان الشحيحة، وهي ألوان تكنى صحراوية وفق مسميات محلية كالصحراوي والبهاري والململ.

كانت المصابغ إلى زمن ليس ببعيد يحتل فيها اللون الأسود والكحلي مرتبة متقدمة، وهما المهيمنان على طبيعة الطلب، (دشداشة صبغ النيل) الأغنية المقامية التراثية أو القميص الجوزي في أغنية سعدي الحلي. إن حائك البسط اليدوية يخضع منظومته اللونية لذائقته الجمالية البسيطة ومرجعيته الثقافية في إدراك فلسفة اللون في تأثيرات الطبيعة وثقافة رمزية اللون الميثولوجي.

الذات العراقية تنسطل تحت تأثير سحر اللون الحار، فـ(الملابس الداخلية الحمر) تترك سحرها على هوس المسحور، كذلك نوع القماش القطني أو الصوفي أو الحريري تعطي تأثيراتها، تدخل فيها درجة حرارة الأجواء في تكوينها، كذلك الألوان الزهرية البراقة والوريقات المشجرة على مساحة حمراء هي واحدة من قوة الجذب الجمالي للمرأة في أمكنة ذات بعد بصري واسع. المرأة في الريف تميل إلى الألوان الحارة التشجيرات والأوراق الخضر والأزهار الحمر عند امرأة الأهوار وبنت الريف دون سن الأربعين، وبعده سيكون اللون الكحلي أو الأسود في

غالبه كدلالة حزن بكائية منمّطة تعبّر عن فقدانات متلاحقة، كذلك اخذ لون الزي المدني صيغ تعبير دلالية ولازمة ذات ثبات، بعض الحركات الحزبية والفكرية والنضالية اتخذت اللون الأحمر رمزا تمارسه في مواسم الظهور المدني وغيرها، فالبعض اتخذ اللون الأصفر رمزا للظهور الإحتفائي أو الاحتجاجي كذلك اللون الأسود والأخضر سواء كان قبعة أو ربطة عنق أو قطعة قماش مشدودة على الرأس أو ما شابه، فتلك صيغ اتخذت التشكيل اللوني حيزا تعبيريا مرتبطا بفكرة أو أيدلوجيا ما..

إن العقلنة اللونية هي ضرورة فرضها الالتزام الواقعي ونسق المنظومة الثقافية والمجتمعية والدينية، إن ألوان الهيرموني المتدرّجة في الزي الوظيفي الرسمي هي خاصية هيمنة واحترام رمزية الدولة.. كان الشخص الأفندي في ستينات القرن المنصرم وبالأخص المثقف يرتدي المعطف الأسود والقبعة الإفرنجية السوداء ويدخن الغليون مثل شخصية عبد الرحمن في رواية بابا سارتر كان هو الزي السائد بامتياز آنذاك، كذلك دخلت العقلنة على زي المعلم كنموذج ملتزم ومحافظ فيكتفي بالقميص الأبيض والبنطلون الرصاصي الذي يتلاءم مع غبار الطباشير، كذلك البدلة الزيتونية سمة التحزب في حقبة قاسية من تاريخ العراق. فقد أنتجت مصانع نسيجية محلية وأجنبية ملايين الأمتار من اللون الزيتوني. حتى تحولت إلى هوية المتحزب أو هي إعلان حزبي متحرك أو صورة الرعب المتحرك على مفترق كل منطقة سكن أو بلوك. بالإضافة إلى البدلة السفاري في الأعياد والسفر والمناسبات الوطنية المتعددة. اللون الزيتوني يتمثل في القمصلة العسكرية الغامقة مع بنطلون من نفس اللون، أما السفاري فهي بدلة من قماش بلون قريب من

الألوان الخاكية وإذ يكون القميص فوق كمر البنطلون وهي بدلة وافدة من الصين لقادة العمال والنقابات.

أما الجامعة العراقية في عهد الجمهورية، فقد اكتفت بالزي الموحّد للذكور والإناث، السترة الزرقاء للذكور والبنطلون الرصاصي أو التنورة الرصاصية للإناث والقميص الأبيض وترك الهامش البسيط لحرية الفصال وربطة العنق واختيار الموديل المناسب، وكان التشدد في أبواب نظام الكليات قاسيا في إرغام الطلبة على ارتداء الأزياء الموحدة وفق أيدلوجيا التوحيد الأزيائي وردم الفوارق الاجتماعية.

إن أفول سحر المدنية في المدن العراقية المعاصرة جعل ظاهرة الانفلات من ضوابط التحضّر هي السمة الغالبة، فالدشداشة تحولت إلى الزي الوطني أو الشعبي الذي يتيح لمرتديها النوم ثم الخروج بها إلى الشارع بل والسفر إلى أمكنة بعيدة تحت هيمنة فكرة ما تسمى بـ(الزي العربي) وهو إشكالية لازالت قائمة في مرجعيتها.. ويتعدى ذلك إلى ارتداء أزياء رياضية والتنزه بها أو الاستعراض وحتى السفر وهي أيضا من إرهاصات التخبط الحضري وضوابطه التي لم تعد ملموسة على الأرض. حتى السروال انتقل من بيئته الجبلية إلى مناطق الجنوب لضرورات وغائية جماهيرية تقليدية في سماتها الكبرى.

المدينة حاضنة تحديث ديناميكية وقابلة لتطوير الأفكار والرؤى والجماليات التشكيلية، فالحس الجمالي في فرز مجموعة لونية محددة دون غيرها لارتداء أزياء مثيرة بابتكارات ذات صفات بهرجة في المنحى الدلالي المثير، بعكس ما يحدث في البيئات المجاورة للمدينة الريف

أو الصحراء التي تختزل اللون وتكثّف المعنى الجمالي بألوان اقتصادية لا تثير المنحى التخيلي أو واسعية الطيف المستخدم، إن ابن الريف يكتفي بدشداشة بيضاء في الصيف ورمادية في الشتاء كذلك يدخل في حقل واحد مع بدوي الصحراء المجاورة بألوانه المختزلة التي هيمنت عليها البيئة في طيفها اللوني الصحراوي أو الريفي.. نحن الآن في الشتاء في شهر شباط في السبعينات من القرن المنصرم.. زي المدينة الشائع للموظف هو البدلة السموكر السوداء والقميص الأبيض والربطة الحمراء طبعا هناك استثناءات لونية في خروج الزي عن نمطه ويقع في منطقة الكحلي الرسمي، لكن اللون البيج والأبيض والرمادي المائل للبياض هما واحدة من علامات تمظهر الزي الصيفي لذلك الموظف، فيما طالب المدرسة فيكتفي بالبنطال الأسود والقميص الأبيض ومعلم المدرسة بالنطلون الرصاصي وتكتفي موظفة دائرة البريد في ارتداء الكوستم على شكل مربعات بنية وأرضية البيج الفاتحة وتنورة فوق الركبة وحقيبة يد جلدية متوسطة الحجم بلون الكوستم.. البنطلون الرجالي مرة ينفتح في الحجل ويكون متناظرا مع الزلف الطويل في بداية السبعينات ومرة أخرى ينكمش الحجل وتقل التشجيرات وتخف ألوانها ويختفي الزلف في عقد الثمانينات وبداية التسعينات ويعود بقوة في بداية القرن الجديد.. تصبح الألوان صحراوية مع قميص عريض وبنطلون يأخذ شكل الساق والقدم، وفي كل مرحلة يتربع بنطلون الكاوبوي للذكور والإناث على قمة الأزياء عندما يحافظ على ألوانه ونوعية القماش وطبيعة فصاله.. تلك نماذج قد أعدت من مجموعة صور وربما لا تتطابق إلى درجة الأرجحية والتعميم اللوني والزي لكنها

تصح إلى درجة كبيرة متوافقة.. إذن من هنا نستطيع اعتبار لون الزي المديني مرتبطا بحركة التطور العالمية، حتى وإن تأخرت أخبار الموضة لسنين فإنها ستصل وكأنها طازجة حالها حال المدارس النقدية الغربية التي تنتهي في الغرب وتبدأ لدينا..

إن الجارلس كموضة البنطلون المديني والقميص الزهري الذي يأخذ شكل الجسم، لقد غطى بألوانه وأكمامه العريضة مساحة واسعة من الشارع في المدينة العراقية قبل حلول البنطال الكاوبوي الأزرق، الجارلس هو بنطال ألوانه صارخة ومن جنس الألوان الحارة يتلاءم مع الشَعر الذي يغطّي الإذن والمعروف بالخنافس.. حتى وأن كانت الأخيرة حشرات أرضية سوداء قبيحة الشكل.. بمعنى إن روحية التأثر بحركة الموضة العالمية قد عملت على إرساء موديلاتها جماعة الخياطين ونفذتها شريحة الشباب في المدينة العراقية، واقتصرت على المدينة فيما بقي الريف محافظا على النسق الشعبي وعدم الاقتراب من أزياء المدينة الدخيلة كتقليد الآباء والأجداد، وذلك سيكون مؤشرا لاستجابة أبناء المدن للتعاطي مع العالم الخارجي تحت تأثير روح العصر.. حتى إن ظاهرة الكاوبوي التي تسيّدت في العالم المعاصر بلونه الأزرق هي ظاهرة تستدعي إعادة النظر في الأزياء المحلية التي كانت مهيمنة في فترة ما قبل الانفتاح العالمي وأصبحت الكاوبوية دالة العصرنة والعملياتية اليومية خارج المكاتب المغلقة بل يتعدى ذلك إلى التعاطي مع العالمية بروح معاصرة.

إن لون الزي الوافد كموديل يتعرض إلى اختبارات لونية تنسجم مع سايكولوجية الألوان المقبولة في المدينة العراقية، ترتبط باستجابة

مشروطة لنوع القماش المحلي أو لصعوبة وصول المواد الأولية، فاللون سيقترب من محاكاة الألوان العالمية دون النظر لجودة القماش.. لذلك برزت ذات جمهورية بموديل عالمي.. البنطلون الجارلس.. هو موديل عالمي له ما يميزه من القماش المناسب، ولكن في ذات الجمهورية المتحولة للتو، تجد إن قماش الديولين الخشن والذي صُمم للستائر الثقيلة سيكون مادة بديلة لقماش الجارلس العالمي.. حتى بعض أقمشة الستائر المشجرة والمزهرة كانت مادة مستعملة بتشوهات كبرى في أزياء مدينة الجمهورية..

في الأزياء النسائية تظهر وتختفي الموضة الموسمية المتمثّلة في أزياء مستوردة إبان حقبة الجمهورية العراقية، فعندما تبرز التنورة الغجرية وهي متشكلة من سبع إلى عشر طبقات يختفي الزي الهندي أو التنورة الصحراوية أو تنورة الميني جوب، وهكذا تفرض تقليعات الأزياء العالمية بشكل أو بآخر نتاجاتها على المدينة العراقية بقسرية التقليد والمحاكاة وليس بروح التعاطي العملي. وقد تكون تحولات الأزياء النسائية وحركتها في الانتشار أكثر من حركة انتشار الأزياء الرجالية..

إن دراسة اللون في اللوحة يتحول إلى مادة علمية تتعلق بفيزياء التراكيب ومديات الانسجام أو التنافر في فراغ التكوينات، غير إن دراسة لون الزي يحتاج إلى دراسة البيئة المجتمعية وما يرتبط بمزاج جمهور الزي قبل تحليل شبكة العلاقات اللونية.. سينتقل الزي في حقبة الجمهورية لمراحل تطور مهمة من التضاد الحاد في الزي مثل القميص الأبيض والبنطال السرج الأسود، وهي ألوان عابرة من الحقبة الملكية، تنتقل إلى التدرج الخجول في اللون مثل القميص الرمادي

الفاتح مع البنطال الرمادي الغامق أو الكحلي مع الأزرق ألسمائي أو البيج مع البني مع شبكة التقليم والمربعات السائدة آنذاك.. وتلك تطورات لونية أصبحت ظاهرة تعم الطبقة الوسطى/ والأخيرة هي التي تعطي ديناميكية مقروءة من قبل الدارس وبغيابها كما هو حاصل الآن، إذ تنعدم خطوط التداخل وتصبح فوضى المناهج عبأ على المتفحص الدارس.. وللأزياء تمثلاتها الوطنية والقومية التي تظهر جلية بالنمط أو اللون في معطف حامد كرزاي الأخضر مثلا أو غازي الياور الرئيس العراقي في حقبة الما بعد مرتديا زيه المحلي العربي.. لذلك سيكون الزي بألوانه فاعلا في التاريخ المدون ومهيمنا في كشف المستور في الحقب التاريخية المعقدة.

* * *

خامسا: أزياء داخلية جدا

أصبح الزي الخارجي واضحَ الملامح، منظورا للجميع في تفاصيله ويمكن فتح قنوات للمقاربات والتحليل، وهناك ما يسمى بالأزياء الداخلية، ولا تكتمل موضوعة الزي إلا بفحص الاثنين معا. من باب التعرّف على محتويات الأزياء الداخلية السرية علينا الاستعانة باستدراج مقارباتها لمادة البحث.

وقد عملت شركات الأزياء الداخلية ومصانعها ودوائر التصاميم للموضات العصرية على الأزياء الأنثوية الداخلية، وأهملت إنتاج الأزياء الذكورية الرجالية، والسبب يعود لعدم رواج الأزياء الذكورية في الأسواق بعكس مثيلتها الأنثوية التي شهدت إقبالا من الطرفين.

الحالة الإغرائية في الزي الأنثوي وضع شبكة العلاقات بين العين والزي والمرآة والخلوة في سرية العلاقة غير المباحة للحديث. صنعت لتكن منظورة من الآخر القريب ربما يكون الزوج أو العاشق الحبيب أو الزوجة والعشيقة، وهي أيضا تكون أكثر حميمية مع الجسد لملامسته الدائمة برقّة قماشاتها.

حكاية: خبر

في شباط من عام 2017 سيفتتح رئيس الوزراء البريطاني متحف فكتوريا بثوبه الجديد بعد الترميم السنوي له نقلا عن الـbbc، سيتضمن حفل الافتتاح معرض تجرّد الخاص بفئة الرجال من (22 ـ 55) حصريا. غرابة التجرّد في تجريد معروضاته التي بدت طبيعية لهم وفنتازية لشرقيتي المُحافظة فقط.

فكرة التجرّد قائمة على استعراض تاريخ موجز / مجسّم في دمى بلاستيكية أنيقة و(بوربن) جدا، للملابس الداخلية الأنثوية عبر التاريخ ومشاكسة لثقافة الجندر في تخصيصها للرجال فقط، كالسونات وأحزمة رابطة للجوارب وأخرى للإباحة التجارية منها أو العلاجية الارتدادية أو تلك المعدّة إلى تجاوز صعوبات سايكولجية ليلة الدخلة.

قمصان نوم متجرّدة من الملحقات، وأخرى شفافة مغرية الملمس كحرير دودة القز، لباسات (كالسونات) جديدة في تطورها لموديلات مختلفة للبدينات أو النحيفات على السواء، كالسونات تتقلص تدريجيا ويخف وزنها ليصل إلى غرام ونصف الغرام، تقلّصت وضاقت ولم تعد تخفي شيئا سوى البؤر الممنوعة من المشاهدة المجردة، مشدّات

الصدر الهرمية أو السترابلس أو تلك التي تضخّم شكل الصدر الصغير، كولسانات بألوان مختلفة وبموضات عدة، منها المخرّمة بالدانتيلا أو الخيطية أو النمرية في جلدها. ثمة انسيابية للمبالغة في التجريد تلك التي لا تعيق بروز شكل المؤخرة وجاذبية تكوينها البايلوجي البارز، أو كالسونات ذوات الريش الناعم تتجمع على تلّة المشكلة الكونية أو الالكترونية التي تفتح بالصفير لها أو بآهة التعجّب أو التصفيق لها لتنزل مرة واحدة.

العالم السري الخفي يتطور ونحن نستهلك ما تخلّف أو رُشح من ثورة الكولسانات في عالم اليوم المجرد من ماديات وحدة الحياء المُحافظة. التجرّد من «جرّد تجريدا» بمعناه اللغوي / اللساني والإزاحة الساترة للجسد كما هي ستارة طبيب التوليد، إذ تخفي ما يستوجب الإطاحة بحرمته الموروثة من ثقل حمل المدينة وحضارتها وخطوط الديانات الحمر، وورقة توت الرجل الأول.

في المعرض ثمة تمثال لذكرى **ماري فيلبس جاكوب** الرائدة الأولى في ارتداء حمالة الصدر 1913 الواقية ليس من أجل الحشمة بل لإظهار مجوهراتها ليس إلا، يقابله في الزاوية الأخرى تمثال آخر مصغّر من الشمع اللحمي **لمارلين مونرو** عارية كما خلقها الرب إلا من كولسونها الشخصي يتأرجح بيدها لتقدمه هدية إلى مدير متحف فكتوريا، من المؤكد سيكون حاملا لرائحتها الجاذبة كبصمة توقيع وحيدة منها. ليس الغرابة في التجرد بل العيب في إخفاء المعاني.

هل كانت فكرة المعرض ضرورية في زمن الاحتراب العالمي وعودة

إحياء التاريخ القديم ونفخ الروح فيه؟ لماذا لم تدعَ النساء لهذا المعرض الخاص؟ لماذا يترك رئيس وزراء بريطانيا العظمى العالم المعاصر بكل التباساته وسوداويته ليفتتح معرضَ فكتوريا للملابس الداخلية؟ وما هو رأي الملكة في المعرض؟ لا من أجوبة في الوقت الحاضر، لكن تحليل فكرة العالم المتحضر ستقودنا حتما لتلمس الطريق نحو معان مستترة لكنها غير سرية بالمرة، انتهى.

إن فكرة الملابس الداخلية النسوية وفق سياقها التاريخي جاءت من شرقنا العصي كما يقول المستشرقون الذين حللوا تاريخنا مثل ما يبتغون. تحديدا جاءت فكرة لباس/ كولسون الأنثى من عالم الفراعنة، المرأة الفرعونية وفق صور المعابد واللقى ومومياء الأنثى النحاسية، وجدت في كالسونها محفوظة كما هي. لكن الصورة أعطت لنا كالسونا طويلا نسبيا حد الركبة كالذي ترتديه أمهاتنا القرويات(كودري) بارد ومريح وفضفاض «ثلاثية الفائدة» ولاستخدامات شتى، قبل موعد غزوة الحرير والحرير الصناعي والنايلون. لكن تطور الأزياء الداخلية هي حتما صناعة غربية.

في طريقة النبش التاريخي والحفر الايكولوجي عموديا وأفقيا على طريقة لعنة **ميشيل فوكو** المغرية تثبت بالملموس المعلن أن جنودا أمريكان في الحرب الثانية أهدوا كولسانات لسيدات المجتمع الانكليزي مقابل مواعيد غرامية، بعدما شحّت اللبسان الداخلية من مخازن لندن أثناء الحرب، ذلك لشحة مادة النايلون الخام في المصانع المحلية عندما سحبته المصانع العسكرية، وقد اشترت الشركات الحربية كل النايلون لعمل البرشوتات لنزول الطيارين الاضطراري أو للمقذوفات الحربية

ومخيمات أزمات نزوح مدنيي المحن. ومثلما شحّت اللبسان الرجالية إبان الحصار الاقتصادي التسعيني في العراق، عندما ارتدى الرجال المحاصرون كالسونات زوجاتهم أثناء العمل، مثلما تخلّص مساجين الأمن العامة منها لعدم إتاحة توطين البراغيث وفيلق القراد الزاحف وريفه فيلق القمل في لفائف قماش اللباس ثم حرقه مع خرق اللبسان المتسخة، إنها قضية محلية فعلا.

شركة ومصانع بيبي دول الصينية الشهيرة وشركة شانتو الانكليزية تسعيان في فتح خطوط إنتاجية جديدة لتزويد مؤسسات الإباحة العالمية purn بورنو وشركة افلام xnxx ذات السمعة العالمية حسنة الاستثمارات العالمية ومنحها المقدمة لمنظمة الغذاء العالمية لمساعدة البلدان الساخنة إبان الأزمات.. قضية أيضا. نشرت شركة شانتو في مجلتها الفصلية بحثا طريفا أعده محررها المتخصص في الاستطلاعات والعينات الميدانية مكتشفا أن الكالسون الأسود هو الإيحاء الجنسي الجاذب والأول في واجهة الاستطلاع يأتي في مقدمة إغراء الرجال ثم يأتي الأحمر في الدرجة الثانية على غرفة مضاءة باللون الأزرق، تغوي الفحولة وتذلها لتجعلها محض جهاز تفريغ النشوة في قدرها الفائر. وفي صفحة المجلة الأخيرة كتب رئيس التحرير مادة طريفة أيضا عن الرجال الذين يصممون على اقتناء كالسونات حديثة في غرفهم أو يرتدونها ليلا كنوع مستحدث لآخر صيحات الأمراض النفسية ولا علاقة مثلية أو جندرية.

عودة أخرى للتجوال الحر في أروقة معرض فكتوريا، الذي سيخصص في برنامجه المزمع لعارضات الأزياء تحديدا لشركة **لانجيري** العالمية التي ستقدم عروضا لأخر صيحات الكالسونات وحمالات الصدور

وواقيات المؤخرات أو ارتداء مؤخرة بولند المطاطية الشهيرة والتي تعطي بروزا واضحا لنحت المؤخرة الجاذبة ودحرا لسليكون زرق المؤخرة الذي اثبت فشله في ترهلها بعد حين. عالم غريب فعلا.. غرابته في تحفظنا الصامت عما يحدث. وللحديث بقية.

حكاية: جيم ميم

قال لي المدعو جيم ميم: اكتبْ... قلت له: لستُ بكاتب، إنما عشتها بالطول والعرض، ولم أك يوما كما أريد لأكتب.. كرر صيحته أكتب: قلت لستُ بكاتب. هذا صاحبي قدري وخلّي، فقد باح لي دفعة واحدة بكل أسراره التحتانية.

كنا جنديين متروكين، ككلبين في المقرات الخلفية لقطعات الجيش، لثمان سنين طويلة مملة كطريق بغداد/ البصرة.. ثمان عجاف كما غنّى لها متقاعدو الحرب المعاقون على تخوت المقاهي. يوما ما وبعد وجبة عشاء عسكرية دسمة، تناولنا فيها بشغف قطعا من لحم الكنغر الخاكي مخلوطا بتراب الوطن الغالي، ونتسامر على حس القذائف العابرة فوقنا، نفتح معا مغاليق الأبواب الموصدة، فكشف لي سرٍّ بغضه للزواج، ليس بوصفه مؤسسة قاتلة للتحليق الخيالي؛ إنما لأسباب أخرى، قال:

- الحياة على هذه الأرض قاحلة يا صديقي مختصرة بـ«وِلِدَ ثم مات «ولم تك يوما «وِلد ثم عاش».

المسكين لم يذق طعم الاقتران بواحدة مطلقا، ولم يتلمس الطريق إليه، لكن خياله الجائع راح يجلب له المزيد من النساء. كانت علاقته بعالم الأنثى من خلال ثقب حفره في مخيلته ليطل وقت ما يشاء. شغفه

المفرط بعالمها من خلال الأزياء الداخلية التي لا تثير له المشاكل والاحتدام والمشاحنات، علاقة جنون وشغف باللباس الداخلي لهن. يشتري قطعة اللباس لجمح خياله في رسم ما تبقى من جسدها المرمي فوق سريره. كل شيء ممنوع ومحظور هنا إلا هذا. اخبرني أيضا قبل اختراع الدمية/ الزوجة الصينية أنه كان قد عملها من القطن ووضعها في غرفته وعندما يطلع إلى جبهة الحرب يخفيها عن أمه، لكن لم يسجل الاختراع باسمه.

في إجازاته الدورية يحلّق إصبع سبابته الأيمن بخاتم زواج مغشوش للتنكر فقط، مارا على بوتيكات الملابس الداخلية النسائية في شارع النهر المخصص لعالمهن، يشتري بمرتبه كل الأنواع والألوان والموديلات والأزياء الداخلية الجديدة من المحظور من عالمها.. مدّعيا أنه يبيعها لنسوة البيوت اللائي يخجلن من شراء الملابس الداخلية من الأسواق.

أي شغف يدفعه للإحاطة بغرائب الموضة والقماشات الناعمة التي دفعته إلى تلك جلب نماذج منها إلى جبهة الحرب؟؟ حدّثني مرة عن حلمه المؤجل، عن حاجته الفعلية للباس داخلي بخيوط متقاطعة، عن قماشة حريرية ناعمة، قماشة مائعة تكون فيها نسبة النايلون متناسقة مع نسيج الميوعة، وطريقة الفصال وطبيعة تطور الزي فيهما خارقة لكل الأخيلة الجامحة. لم أدرك ما يحيّره إلاّ حين وقع نظري على أحداها مؤخرا.. لباس خارق يتأرجح خلف واجهة زجاجية لمخزن الأزياء النسوية الداخلية.. رغم أن جيم ميم يرتبط بمجموعة من هواة جمع الأزياء النسوية الداخلية، يلتقون في حلقة سرية في بيت لأحدهم، يجتمعون كخلية لحزب محظور لمناقشة الرؤى وتبادل ما تطرحه

الأسواق من التقليعات والموضات العصرية في زمن العولمة وثورة الاتصالات والتسوق الالكتروني.

قال لي ذات مرة:

- ليس مشروطا لبس اللباس الداخلي لا وطنيا ولا شرعيا في أزمان غابرة حجرية وكهفية.. أيام ورقة التوت التي تغطّي عورة الرجل والمرأة معا، حتى في ذلك الحين كانت ورقة التوت النسوية أكثر رقة من تلك التي يضعها الذكر.. لكنها تقاليد - الما قبل - ينفذها أولاد - الما بعد - حرفيا بارتدائها من الطفولة حتى الشيخوخة.. إخفاء العورة والمحافظة على حجبها هو الدافع الأساس الذي وضع حجبا مزّينا بقماشات ناعمة لتلك العورة وهكذا وضعت اللبنات الأولى لأزياء داخلية تُكشف خلسة لناظر واحد فقط..

قلت له مستدركا:

- إلاّ أن المعلمين من ذوي مرتّب الدولارين في الشهر، إبان الحقبة الحصارية التسعينية استغنوا عن اللباس الداخلي تماما بل تجاوز بعضهم للاستغناء حتى عن الجوارب أو نصفها السفلي.. المعلمون الأشاوس لبسوا لبسان الزوجات وجوارب ثقبتها الجرذان، دخلوا مجالس العزاء بأحذيتهم وبانت حقيقة الفاقة..

- من الصعب هنا التساؤل عن أهمية الشركات التي تصنّع ملابس النساء الداخلية، هل هي تجارة رابحة توازي شركات عملاقة أخرى في الأزياء الخارجية؟؟ ولماذا يقل شأن معامل الملابس الداخلية للذكور؟ إنه الكم الهائل من موديلات موسمية للشتاء كما للصيف ولليل والسهرة وللعمل والخروج في نزهة الشوارع،

لليلة الزفاف أو الليالي التي تليها.. مناسبات عديدة وموديلات وصرعات وابتكارات وألوان زاهية، بالمقابل اقتصر الأمر لأزياء الرجال الداخلية في يد معامل صغيرة تصنّع نماذج تقليدية خارج أطر الإغراء والقماشات الفاخرة.. حبيشي/ الصقر/ معمل نسيج الكوت القطني/ طرحوا نماذجهم التقليدية -لباس طويل حد الركبة - إلى الأسواق دون النظر بتحديث جنس الموضة وعصرنة الزي المناسب.. مع ملاحظة أن ثمن اللباس الأنثوي يزيد بعشرة أضعاف أو أكثر عن اللباس الذكوري التقليدي..فيما راحت الشركات العالمية النسوية بتحديث نظم ارتداء اللباس الداخلي المؤنث وفق قياسات ومناسبات وطرق إغراء خبيثة، حتى وصلت آخر النماذج الالكترونية ومنها ما يستجيب إلى تصفيق الكفين ليخرط إلى الأرض، منها ما يستجيب إلى صفارة الفم ومنها ما يعزف البيانو أثناء الحركة أو حتى الغناء بأغنية سوقية من نغم (تعاللي انتظرك).. حتى نوع القماش تحول من الحرير الصناعي إلى الدانتيلا المخرم ومن (الساتان الشاشي) إلى الجلد الصناعي المغري.. كانت عناصر التحديث تستجيب لمتطلبات إغواء الرجال للإقبال على شراء الأنواع الجديدة لنسائهم قبل أن تقبل النساء لشراء اللباسات الذكورية التقليدية لأزواجهن.. لنبعد الحديث عن طبيعة الأغراء، لكن سأكشف سر تصميماته التي استجابت إلى مناسبات تحتاج المرأة بها خصيصا إلى التفّنن في الزي الداخلي الأنثوي تحديدا، ليلة الدخلة بما أنها نادرة التكرار، فأنها حتما ستكون ساخنة ومغرية في ساعة الخلع الكبرى.. مستلزماتها الأخرى كانت واجبة لنوع

اللباس المناسب، لباس يزن من أربعة إلى ستة غرامات تحكمه خيوط النايلون الملونة الناعمة لتحجب بؤرة العورة، كما والحال هكذا سيشكّل اللون محورا مهما في التشكيل البصري لمجموعة الزي المتحدة في السوتيان واللباس والجوراب الإغرائية، تأخذ ذات الألوان الموحدة في ليلة الإغراء الأولى..

قاطعني صديقي جيم ميم قائلا:

ـ إن اللباس الداخلي يا أخي للأنثى هو محض فكرة سرعان ما يتيح له الخيال الجامح تركيب الجسد المناسب له، يذكر أيضا أن الطفرات الهائلة في تطور الزي هي التي لفتت نظره نحو دقة وسرية هذا الموضوع.. فيما لبسان العجائز كانت معظمها من قماش «كودري»، تتم خياطته داخل البيوت وبسرية تامة ويحجب تحت الملابس الفضفاضة عندما يغسل على حبل الغسيل.. غير أن موديلات عصرية تطرح نماذجها الجديدة عبر وسائل العرض الفاضحة لحشمة هكذا مواضيع سرية.. اللباس الأخير الذي أكشف عنه الآن هو فكرة خيالية قابلة للتطبيق مستقبلا، لباس من نبات الليف تكون الخروم فيه أشبه بعيون صغيرة تطلق الآهات..

مات صاحبي ميتة جاهلية على تخت المقهى.. لم يشيّعه سوى حفنة من هواة ينتمون للجمعية السرية ذاتها.

***

سادسا: شعبية الأزياء

شعبية ووطنية وعربية وتراثية وفلكورية، تلك المصطلحات

ورموزها التي تدفع بصاحب الزي للدفاع عن فكرة ما يرتديه. مدعيا أن العقال واليشماغ والدشداشة هي من الأزياء العربية التي ورثها من الآباء والأجداد، وغيره يدافع عن القميص والبنطلون و.و.و.

الدشداشة المقلمة والجراوية البغدادية وبدلة الحوذي ومعطف الجوخ والصاية البغدادية وعباءة الرأس النسائية، أما داخل البيت فكان الزي العام في المدن الناشئة متمثلا بالبجامة المقلمة للذكور والنفنوف أو دشداشة الزخمتين وللطبقة الارستقراطية متمثلة ببجامة من قماش السيرة الناعم وفوقها الروب.

الدشداشة بنوعيها تدرج من ضمن أزياء شعبية للدرس الانثوبولوجي للطبقات الفقيرة الجنوبية والريفية، حيث انتقلت كتقليد لنماذج شعبية منذ عهد الملكية العراقية إلى أطوار الجمهوريات الخمس.

وقد عملت السلطة الملكية والجمهورية معا على تعزيز فكرة الزي الشعبي بدشداشة «معونة الشتاء» كموروث ملكي تقليدي انتقل إلى عصر الجمهورية بسلاسة ويسر.. يتم توزيعها على التلاميذ الفقراء في المدارس النائية أو في الأحياء الفقيرة.. دشداشة مقلمة معها حذاء جلد محبب وكرات دهن السمك وحليب سائل محلّى ومواد غذائية أخرى تُعطى للتلاميذ الصغار في حفلات تُنظم لهذا الغرض تحت عنوان معونة الشتاء.

تبقى محاولات القراءة التشريحية لنمط الأزياء الشعبية.. محاولة تجريبية ومبتغى جمالي وحفريات جادة، ذلك لانحسار القراء المشاكسين الذين ينظرون إلى الأزياء كظاهرة معلّقة بين ما هو شعبي وبين ما هو

تجريدي في القراءات الاركيولوجية، وحده القارئ الشعبي وهو يخضع إلى اختيارات الذائقة الذاتية، وثقافة مستخدم الزي كمستهلك نمطي.

إن للحضارة الإسلامية نظرتها للزي الإسلامي الذي يتوجب على أساسها الربط بين جوهر الزي من جهة، وتأثيرات ثنائية المقدس والمدنس، وما الردع الديني بحجة الأخلاق العامة والجواز وعدم الجواز الشرعي، إلا محاولة لكبح الخروج عما تعتقده الجماعات الدينية تجاه الأزياء، إذ تتعلق الأزياء الإسلامية بالطهارة الموجبة للمسلم والتي شرعها الخالق، فللجسد الملفوف أو المحجوب عند الغزالي معنى مغاير للجسد المكشوف على باطنه عند ابن رشد، وفلاسفة الإسلام لهم نظراتهم المغايرة في التفحّص إلى ما أنتجته الحضارة الغربية في الايروتيك الأزيائي، تتحول العين إلى آكلة لحوم في أقصى أعماق جسد الآخر في حالة الحجب الشرعي، فالعلاقة بين قطعة الزي والجسد المَغلّف، هي علاقة جذب وحميمية وإشكالية فكرية تحولت عند ذهنية المفكر الديني إلى قضية شائكة، عندما تشكل لنا بروزات ذلك الجسد بشكل ايروتيكي جاذب منسجم مع المحيط في زمان ومكان واضحي المعالم، تدخل في باب الفسق والخلاعة والسفور. فمرة ترتفع الدشداشة فوق كعب القدم للطهارة في مذهب ما أو تنخفض وفق رؤية مذهب آخر. لتتحول الدشداشة بهيأتها الإسلامية إلى هوية تمظهرية أكثر من علاقتها بالطهر والدنس.

حكاية: كاظم عريبي

برزت ما يسمى بالحملة الإيمانية أبان عقد التسعينات وكان الداعي

لها حامل لواء الجمهورية الصدامية، بحيث أصبح داعية إسلاميا يفلسف الدين وفق رؤية سريالية خاصة به، كما ورافق حملته نشاطا لافتا لنائبه في تنشيط الحركات النائمة في النقشبندية والصوفية وإحياء جلسات الدروشة والمناقب، لذلك أيضا نشطت السلفية والوهابية بادئ الأمر في مناطق شمال ديإلى وقرى صلاح الدين وجنوب كركوك، كما وصلت إلى مناطق الجنوب وإحياء الصلاة الجماعية في الجوامع والتثقيف إلى تلك المذاهب والحركات بقوة وإغراء مادي.

كان كاظم عريبي موظفا فقيرا يعيش في أحياء الناصرية طحنه الحصار طحنا مميتا، وقد فاتحه احد دعاة السلفية للانضمام لهم مقابل 200 دولار شهريا، ومقابل أن يرفع دشداشته فوق كعبي القدمين، وفعل كما ينبغي منه أن يفعل وأطال اللحية وحلق الشارب وكوى الجبهة بحجارة ساخنة، لكن المشكلة حصلت عندما تأخر التموين المالي الشهري، فذهب لهم مهددا بإعادة الدشداشة إلى سابق عهدها ليجعلها ما تحت القدم إن لم يسلموه المبلغ فورا. فرفع شعاره المعروف «الدشداشة مقابل 200 دولار».

الأزياء الشعبية دخلت ضمن النسق السوسيولوجي المواكب للحقبة السياسية الجمهورية في لعبة الإزاحة الأزيائية واللونية وقد تماهت مع المنظور التراثي والديني، فما هو عراقي نخبوي إذن هو عثماني / عراقي بمعنى ملكي أو جمهوري، فيما العراقي الشعبي سيلتزم النسق المحافظ المكلف بالمحافظة على التراث والضوابط الإسلامية، لا يمكن المساس به، إلا ما هو هامشي، فمثلا زي الدشداشة يمكن تغيير الأزرار فيها ونوع الفصال أو نوع القماش

ولكن تبقى ظاهرية الزي وشكله ثابتة فهي من مقدسات الموروث والمحافظة على تقاليد الأجداد.

لا أجد حرجا إذا قلت إن ما يميز العصر الجمهوري هو في هوسه اللوني وشغفه في الانفتاح على الحداثة الغربية، من دون الاهتمام لطبيعة ما يقدمه الزي الغربي من خلافات مع ايدلوجيات الأطوار الجمهورية الخمسة.. ذلك الزي وما يخلّفه من تشوهات مظهرية أو غرابته في طرح ما تستعرضه دور الأزياء العالمية من تصاميم فيها جرأة اللون وإثارة المخيلة والإحساس بالجمال، دون التمعن في الخطاب المضاد لماهية الفكرة التي تختفي خلف مظهرية الأزياء وشكلانيتها وايدلوجيتها المستترة.. ذلك إن عولمة العصر بكل التباس أفكارها، قامت على توحيد الظاهرة وقتلت بسرية تامة خصوصية التفرد لأزياء الشعوب، غير مستوعبة لتطلعات الشعوب على ما هو متجذر، أو تشبثها بما هو تقليدي وصميمي في آن واحد، لتعمّ عولمة الأزياء لسكان المعمورة.

تنتمي مجموعة الزي الشعبي المحلي في العراق إلى حراك الواقع السياسي، انتماءً يضع جملة المبررات السلوكية والأخلاقية لإشاعة نمط بعينه من أزياء تكاد تكون سمة مميزة لشرائح عريضة من ذات الجمهورية، المجتمع الذي فقد هوية زيّه الشعبي منذ البداية، وظل يتخبط في البحث عن هوية زي مشتركة له كخاصية معلومة، متفردا بارتداء تفاصيلها دون العودة للمتاحف التراثية لاستذكار بصمة الهوية العراقية، حاله حال شعوب الأرض التي تتعصب بأزيائها الوطنية والمحلية كواحدة من علامات الخصوصية والتفرد وتمجيدا إلى التراث المحلي، لكن

الصراع كان جليا بين ثنائية الانفتاح/ الانغلاق بين الموروث التقليدي وروح التحضّر العالمي.

إن التقلبات السياسية واندثار الهوية وتهميش فاعليتها كانت تندرج ضمن إرادة الأنظمة السياسية، التي تضع بصماتها على كافة مجالات وتشعبات الحياة، وبضمنها الأزياء العامة موضوعة الحفر والتنقيب لفترة محددة، موسومة بانطباعات فكرة التسييس، لترتقي ضمن أدلجة زي المرحلة السياسية والمحكومة ضمن منظومة فكرية لإشاعة مفاهيم تعكس فكريا اتجاهات وأطر مرحلة بعينها.مع ملاحظة إن شرائح كثيرة من المجتمع العراقي تتأثر بأزياء الساسة والفنانين والنجوم ضمن سياقات معروفة لدى هذه الذات الباحثة عن خاصيتها..

الدشداشة العراقية الذكورية وبضمنها معونة الشتاء المدرسية، هي نمط سلوكي قسري حطمت قيود أسرها من غرف النوم، عندما تكون البجامة المقلمة من قماش السيرة هي صفة العهد الملكي مع الروب الارستقراطي.. الدشداشة بصيغتها التقليدية الشائعة تصبح زيا عربيا في التداول الشعبي، إذ تنطلق هذه الراية الخفاقة إلى الشوارع والأماكن العامة لتطوف الأمكنة المحرمة مسبقا وتكسر قيود الممنوع، وهي متسلحة بدعوى أصالة (أزياء العروبة) والانتماء إليها من خلال شرعية عروبتها وأصالتها وإيمانا بقومية المشروع من خلال مظهرية الأزياء المرادفة لذلك المشروع في زمن الجمهوريات والمد القومي الصاعد، فهي لم تكن فارسية أو عثمانية أو أعجمية، وهنا يصح القول إنها من ضمن مجموعة الأزياء البدوية التي اكتسحت المدينة والهيمنة على أيدلوجية الأزياء الشعبية ذات الخصوصية المحلية للمدينة العصرية، إذ تسجل

القبيلة أول انتصاراتها في غزو المدن واجتياح المنظومة العصرية والعودة بها حيث الخيمة والصحراء والإبل والقهوة المرة والبذخ في المأكل تحت مسمى الكرم والضيافة والاكتفاء بدشداشة واحدة للصيف وأخرى للشتاء، مريحة وفضفاضة تتناسب مع الحركة خلف الإبل أو الجلوس المتكور أو التباهي بها داخل جلسات مضاربهم.

والدشداشة هي ثوب من قطعة قماش واحدة تغطي الجسم عدا الرأس والقدمين وغير مفتوحة ما بين الساقين، في الصيف تميل غالبية ألوانها إلى البياضات ومشتقاتها، أما في الشتاء فتميل إلى الرماد وأطيافه، لها خياطون مهرة في وضع البنجات للذين تتكور كروشهم، كذلك وضع (البزمات) الخاصة في نهاية الأكمام كعلامة مميزة للذوات المتبخترين في الشوارع والأمكنة العامة الرسمية منها الشعبية من دون الاهتمام بماهية هذا الزي وهجينية أصوله البدوية، وهي قريبة جدا من الدشداشة الإفغانية التي تصل إلى ما فوق الركبة وتحتها سروال طويل، ويفضلها السعوديون قصيرة فوق كعب القدم، وفي جنوب العراق تكاد تصل الأرض..فيما الافغان العرب جاهدوا لتقصير الثوب/ الدشداشة كلما وجدوا لذلك سبيلا يناصرهم دعاة السلف الصالح لتبلور لنا نموذجا دينيا من خلال الأزياء الشعبية.

يصبح الصراع على أشده بين حزمة الأزياء الشعبية الريفية والمدنية، تاريخيا كان (الزبون أوالصاية) المفتوحة من المقدمة وتحتها القميص الأبيض واللباس الطويل، بمثابة الزي الشرعي لأبناء المدن ووجهاء القوم في بداية ومنتصف القرن العشرين في العصر الملكي، وتكون الدشداشة بشكلها الحالي هي الزي البدوي/ الريفي الزاحف نحو التهام

أزياء المدن التي تحافظ على البجامة داخل البيت والبنطلون والقميص في الشارع والدائرة والمقهى.

صناعة الدشداشة العصرية لم تكن محلية بل تدخلت الصين بكل ثقلها الصناعي في تصدير الدشداشة الذكورية، مصنوعة في شنكهاي الصينية أو مجموعة جنوب شرق آسيا، مستفيدة من مجموعة النماذج العراقية والخليجية ومعها مجموعة الأفراد (النماذج المختبرية) الذين جرت التجارب على تفاصيل أجسامهم ولتغطية كروشهم وشحومهم وأردافهم المترهلة بفعل وجبات الرز واللحوم الحمراء في موائد ممتدة على مرأى البصر، لينهلوا ما وسعت معدهم المترهلة.. ثم تنتهي التصاميم المختبرية لمراحل إنتاج دشداشة صينية وبهجمة شرسة في إنتاج الملايين منها، لتحصد بذلك مردودات مادية عالية جدا، حتى أصبحت الدشداشة لازمة تقليدية للهوية العراقية المجردة لتلك الشرائح. تكشف مؤشرات الاقتصاد الأسيوية عن المزيد من تحكم العقلية الاقتصادية الصينية في السوق الخليجية والعراقية، ليس زي الدشداشة فقط بل تعداه إلى اليشماغ المرقط الأحمر منه أو الأسود المرقط وصولا إلى اللباس الداخلي و(العرقجين/ الطاقية) ما عدا العقال المرعزي والذي كان عصيا بادئ الأمر، فخيوط نسيجه استعصت على العقل الصيني من فك طلاسمه إلا بأجهزة الحاسوب وبعد حين، كذلك أجادوا في إنتاج الدشداشة النسائية المزهرة والمشجرة وبألوان زاهية من قماش كودري مطرّز جيدها بالدانتيلا الابيض.. هنا نشير أن الصين الشعبية ودول النمور الصاعدة عملت على إتقان نماذج ترضي كافة أذواق المستهلكين للدشداشة العراقية، التي أصبحت هوية زي عراقية، كان الأجدر بأبناء البلد الإفادة من تصنيع أزيائهم بأنفسهم.

جاء البطل الشعبي «شاكر» أيام الجمهورية الخامسة على ما تنتجه الصين من دشداشة عراقية لأهله و(بدافع وطني خالص) ليطرح نموذجه من دشداشة الجمهورية العراقية، ليكتسح السوق المحلية تحت مسمى (دشداشة شاكر)، مسجلا أرقاما هائلة بالمبيعات، بعد أن فكّك بمهارة المحترف رغبات كل مدينة من المدن العراقية المتريفة في فصال وموديل ونوع القماش من (الزبدة إلى الطلسوني)، معيدا الصياغة الجديدة وفق متطلبات كل مدينة عبر شبكة مبيعاته ووكلائه المنتشرين على مساحة البلد، وفق أسلوب مقارب للذائقة العراقية أولا ومن ثم يصدر الإنتاج المحلي إلى دول الجوار الخليجي، محققا أولى انتصارات الذات العراقية في صناعة الدشداشة المحلية والإنتاج التسويقي..

لم تنته المعركة بين الصين ودول النمور من جهة ودشداشة شاكر، فالجنين الاقتصادي الناشئ يتعرض إلى حملة تشويه غير مسبوقة من قبل دولة الصين، إذ تعيد الأخيرة ومجموعة الدول الآسيوية حسابات السوق العراقية والخليجية في منافسة غير شريفة، حتى عادت من جديد لتسيطر على السوق العراقية بطرح نماذج من الدشداشة العراقية/ الصينية إلى نصف سعر دشداشة شاكر تقريبا، مما سبب إطاحة بشاكر وإنتاجه من الدشداشة العراقية/ العراقية، بذلك تنحدر منتوجات شاكر لأسفل السلم، بعد أن يتم سوقه إلى خدمة الاحتياط أبان فترة حروب الجمهورية الباسلة.

تطرح الصين إنتاجها الجديد المخفض من دشداشة الشرق وتحت

اسم مستحدث بـ(شاكر سوبر).. لكن السيد «ج م شاكر» لم يستسلم إلى قدره حتى وإن التحق مجبرا إلى خدمة العلم ليدفع ضريبة مزدوجة للوطن وضريبة الدخل معا، كان يفكر في دعم الدولة اللاهية في حربها، تحت عنوان الاستثمار أو الدخول في شراكة أو المساهمة بشركته وهو يستورد القماش الصيني وماكينات الخياطة الصينية ذاتها لتحسين الوضع والوقوف مجددا على عصره الذهبي في انتعاش سوق دشداشة شاكر الجندي المخذول.

لم يحلم في اليوم الذي ينظم به إلى مجموعة شركات شنكهاي الصينية للملابس العربية وذلك أضعف الأيمان شريطة رفع ليبلات تسمية دشداشة شاكر من الياقة الداخلية للدشداشة الجديدة، إذ يدخل مستثمرا بشركته المحلية لخياطة هذا الزي داخل حدود البلد لتبقى أدوات التحكم الاقتصادية بأوضاع السوق المحلية للشركة الصينية، ومحاولة جديدة للإخوة الشيوعيين الماويين في الصين الشعبية، مضيّقة الخناق على كل منافس لها في تلك الصناعة ذات المردودات الاقتصادية الهائلة، غير إن مظهر السفير الصيني الذي ظهر بـ(دشداشة نصف كم) ليستقبل زواره العرب على أرض السفارة، ما هو إلا ترويجا ذكيا لبضاعة صينية وارتفاع الخط البياني لمبيعاتها لتضاهي بذلك مبيعات براميل النفط المتعثرة بسياسات السوق العالمية وضغوطات الدول/ الحيتان لزيادة الإنتاج وحرق أوراق المرابحة والفوائد المتوخاة من النفط وكوارثه النفسية على المواطن البسيط بعد رفع شعار (النفط سلاح للمعركة).. أما اللباس الداخلي ذو الأكمام العريضة والمناسب للأجواء الحارة والكروش المتدلية والذي ختم لصالح الصين أيضا في العقد

السبعيني والثمانيني إبان العهد الجمهوري وبكافة أنواعه من الحبيشي إلى الصقر من قماش التترون أوالقطن، فقد نافس لفترة طويلة لباس معمل نسيج الكوت القطني بانشوطته المترهلة وبياضه المائل للصفرة.. يعاني شاكر من ضربات قاضية جعلته يترنح، أيضا بفعل الحروب وعملية التموين الذاتي وتعرضه للسلب أثناء فترة خدمة الاحتياط في الجيش ومحاولات ابتزازه المستمرة من الضباط القادة والآمرين نزولا إلى نواب الضباط.. الجسد العسكري اكتسى بدشداشة شاكر مجانا وبكافة الألوان.. فوج دشداشة شاكر يتقدم ويكتسح ويمسك الأرض ثم يتقهقر وينهزم تحت وابل ضربات المدفعية.. وربما كان ونحن لا نعلم والمؤمن بنظرية المؤامرة أن الإخوة الأشقاء في الصين الشعبية هم الذين تدبروا أمر عملية السلب للمعمل المذكور والإطاحة بلباس نسيج الكوت لتنفرد الصين بتصدير ما تحتاجه شعوب المنطقة من لباس حبيشي والصقر والسوبر رغم إنهم في داخل الصين لا يرتدونه، أما لباسنا الحبيشي فهو يتلاءم مع دشداشة شنكهاي/ العربية / السوبر.. وقد حصلت حالات تمرد سرية من المثقفين والمتنورين لعدم تشجيع اللباس الصيني ومقاطعته المقاطعة الاقتصادية القصوى..

هوامش: * في فترة الحصار إبان زمن تهافت الجمهورية في طورها الخامس، تأثرت اللباسات الداخلية بفداحة الشحة الحصارية، ولم تصرف الحكومة اللباسات الداخلية في حصة التموين، فكانت سمة التمزق من الخلف أو المقدمة سمة ملازمة لما خفي للتهوية الإجبارية، ومنها سريع الانزلاق وعدم التحكم في ثباته على شد الوسط، غير أن شرائح كثيرة تخلّصت منه نهائيا وتنفست الصعداء احتجاجا على

الحصار العالمي وعلى مذكرة التفاهم التي لم تضع في تفاصيل الحصة التموينية لباس العائلة لستر الحال وشد الوسط.

كنت حاضرا في معرض بغداد الدولي لسنة 1985 عندما دخلنا الجناح الصيني للملبوسات وجدنا أن البائع ذا العينين الصغيرتين والشعر الأسود اللماع يرتدي لباس حبيشي رافعا ذيل دشداشته إلى أعلى ليرينا لباسه الداخلي، والآخر يوزع الهدايا من الملابس الداخلية على الوافدين للجناح بكيس نايلون كتب عليه (ارتدِ لباس حبشي تنج من...) وعبر مرويّات عراقية خالصة وصلني عن أحد الموفدين إلى الصين لدراسة الماجستير في اقتصاديات السوق الناشئة قائلا: إن شعب الصين هو شعب عمل فقط.. لا يرتدون الدشداشة حتى في منامهم ولا يعرفون كيف تلبس ولكنهم أفضل من أنتجها اقتصاديا، الصينيون يعتبرون منطقة العراق والخليج هي من أفضل مناطق الاستهلاك العالمي ومردودات نفعية هائلة.

حكاية: دشداشة صبغ النيل

في عام 1976 صدر قرار من مديرية المرور العامة بمنع قيادة المركبة بارتداء زي الدشداشة والعقال بحجة معرقلته للسياقة الآمنة، مما أثار حفيظة الكثير من سواق سيارات الأجرة والحمل الذين تحملوا غرامات مديريات المرور بقطع وصولات الغرامة الفورية للمخالفات الصريحة مقابل بقاء شرفهم فوق الرؤوس.

لكن بعضا من سواق سيارات الحمل عمَدَ إلى خلع العقال والكوفية ووضعها تحت مقعده القيادة أثناء الاقتراب من السيطرات وإدخال

الدشداشة داخل السروال، عندما استبدلت الهيأة العامة وأصبحوا مثل نافخي قرب في سيرك غجر روماني. لم يفكروا يوما في التظاهر السلمي أمام مديرية المرور مطالبين بإلغاء القرار الجائر فالتظاهر يعد آنذاك جريمة يحاسب عليها القانون بحجة الإخلال في النظام العام والحزب والثورة، واكتفوا بالتحايل على شرطي المرور بوضع ربطة العنق وأقفالها على ياقة الدشداشة لتأتي إشارة الشرطي بالمرور الايجابي.. لم يكن المطرب يوسف عمر على دراية تامة بصاحبة (الدشداشة النيلي) والتي يدعوها للقيام بها بمعزل عن العباءة السوداء التي تخفي المزيد من مفاتن الجسد واللحم المحلي اللذيذ..

لقد تحايل السادة من مروجي زي الدشداشة الشعبي على رجال الاستعلامات للدخول إلى النوادي والحفلات والمؤتمرات يدعون بأنهم يرتدون الزي العربي ولا يمكن خلع العروبة أو استبدالها ببدلة الإفرنجي الممسوخة، لذلك لم يتحقق قرار المنع الملتبس بقرار العروبة والقومية التي وقفت مانعا ضد محاولات التمدن الإفرنجية، لكن السؤال هنا ما هي هوية الزي الشعبي العراقي عبر التاريخ المعاصر؟ هل هو السروال العريض والدشداشة القصيرة والذي يعتبره الدارسين بعلم الأزياء انه نتاج الأزياء الإسلامية، لماذا توارت عن المشهد الأزياء المحلية؟ ما يطلق عليه بـ(الصاية أو قاط الشيوخ) وهو عبارة عن بدلة أشبه بمشروع الدشداشة ولكنها تختلف بنوعية القماش وتنتهي بشقين قصيرين من الجانبين ومخصّرة من الوسط وتضبط على الوسط بحزام من ذات القماش وبدون ياقة وتحتها قميص أبيض وسروال أبيض ضيق مع اليشماغ الذي يغطي الرأس والعقال الرفيع يؤطر اليشماغ.

لا أرى سببا واضحا لغرائبية زي المدعو الحاج هاشم عامل المدرسة الثانوية بوضع الدشداشة الكودري ببنطاله القصير ويغطي رأسه بكوفية وعقال لتصبح الزي التقليدي، ربما كدلالة شاخصة لسنين طويلة على عمال المدارس.. بذلك قد يحفظون بعضا من كرامتهم وشرفهم بتشبثهم باعتمار الكوفية والعقال فوق البنطال الإفرنجي وعدم تعرضهم لانتقادات إخوتهم المتزمتين والمحتقرين لوظيفة الحكومة، وبعيدا عن المدرسة أجد أمي ترتدي الزي التقليدي أي الدشداشة الكودري السوداء المقلوبة لتمارس طقس التنور الطيني اللاهب مؤكدة على فطرة الرضوخ العفوي لدشداشة النواح والحزن.

* * *

سابعا: زيتون الجمهورية

وسفاري هذه مفردة إنكليزية «Safari» مستعارة من لغة ساحلية، يذهب البعض للقول بأن مصدر استعارة المفردة جاءت من اللغة العربية «سافر يسافر مسافر وسَفْرة»، وقد دخلت الإنجليزية في أواخر القرن التاسع عشر للدلالة على ذلك النوع من السفريات البرية. هي إذن عربية رحلت إلى بلاد الانكليز ثم عادت إلى العربية الأم بمفهوم آخر وفكرة مغايرة.

خيمة وسيارة وبدلة سفاري.. يذهب البعض من دارسي تاريخ الأزياء العالمية أن «ايف سان لوران» المواطن الفرنسي من أصل جزائري وصاحب أشهر تصاميم الأزياء الباريسية هو المصمم الأول لها في العشرينات من القرن المنصرم، ولم تكن الصين إلا حاضنة لها ومطورة لنسختها الأصلية.

في العراق أصبح زي السفاري نظرية الكسوة الإجبارية حزبيا، وبدأت تنحرف عن مفهومها الأزيائي العملياتي للسياحة والتنقيب والسفريات أو الحفريات الاستكشافية البحرية والصحراوية والجبلية أو الأثرية، تحولت إلى علامة التحزّب لدى الجماعات المؤدجلة الحاكمة.

لم يرتدِ رئيس الجمهورية البكرية بدلة السفاري ولم يروّج لها كلباس رئاسي إلا من خلال صورة فوتغرافية وحيدة وفريدة تظهره في مكان ما وهو يرتديها خارج أوقات الدوام الرسمي، لكن رئيس الجمهورية الصدامية كان من أكثر رؤوساء الجمهورية الخمسة شغفا بفكرتها (الثورية) وريادته لها في المنطقة، لقد كان أكثر ترويجا لمرتديها وفق آلية حزبية غير معلن عنها، وما الصورة الشهيرة الأولى له في يوم الانقلاب على السلطة 1968 وهو يرتديها إلا دليلا لعلامة رجال الثورة، ثم ظهرت الصورة الملونة والكبيرة التي وزعت بشكل منظم تظهره في الحقل وهو جالس يحتضن ابنته (حلا) وفي أصابع اليد الأخرى السيجار الكوبي المسمى(الجروت)، وإذ تنتشر بآلية حزبية الصور الملونة الكبيرة ذات القطع المتعددة، لتلصق على جدران غرف الاستقبال في البيوت وخاضعة للتفتيش الحزبي الشهري.

هي الصورة الأيقونية ذاتها في حملة الحصاد الحنطة وبيده منجل الشيوعية العالمية مستغلا إياه بذلك النهج وبتلك البدلة.. ذلك يؤكد دخول السفاري رسميا من الباب العريض إلى القصر الرئاسي الجمهوري في عهد الأخير..

لم تُعمم بكتاب رسمي على المنضوين داخل المنظومة الحزبية، إنما

انتشرت بالتأثر والتأثير الحزبيين من أعلى الهرم نزولا إلى القاعدة في سلم التسلسل الحزبي ثم بالترهيب إلى ذوات العوام القلقة، حيث يأخذ الزي الحزبي مكانه ضمن الأفكار الشمولية التي تدخل المجتمعات بفكرة واحدة طاغية ولون واحد أكثر طغيانا ليكوّن لون وطبيعة زي السلطة وبيان رعبها الازيائي واللوني، وهي أشبه بماركة مسجلة لحقبة الجمهورية في طورها الرابع والخامس الصاعدين بقوة.

حكاية: صبري حديد

صبري حديد واحد من الذوات الذين عرفتهم في نهاية عقد السبعينات وهو شخصية قلقة ضائعة، كان أميّا بامتياز ومن عائلة معدمة فقيرة يعيش مع أمه في صريفة خلف بيوت الحي العصري، لكنه شاب طموح جدا، ومن الطموح ما قتل.

استطاع الشاب صبري حديد الزواج من امرأة كبيرة السن وثرية جدا. بعدما حقق الشطر الأول من حلمه في السكن في بيت مبني من الطابوق، تبقى مشكلته الأخيرة في تحقيق الشطر الثاني من حلمه، كيف يصبح قائدا حزبيا ويرتدي الزيتوني أو حتى السفاري؟ وهو الأمي الذي لا يجيد حتى تكوين جملة واحدة على بعضها. استطاع حديد أن يسلب كل ثروة زوجته، وينفقها في العزائم المستمرة على الرفاق ورجال الأمن الغرباء عن المدينة، واشترى أكثر من بدلة زيتونية وبدلات من السفاري ووضع الصور الكبيرة للرئيس على باب بيته وواحدة على صدره بعدما استطاع معمل نسيج الناصرية وبنجاح من فتح الخط الإنتاجي الجديد الذي يتخصص في إنتاج القماش الزيتوني لثلاث درجات.

رافق حديد الحزبيين في تجوالهم وبسيارته الخاصة للبحث عن المعارضين للحزب والثورة أو تعقّب الذوات المرعوبة لسوقهم إلى الجيش الشعبي أو جيش القدس، هذا كله وهو لم ينتم بعد، حتى انتفخ وتضخم كرشه وأصبح بعثيا أكثر من البعثية أنفسهم.

عندما حدثت انتفاضة آذار 1991 هجمت على بيته كل أطياف المنتفضين ولكنه كان أول الهاربين مع الحزبيين، (متلطّخا بدم المقتولين)، أحرقوا بدلاته الزيتونية في عرض الشارع العام، بعدما أحرقوا بيته، مع العلم إنهم تركوا كل رفاق السفاري وبقوا الليل كله يراقبون صبري حديد زيتوني بالقرب من بيته للظفر به.

* * *

متى يرتدي الجمهوري المدني بدلة السفاري؟ متى يرتدي الحزبي القيادي الزيتوني؟ متى يخلع الزيتوني؟ هذه الأسئلة التي علينا افتراض إجاباتها لاحقا، بشيء من الفحص الثقافي المجرد.

بعد تعّقب تاريخ النشأة والتحول.. منْ ينتقد ومن يخضع الفكرة للجدل المنتج؟ بعد انتهاء حقب الجمهورية في أطوارها المرعبة تلك، يصبح من الإلزام علينا أن نمارس حقنا في تفكيك الفكرة الانثوبولوجية في زي الحزب الموحد. بعيدا عن الضغينة المسبقة، وقد تحول إلى ظاهرة شائعة لسنين. ترى أين ذهبت تلك الأطنان من البدلات بشقيها الزيتوني/ السفاري؟ طبعا هذا التساؤل ليس بريئا، أية محرقة عظيمة تلك التي التهمت كل هذا التاريخ المرعب؟ الزي الرسمي لذوات الجمهورية ينتمون للمنظمة الفكرية الشاملة تشتغل وفق معايير مبتكرة

ومنسقة في تعميم الأفكار في شمولية الأفكار بدءا بالزي الموحد والفكر الموحد اللون. وما الابتكار والتطوير لهذا الزي إلا سمة حزبية للذات المتحزبة.. خصوصا الابتكار والتطوير السلبي فتلك أدوات التعذيب والمحاجر المصبوغة باللون الأسود والأحمر وأدوات التعذيب المحلية من العقارب والفئران، وما فكرة الجلوس على قناني الكولا الزجاجية «مكسورة الحواف» إلا فكرة عراقية أنتجتها الذات المتحزبة.. سمة الإبداع الذي تمارسه ذات الجمهورية تجاه ذوات جمهورية أخرى تعاني من الرعب المحلي.. فذات الجمهورية أما ذات مرعبة بزيها الزيتوني أو مرعوبة ببجامة الليل أو دشداشة النوم.

بين السفاري والزيتوني ثمة مساحة غير خاضعة للتجاوز وغير مفهومة للخارج عن المنظومة الحزبية، فالسفاري تعتبر هي البدلة الحزبية للمدنيين والموظفين والعمال ولقواعد وقيادات الحزب وكوادره ـ انظر فيديو قاعدة الخلد والمؤامرة المزعومة - ترى معظم من جلس في القاعة يتسفّر بالسفاري، لذلك عندما أشار صدام إلى أحدهم مختلف بزيّه قال له: أنت أبو عقال. ماذا كان لديك قبل الثورة؟ بمعنى أن زي الرجل كان مختلفا.

حكاية: سفاري الحكومة

في طور الحقبة الجمهورية البكرية، أهدت إحدى المنظمات العمالية الماوية في الصين الشعبية (300) بدلة سفاري لأعضاء وكوادر عمالية عراقية ضمن وفد الاتحاد العام لنقابات عمال العراق في الدورة التنظيمية التي أقيمت في شنغهاي ولمدة شهر واحد عام1971.. عادت الكوادر إلى العراق.. كان منظرهم وهم ينزلون سلّم الطائرة بأزيائهم

السفاري الموحدة في اللون والفصال، كان منظرا يثير القرف، أكثر من إثارة الإحساس بتلك الأزياء المؤدلجة والتي سترسّخ تاريخ الرعب العراقي في اللون وحركة الزي الوافد مع تنامي ذروة الرعب في حقبة الجمهورية الصدامية.

انتشرت السفاري لدى ذوات خارج نطاق الحلقات الحزبية، ذوات قلقة ضمن قطاع موظفي المصلحة العامة لنقل الركاب في العاصمة بغداد كما وارتدى السفاري مراقبو البلدية ومفتشوها وصولا إلى المعلمين التقليديين. بعدما قدمت الهيأة العامة للنقل الداخلي لكراجات المدن النموذج ذاته للتعميم، فالبدلات الموزعة ضمن الكسوة الإجبارية لغرض توحيد زي العاملين فيها، مع ملاحظة امتناع موظفي سكك حديد الجمهورية العراقية من تغيير أزيائهم التي فرضها التقليد الانكليزي إبان مرحلة التحول الملكية، فضلوا عدم الالتحاق بركب السفاري/ الزيتوني، كذلك امتنع عمال البريد والسعاة عن تبديل الزي التقليدي الذي أرست تقاليده الثقافة الانكليزية العميقة.

بعد عودة وفد نقابات عمال العراق في بداية السبعينات بتلك البدلات واستقبالهم في المطار وهم مبتهجون بزيهم الجديد، حتى أصبحت تسمية السفاري شائعة الاستخدام في المتن الجمهوري المتحزب.

إلا أن التسمية انشطرت مرتين. عندما أطلق عليها نواب الضباط تسمية (القاط الصيفي)، ثم أطلق عليها مرة أخرى موظفو الدرجات الخاصة تسمية (القاط النقابي البهاري).

الخياطون المتخصصون في القيصريات المسقفة أو في شارع الخيام

أو الباب الشرقي قد أبدعوا في خياطة نماذج معيّنة من بدلة السفاري ضمن الموجة الصاخبة للسفاري ما قبل الزيتوني الذي حل كواجب شرعي بعد الدخول الرسمي للحرب مع إيران 1980.. بفتحة قفا واحدة أو فتحتين في موجة صخبه، فيطلق عليها جزافا (بكداشي نص أو بكداشي فُول)، حتى أصبح السفاري كما الزيتوني هوية حزبية محضة لا تقبل الجدل، ينظر إلى مرتديها بكونهم سائرين مع خط الحزب والثورة وموقعين على قرار (200) الذي يحكم على الموقعين بالإعدام في حالة الانضمام إلى حزب آخر.

تبدو التحولات السسيولوجية لمرحلة تجديد الأزياء الشعبية بأزياء ثورية كمرحلة غاية في الأهمية إبان تصاعد المد الثوري في طور الجمهورية الصدامية مع سريان مفعول نشوة الحروب وجعجعة السلاح، فمن الناحية السياسية والاجتماعية وزعت مليونا بدلة سفاري تنتشر انتشارا منتظما ضمن مناطق سكنية شعبية بعينها، وفق خريطة سرية يوزع أصحابها للانتشار بسرية وكتمان، كذلك وزعت بدلات للأطفال (الطلائع) وهي قمصلة وبنطلون بلون سمائي وفيه بقعة لون كحلي لخريطة الوطن العربي واستخدمها الفقراء لاستخدامات أخرى وصل الأمر لمسح البلاطات بشكل سري، وأخرى شبيه لبدلة الطلائع ولكن بلون خاكي وبقعة الخريطة باللون الجوزي وزعت للفتيان تسمى بدلة (الفتوة).

بينما الطبقات العليا من المجتمع قاومت تلك الأزياء والتزمت في لبس بدلات السموكر أو من خام (تو باي تو) مع قمصان ماركة RMC العراقية الصاعدة في ظل الثورة والنهضة الصناعية المتسارعة في الخطة الخمسية للبلد في السبعينات.

كانت الأزياء سالفة الذكر لا تواكب الموضة الغربية المتمثلة في القميص الأبيض ذي الأكمام القصيرة والياقة المقلوبة والبنطلون ضيق الحجل الأسود والرمادي من السرج أو المقدّف أو أبي الشعرة الإنكليزي بخيط من الكمردين. رغم أن الشباب خاصة وطلبة الكليات تمردوا على أزياء الحزب والثورة ولبسوا الجارلس والمارلس (موضة غربية تتكون من بنطلون عريض الحجل) رغما عن انف الحزب والثورة، تعد واحدة من حركات التمرد والاحتجاج الصامتة.

اختفت أزياء الملوكية المتمدنة مرة واحدة كلها لتحل محلها الخاكي ثم السفاري المستورد ثم الزيتوني، وراح الأفندية إبان تهافت الملوكية وصعود الجمهوريات الخمس في الذود عن حصنهم المدني بحركة احتجاج مادتها الإشهارية هو الزي.

السفاري كبدلة عصرية واجبة اللبس، هي أيضا بمثابة بدلة لوقت مستقطع لاستراحة المسؤولين الكبار، في ساعات الترويح وزيارة مسؤول أعلى في بيته أو في مزرعته، او لقضاء ليال حمراء على أنغام الريف والغجر فهم مولعون في هذا الصنف، من الأبوذية والسويحلي صعودا إلى المحمداوي والجوبي وتدوير المسابح الكهرب في اليد والدبكات على رجل واحدة، على ربابة الغجري في المزارع والمطبج كما يكشفه فيديو ل(علي حسن المجيد) في حفلة سرية مسرّبة يظهر الكيمياوي فيها بزي السفاري ولفة من اليشماغ الأحمر وهو يتفرعن أمام الغجريات والعازفين المساكين الذين مكثوا يعزفون حتى في ذهابه إلى المراحيض، في واحدة من حفلات الرعب الرمزي المضمر في التفاصيل.

أفادتنا ذاكرة الجند الخدم وحرس المزارع المأخوذين من مراكز التدريب العسكرية لتأهيل مزارع المسؤولين. السفاريين ليلا هم صورة مطابقة للزيتونيين نهارا تطابقا آيدلوجيا وتماهيا عجيبا، فعندما تخلع الذات الزيتونية المتحزبة المتسلطة وترتدي السفاري تدرك تفوق ذاتها عن ذات الدشداشة المرعوبة وهي مكتوفة اليدين ومعصوبة العينين في معاينة فيديو مسرّب لانتفاضة آذار 1991.

حكاية: ذات نهار زيتوني وليل سفاري.

هناك إشارة ظاهرة من ضمن خطة الماركة الحزبية المسجلة في السفاري والزيتوني، هي في ظهور الجيب الرفيع على الزند فوق الردن، على كل بدلة زيتونية كانت أم سفارية بوضع القلم كفرض واجب في جيب الزند مع ثنائية متناغمة مع تدلّي المسدس (9 طارق) من النطاق على الجنب إلى الركبة، مع شارة ذهبية على الصدر تمثّل صورة الرئيس يرتدي البيرية، مع سجل طويل يحتوي أسماء كل صغير أو كبير في منطقة المراقبة حزبيا أو سيطرة الذات الحزبية، وكل حقل من السجل يؤشر بلون معين يدل على موالاة أو عدمها.. لتكتمل الذات الحزبية المؤطرة وهي ذات حزبية غير مجترحة لغاية اليوم. يستخدم القلم لكتابة التقارير السريعة والمسدس واضح الاستخدامات.. طبعا هناك من هم لا منتمون غير حتميين، هؤلاء نتاج ذات الجمهورية فهم لم يدخلوا خانة التحزب الرسمي، لكنهم متطوعون لخدمة (الحزب والثورة) صباحا ومساء من دون توصية، يقولون: التطوع الذاتي لخدمة ثنائية الحزب والثورة هو من شيمة أهل الغيرة والنشامى.

تراهم يرتدون السفاري الخجولة بألوانها المتصحّرة، كان عليهم مغازلة قميص سفاري على بنطلون من لون آخر حتى تتم الترقية ويذهب في اليوم الآخر لخياط السفاري الذي سينظم إلى قافلة المنتمين الإجباريين مع جوقة القمّاشين وبائعي الأزرار الزيتونية والخاكية. تحول البلد تدريجيا في ظل الجمهورية الصدامية إلى لون خاكي يميل إلى الصحراوي ثم تدريجيا مع العنف والحرب إلى اللون الزيتوني: (كلكم سفاريون.. زيتونيون وإنْ لم تنتموا) شعار مرحلة الزيتوني التسعيني قبل تاريخ المحرقة الزيتونية العظيمة الأولى في1991.. ثم تاريخ آخر للمحرقة الكبرى والأخيرة والنهائية في نيسان 2003.

حكاية: صورة ست قطع

يعتبر ذات الجمهورية الصدامية، المروّج الأكبر لبدلة السفاري حيث طلّ في أحد المؤتمرات القطرية متبخترا بها مع كادر الحماية، كما وكررها مرة أخرى عبر ترويج الصور المقطعية الإلصاقية صورة فوتوغرافية (ست قطع ـ قياس 3×4) والتي طبعت في ألمانيا الشرقية، الأنف والشفة العليا في قطعة رقم أربعة والشعر الأسود في القطعتين الثانية والثالثة وهكذا، تصلح لغرف الاستقبال والقاعات الكبيرة وجدران استعلامات دوائر الدولة وقاعات الاحتفالات والمناسبات الوطنية.

خرج الرئيس متبخترا كعادته في أحد أيام الجمع وهو يرتدي السفاري ليمارس الحصاد اليدوي لحقول الحنطة في ناحية العلم، التقط المصوّر الخاص له صورة ذكية تظهر فيها تفاصيل مهمة من شكل

البدلة السفارية الصحراوية الأولى مع لفة اليشماغ الأحمر والتي ستكون فاصلة مهمة في تاريخ السفاري الحزبي في مرحلة متطورة من مراحل الأزياء الرجالية العراقية منذ سبعينات القرن المنصرم ودالة بصرية بليغة ومؤثرة على تاريخ الجمهورية الصدامية وأزيائها الثورية.

الماجدة العراقية التحقت بثورة الألوان الحزبية، بركب الزيتوني وارتدت قميصا زيتونيا بجيبين مغلفين على الصدر العالي، مع تنورة زيتونية وحجاب زيتوني وحذاء روغان أخضر لتحجب الأنوثة مع اليشماغ بدلا من الحجاب، حيث باشرت الماجدات في اتحاد النساء من التبختر أمام الرفاق في الأزياء الزيتونية كقطيع من البط البلاستيكي المتبختر بألوانه.

حكاية: خياط السفاري

أول مرة أعثر على بدلة السفاري، ككسوة حزبية إجبارية وجها لوجه عند أحد خياطي المدينة ويدعى (نوري الوطني ـ خياط السفاري: تخفيضات خاصة للرفاق). كذلك وضع الوطني أسبقية للرفاق الذين سيرددون القسم في المؤتمر الحزبي في ميلاد الرئيس.

وضع الرفيق نوري الوطني هذه البدلة/ الكسوة في دمية رجل أسمر في جام خانة محل خياطته في فرع ضيق ورواق مظلم في الباب الشرقي، وقد رفع يده لتشير إلى قطعة كارتون مكتوب عليها (السفاري بدلة الحزب والثورة).

اللون الصحراوي الفاتح بنصف ردن والدمية (ميليكان حزبي) لشخص أسمر وبشاربين على شكل رقم (8) بالعربي، الشخص/ الدمية

في حالة هياج وهو يهتف باسم الحزب والثورة طيلة سنيّ الثورة / الجمهورية.. مات نوري الخياط في واحدة من الحروب بعد أن أودع بقاطع للجيش الشعبي على قاطع العمارة الساخن آنذاك، لم ينفع معه السفاري والدمية الهتّافة.، ثم تعرّض محل الخياطة للإزالة، ذهبت الدمية الخاكية بكل عنف سفاريها إلى المطمر الصحي ولم تؤخذ إلى المتحف البغدادي.

لم تذهب السفاري إلى المتحف المركزي للحقبة الحزبية في الطورين الأخيرين من أطوار الجمهورية كتراث من أزياء احترقت لمرحلة ما. لم نمتلك ثقافة المحافظة على التراث في قبحه وجماله، فالمتاحف الوطنية تحتفظ في كل العالم بأزياء واكسسوارات وأشياء كثيرة لشخصيات عامة لكن روح التدمير الحماسية غلبت على الذات العراقية. عندما تقام حفلة احتراق الزيتوني في الشوارع وفي مطامر النفايات.. فيما يتدرج لون السفاري كلما تدرّج (الرفيق) في الصعود، إذ يتحوّل لون بدلة السفاري إلى اللون السحري الخاص بالدرجة العليا، حتى يصل إلى لون سفاري الدرجات الحزبية الخاصة والمتقدمة، قبل أن يتحول إلى الزيتوني الغامق المتدرّج وصولا إلى لون بدلة الذات الكبيرة..

منذ الصورة الملونة الجديدة بكل محتوياتها وحتى كتابة المفصل الاجتماعي الخاص بتاريخ السفاري، كانت التحولات المادية الظاهرية ترتقي سلالم التجذر لتكون ملمحا اجتماعيا هرميوطيقيا مهما في تاريخ الزي العراقي داخل أسوار المدينة المغلقة لصالح توجهات الفكر السفاري الذي ينحشر بداخله سفاريو المرحلة المهمة من تاريخ العراق.

كان الظهور الأول القادم من الصين الشعبية بسيطا للسفاري، عبارة عن قمصلة رصاصية وبنطلون بلونها وبأكمام طويلة تترك فوق تفاصيل الكمر وبأزرار كبيرة نوعا ما وبلون القماش، أما الجيوب فغالبا ما تكون ظاهرية وكبيرة وبفتحة أحادية من الخلف تشكل رقم(8) بالعربي وترمز إلى تاريخ ثورة شباط1963.. وفي المراحل اللاحقة لتطورات زي السفاري كان يتغير لونها من الرصاصي إلى الصحراوي ثم إلى الزيتوني الغامق وقليل منها من اشتقاقات عائلة فصيلة البيجيات وقواتم سلالة الأخضر للتبرّج بعد زوال الغسق..

الإخوة نواب الضباط وتلكم شريحة واسعة الانتشار في الجنوب العراقي يذهبون لخياطي السفاري في الإجازات الدورية دون أمر من الجهات العليا كما كانوا يصطلحون على الأوامر النازلة عليهم.. والتمشّي قرب الأسواق المزدحمة محاكاة منهم لأسيادهم من الضباط.. يختارون ألوانا وسطية بين البيجيات والصحراويات اعتمادا على ذائقة الأصدقاء العرفاء (المادون) ونوابهم المرافقين لهم في رحلة البحث عن اللون المناسب ويفضل لون (العقلنة الزيتونية) الألوان غير الصارخة خشية اجتذاب تصنيفات جماعة الرصد في الشوارع الذين لا يعرفون شيئا عن شبكة العلاقات العسكرية، الشباب كانوا غارقين في ارتداء الجينز والكتان.. ومن الجدير بالإشارة إليه هو إن واحدا من تداعيات ذات الجمهورية بتشكلّها على نحو مشابه لروح متطابقة مع ذات نائب الضابط في وسطية حياته وتكوين ذاته القلقة، فهو لم يبلغ سيده الضابط، لكنه يرتقي بمرتبة عن الجندي المسكين، مما تسيدت تلك الذات الوسطية التوفيقية في تملقها للأعلى وازدرائها للمادون.

في حرب الخليج الثانية وما تلاها جرى تغير طفيف على التركيبة الظاهرية السفارية.. فقد حوّر رجال التصنيع العسكري وقوات الأمن نموذجا مبتكرا للبدلة السفارية الحكومية الرسمية، يمكن أن يميّز المدراء العامين ومعاونيهم ورؤساء الشعب الخاصة ومعاونيهم عن الفئات السفارية الأخرى، عبارة عن إخفاء الجيوب الخارجية إلى داخل جسد البدلة وإلغاء الفتحة الظهرية وتصغير الأزرار وكبسها بقماش البدلة نفسها وقص الكم إلى المرفق بفتحة واسعة وتصغير مرفق البنطلون من الجارلس إلى الأنبوبي.. مما جعل نواب الضباط في حيرة من أمرهم، هل يستمرون على ارتداء السفاري القديمة؟ أم مواكبة عصر تطوّر السفاري وركب الموجة السفارية الجديدة؟ ونزع السفاري القديمة لتكون ماسحة للكاشي الموزائيك أو خرقة لتنور العائلة، وهم الذين يعيشون من الشهر سبعة أيام مدنية غير قابلة للزيادة أو المساعدة في الظروف العسكرية المختنقة بالترقّب الهجومي المنتظر.. مما عجّل انشطار ذوات الإخوة نواب الضباط منشطرين إلى مجموعتين.. الأولى متمسّكة بسفاري السبعينات الجمهوري الأصلي دون زيادة أو نقصان ومعاونتها بدشداشة قادمة من الصين أيضا واليشماغ الأحمر (أبو النسر الجمهوري) ذي البقعة الحمراء الداكنة، أو بعقال أسود مبروم رفيع بخيط البريسم تماشيا مع حدة طغيان الموجة السفارية أو الموجة الأخرى التي عملت على تحديث السفاري ومواكبة الجيل الثالث لرجال الأمن والمدرسين أو المعلمين الحزبيين وهم ذوات جمهورية تمثل الظاهرة البندولية بشكل جلي وواضح..

مَنْ لم يرتد السفاري والزيتوني في الشارع العراقي إبان اشتداد

أوار الحرب الثمانينية وظهور رعب أيقونة (الجيش الشعبي/ جيش القدس لاحقا).. يكون الإنسان صيدا سهلا لفرق الصيد المتجولة الثابتة أو المتحركة أثناء تشكيل القواطع السريعة.. وكان الأجدر باللذين سحقتهم آلة الحرب وطحنت عظامهم أن يتفنّنوا في لبس السفاري الكاذب، (انتحال شخصيّة أزيائية) وعقوبتها ستكون اقل من موت أو إبادة رجال قاطع الجيش الشعبي أو أسرهم.. تحاشيا لمواقع الصيد الراجلة (ارتد السفاري الكاذب)، مثلما كان يفعل الأذكياء من ذوات الجمهورية المنفلتة في ارتداء السفاري والزيتوني، بذلك قد كانوا (فرقة الناجين) من حرب الثمانين وسقوطهم في الحرب الثانية أو الثالثة جراء القصف العشوائي..

حكاية: بنطلون الأفندي لصندوق أمين البصرة

(لفندي لفندي.. عيوني الأفندي.. الله يخلي صبري.. صندوق أمين البصرة). هل ثمة فن غنائي يوثق لنا أزياء مرحلة ما؟ نعم علينا أن نستنطق التراث الغنائي، بدءا بأغنية دشداشة صبغ النيل حتى الأفندي البصري والقميص الجوزي والبيجامة المقلمة.

إذن تلك أغانٍ مدفوعة الثمن، تقول الوشاية الفنية في البصرة آنذاك لها ما يبررها فنيا، فالمطربة «صديقة الملاية» غنت أغنية السيد صبري مقابل أن يدفع لها البدل النقدي للجندي المكلف ابن أختها في البصرة. أية نزاهة يتحدث عنها التاريخ الفني هذه!

لقد كانت التفاتة رائعة من لدن المطربة الرائعة (صديقة الملاية) يوم أشارت بصريح العبارة، لمنح شارة النزاهة لشخص السيد صبري

أفندي (صندوق أمين البصرة) ذلك الملكي المبجل، الذي لم ينحن لطغيان الليرات العثمانية ولا للذئب البريطاني ولا لمئات دنانير الغواية الجمهورية، وهو الرافض لارتداء بدلة السفاري والزيتوني أو دشداشة الريف أو جبة المؤمن أو صاية تاجر المدينة، إذ بقي محافظا على بصمة البدلة الغربية للأفندي القح بربطة العنق الأنيقة في الشتاء والقميص الأبيض البولستر والبنطلون الأسود بحمالتين، وفي تعاظم أزمة الحر وهبوب الرياح الشرقية على البصرة يكتفي السيد صبري أفندي بلف المنديل الأبيض على رقبته والقبعة الإفرنجية محافظا على ياقة القميص نظيفة من التعرق والأتربة.

أما جمولي الذي أطنبت السيدة كوكب العراق في نزاهته ومثالية تفانيه في عمله فهو موظف حسابات في العاصمة، وقد كان مضرب الأمثال في الأناقة الباذخة وممثلا لزي المرحلة الأربعينية، أعاد جمولي أفندي ملايين الدنانير إلى ذوي التاجر المتوفى في المصرف وعلى شباك الصرف بعد توقيعه لسحب المبلغ ولم يستلمه..أمانة وإخلاصا في شرف المهنة لا يضاهيها في ذلك إلا نزاهة السيد صبري أفندي الرجل البصري أو رديفه البغدادي جمولي. الأفندية عبّرت عن روح العصر في قفزات المدنية والتحضر، حيث تموت ذات الملكية من دون انتماء فعلي او انسجام مع ذات الجمهورية.

***

ثامنا: موضة التغيير

وقد جاء في كتب التراث عن أزياء مدن العراق قديما:

..(ألمْ تسمعْ بخز البصرة.. بزّها وطرائفها فيما تلبس؟ هناك في الأبّلة تصنع ثياب الكتان الرفيعة ناعمة النسج، وفي سوق الكوفة عمائم من القز والبنفسج في غاية الجودة، وقيل في النعمانية والحيرة يصنعون أكسية وثيابَ صوفٍ وطنافس عسلية حسنة، أما في بغداد فهناك إزر وعمائم يكانكي ناعمة ورفيعة ومناديل قصرية وبويبية وصوف تكريت والستور الواسطية. ذلك ما ذكره المقدسي في كتابه من طبعة الإفرنج).

ثمة أقمشة بأسماء المدن وأزياء تراثية أخرى، هل يصح القول أن أزياءنا مستوردة مع القماش ولا من جذور لها؟

في عصر ما بعد 2003 ثمة انفتاح هائل يصل حد الإطاحة بكل ما هو محلي وتقليدي، كل شيء متاح وفي متناول اليد، وفيما يخص أزياء هذه المرحلة فقد حدثت خروقات هائلة للتقليدي من الأزياء، بعد دخول شرعي مقبول للعمامة والجبّة والعباءة الإسلامية والبوشية والحجاب الحنوكي واللعب بارتفاع وانخفاض مستوى مد وجز لكفّة الدشداشة بين الطوائف، حيث وصلت إلى مديات واسعة، منتشرة قرب الجوامع والحسينيات وبيوت الفقراء والقصور الرئاسية ومقاليد السلطة، طغى اللون الأخضر المقدس على الرأس، والوشاح الأخضر والطاقية السوداء والسروال الأسود للقتال المحلي، كل تلك الأزياء مع اكسسوارات أخرى في موجة المحابس الملونة والياقوتية والسليمانية وذوات الشذرة الفيروزية لردع مفاتيح الحسد والمسابح والكلاشات السود والحمر و. و. ألخ. تلك عدة متاحة لأزياء مرحلة التغيير المزعومة، فالانفتاح الأزيائي الوافد سواء من دول الإقليم أو من الهند وإفغانستان كلها تشكل البداية لانفجار مرحلة اللون المرتبك.

أما العراقي الجديد لا يمتلك الجرأة المطلوبة في ارتداء الأزياء الوافدة كالبرمودة والقميص مشلّح الأردان والتيشرتات الحمر أو المزركشة بعد أن حرم منها لسنين، والحل هو في شرائها وخزنها حتى موعد السفر السياحي خارج البلد.

حكاية: قاط الشيخ

يحتفظ المخيال الشعبي المحلي بحكاية شيخ القبيلة الذي سافر فاحصا لمقامه إلى قبيلة أخرى لاختبار تأثير الزي في المجتمع، ارتدى أسمالا بالية فلم يتعرفوا عليه بشخصه ومقامه، مندهشا من فتور الاستقبال والاشمئزاز منه. عندها فقط أدرك ما للزي من مكانة عند القبائل آنذاك، إذ لم يُرحّب به وأجلسوه في زاوية قصية من المضيف، المكان الذي لا يجلس به كبار الضيوف ووجهاء القوم من أصحاب الجاه، بعد أيام عاد الشيخ من جديد إلى العشيرة المجاورة ذاتها، بعد أن ارتدى ملابس الشيوخ المعتادة، استقبلوه استقبالا مهيبا، نحروا له الخرفان وأجلسوه في صدر المضيف، لكنه اخبرهم في آخر الجلسة انه الشخص ذاته الذي أجلسوه في طرف المضيف بالأمس، قالوا له:

- ذلك يعني إنك لم تحترم مكانة قبيلتنا.

- إنكم تحترمون ملابسي فقط ولا تحترمونني شخصيا، في أمان الله.

لو تصورنا للحظة واحدة أجسادنا عُري كما خلقها الله.. عرايا في الشوارع والبيوت وعلى المسرح وفي دوائر الدولة، أكثر عريا من إنسان الكهوف وإباحة أكثر من البورنو الغربي، ترى ماذا يحدث لثقافة التلصص من لذة في رؤوسنا؟ والذهاب إلى بلاجات العري في الغرب

إذ تنتفي حاسة التلصص على البكينيات واللحم الأحمر بعد لحظات من الاعتياد.

ترى وفي حالة العري الكلي، هل يمكن أن تكون قيمة محسوسة للزي المعلّق في واجهات المحال؟ طبعا لا، ستكون القيمة كل القيمة للوشم الذي يزخرف أجساد العراة، غير إن الإنسان القديم كان يزخرف بشكل أو بآخر ورقة التوت التي تخفي عريه بحركة تنم عن رغبة حسيّة جمالية لإنعاش الروح من خلال حركة الأزياء..

من أزياء الملوكية الداكنة إلى أزياء الجمهورية والانفتاح اللوني ثم الانفجار اللوني ما بعد ال2003، ثمة صيحات لتحديث عشوائية الألوان الضاربة في العمق العراقي إبان جمهورية حروبها والتقلبات السياسية في زمن التغيير المزعوم، فمن الطبيعي أن يختل نظام الألوان إبان الحروب والأزمات، فالذات الملوكية المحافظة استفزت وضربت في عمق وقارها، أطوار الجمهوريات الخمس التي عملت على تمزيق منظومة الألوان المعتادة وغير مبالية بالرؤية الحداثية للون، حيث كانت أزياء الرعب الحقيقية إبان الجمهورية الصدامية الخامسة معلّقة في محال الأزياء والملابس الجاهزة، كما ورد في حكاية الخياط الوطني، غير أننا نستمر في فحص موجات الأزياء الوافدة خلال فترة الما بعد2003 لنفحص مستوى التمرد الحاصل على أزياء الجمهورية الصدامية.

اتسمت هذه الحقبة بالتمزق والفوضى اللونية كما أسلفت ولكنها أيضا بدت ملامح الجرأة اللونية للمرة الأولى، كذلك انتشر روح التشظي اللوني والتلوث البصري العميق، تعددت الألوان في أزياء

الشرطة العراقية، مثلما تعددت ألوان العلم العراقي بين الإضافة والاختزال واستطاع المعلم أن يخرج من تقليدية الأزياء ويرتدي على مضض «التي شيرت »الملون للمرة الأولى، كذلك رفع النجوم الخضر الثلاث وإبقاء لفظ الجلالة للخشية واللوم والقدسية المفترضة كما عمّت المدن وعتباتها وطرق النقل الخارجي الرايات الملونة الصفر والحمر والسود، ومثلما طغت موجة الألوان الريفية في المدينة العراقية، في احتفاليتها المعتادة في الشوارع والسرادق والأمكنة المقدسة. ولم يعد اللون الأبيض في الصيف طاغيا ولا اللون الرمادي للشتاء، ذلك ما يؤكد الجرأة اللونية في زمن التغيير المفترض.

إن من دروس علم النفس التركيبي، هو استحداثه لنظرية القناع، التي استخدمت في نظريات النقد الحداثوية للشعر.. وتبدو هذه النظرية أقرب لاجتراح ما أوجبته أزياء ما بعد 2003 في العراق.. عراق ما بعد هذا التاريخ يستحق أكثر من وقفة تأملية ودراسة اجتراحية تفكيكية، لما جرى ويجري ويدور في بناه التحتانية والفوقانية، أما القناع بوصفه حاجزا بين مظهرين، فهو يخفي ما لا يوجب إظهاره، ويظهر ما لا يستحق الإخفاء بقصدية المرور الآمن.

القناع هو إيحاء بما يتوجّب الإعلان عن ستر الضرورة الواجبة للإخفاء، بمعنى تفويت فرصة الرقابة الصارمة لموجبات الظهور الفاضح، ويمكن إزالة شرط الحجب الواجب عندما تتوفر البيئة والفضاء الأكثر سلاسة وطمأنينة، فالظهور السافر هو فضح خارق لتفاصيل يتوجب إخفاء بعض ملامحها لأسباب تقليدية ودينية، مثلا أن الإرهابيين ورجال الحرس الوطني وقوات الجيش على السواء، كانوا

يضعون ما يشبه القناع الذي يخفي الملامح الدالة على الهوية الجسمانية، تلك مفارقة أو هي لعبة الإخفاء المطلوبة آنذاك في 2005 و2006، عندما يتحد في الهيأة الرمزية الصديق والعدو، عندئذ تكون عوامل الخلط وضبابية المشهد ماثلة بشكل كلي بين محورين أحدهما سالب والآخر موجب.. ونجد تلك النظرية هي الأقرب في إدراك التقلبات الطارئة التي جلبتها موجة الغزو المزدوج.. غزو العولمة وثورة الاتصالات الكبرى من جهة، وغزو جيوش الاحتلال من جهة أخرى، أما نظرية القناع فهي نظرية يختبئ الباحث وراءها، ليعبر عن موقف يبتغي تغطيته أو بمعنى ليحاكم نقائض العصر الحديث من خلالها، فيما تتبلور موجة الزي الزاحف بقوة الظهور المعلن والفاضح..

حكاية: لون المعلم المفضل

القميص الأبيض والبنطلون الرصاصي مناسبان لغبار الطباشير أولا ثم ثبات النمط التقليدي في التوجيه التربوي آنذاك، لكن الأمر قد تم تجاوزه واستطاع المعلم أن يرتدي البنطلون الكاوبوي للمرة الأولى، وقد غض النظر المشرف عن هذا التصرف، ولكن المشرفات التربويات قد تدخلن كثيرا في زي المعلمة المناسب. المعلم الجديد أدرك حساسية اللون ومديات التقبل العامة لدى الطلبة أو الشارع والمقهى، فقد عمل على إجراء موازنة لونية (عقلانية) في الزي الضارب للنمط والإبقاء على عقلانية اللون المقبول مجتمعيا. استطاع أحد المعلمين الريفيين من ارتداء البدلة الكحلية في دوامه اليومي، لكنه يرتدي الزي العربي مع اليشماغ والعقال والتقاط الصور في الريف في موازنة ازيائية يصعب التحكم بذائقتها.

الجماعات حققت نصرها في حرية اللعب مع الطقوس بكل جرأة ومبالغة وإطناب، بموجبات ظاهرة التدين المستحدثة للجماعات المختلفة في ممارسة طقس التطرف الفضفاض بعيدا عن جوهر التدين الحقيقي، حتى الصين العظيمة أدركت ذلك ودخلت على الخط في صناعة أزياء الحقبة الجديدة والشعارات والاكسسوارات الواجبة للطقوس، فمن الجلباب الإسلامي والعمّة البيضاء والسوداء والكشيدة الملونة والإيشارب والجبة النسائية الملونة، بدأت هذه الأزياء تزحف إلى الشوارع من دون وازع وتزيد من طلب أزيائها الملازمة في الأسواق، وإذ تسّجل مبيعاتها طفرة نوعية في الأسواق المحلية، تكاثرت محلات بيع الحجاب الإسلامي والعباءة الإسلامية الخليجية والإيرانية، ليس فقط الزي النسوي بل والرجالي أيضا.

لقد كانت الحضارة الغربية تشتغل على إطالة فَنّ المتعة المشتبك بايروسية خالصة في موضوعة زي المدينة والصالونات والارستقراطية الباذخة. تتعلق الملابس من حيث ظاهرها بالجنسانية فيما تبرز إيقونات الحجب والتستر لزيادة المتعة في إطالة متعة النظر للجسد وغواية المخبوء في الزي القامع لسر المتعة، وهناك صراع بين أزياء الحضارة الغربية والأزياء الأمريكية الصاعدة في عبثها وفلسفتها في انتصار الشعبي وثقافته (الكاوبوي) على غيره حبيس الصالونات البرجوازية كصالونات العرض الباريسي لتقليعات الأزياء..

إن العلامة السيميائية المشتغلة في أزياء ما بعد 2003، تحولت بسرعة إلى هوية قاتلة من خلال الزي، الدشداشة البيضاء صيفا واليشماغ الأحمر والعقال الرفيع نسبيا هو دالة الطائفة السنية في

المناطق الغربية، وهو مدعاة للقتل والإبادة من ميليشات مسلحة من الطرف الشيعي، خاصة في سنوات الاحتراب الطائفي 2005 و2006 و2007، كذلك فالزي الريفي الجنوبي المتمثل بالدشداشة البيضاء واليشماغ الأبيض والعقال المتين تستقطب القوة المسلحة من متطرفي الطائفة السنية لقتل وإبادة الرجل الشرقي الجنوبي، إذ يتحول اليشماغ والدشداشة القصيرة وحجم العقال والشوارب دالة الطائفة، كما هو زي المرأة الريفية الجنوبية والمرأة في المنطقة الغربية في اختلاف الزي والعباءة كما اللهجة وسحنة البشرة.

يتحول الزي إعلان حشمة وإشهار وقار وإبرازا لقدسية الظواهر الاحتفالية، كما هو دالة للهوية الرمزية التي تحاول إثبات الوجود ـ كما هو المفترض ـ ، ورغم عنف التعاطي الدال في الزي، لكنه في الخفاء ثمة فجور وايروتيك في الممارسة، والتعريف الواضح المعالم للمستخدم الذي يحاول تصديره إلى المريدين وفق شروط خاصة وسهلة التحقق، كذلك هناك فسحة في الطرف الآخر الذي اشتغل على إشاعة نوع من أزياء الغرب - خصوصا لدى شريحة الشباب ـ وما يصاحبها من مستلزمات الظهور المعلن الأخرى. إن الزي الديني خرج من عزلة قمقمه إلى الهواء الطلق كهوية معبّرة عن الأكثرية تارة وعن الهوية الإسلامية المستلبة ـ كما يعتقد ـ تارة أخرى.

إن لعالم اليوم الانفتاحي ثورته اللونية على مهيمنات لونية موسمية(رجالي - نسائي)، الثورة بدافع حرية اللون ودرجته اللونية الداخلية منسجمة مع حركة اللون في فضائه، بمعنى الأبيض يصلح للربيع والصيف والرمادي يصلح للخريف والشتاء، وتلك نظرية

كلاسيكية في موائمة اللون للطقس، فالأسود اليوم في ثورته الازيائية يصلح لكل موسم ولكل طقس كان حزينا أم مفرحا..

تلك هي أزياء موجة التدّين الشديد التي أذعن لها الشارع المتأسلم وفسح لها الطريق للمرور المحتشم بزيه إبرازا للمقدس اليومي الفاعل، هي رسالة إذن للتجديد والاستعراض المجاني للجمال بكل أطيافه اللونية وخلاعة أزيائه، إن الزي المفروض على النسوة في إيران وجنوب العراق قد شهد احتجاجا ناعما على النمط القامع، تطوّر بسرعة نحو أحقية الطموح المشروع في التغيير. ذهبت النساء إلى ارتداء البنطلون والتنورة القصيرة وإخفاء الرأس بالحجاب وهي إجازة بطريكية ونصف شرعية على مضض لارتدائه.. أما الشباب المتغير أي الذي ركب حقبة التغيير إلى البدلات اللمّاعة والخلاف الدائم نحو شرعنة خلافية ربطة العنق وحلاقة اللحى بالماكينة الكهربائية من عدمه، لكنه لا حرمة على النظارة السوداء للرجال والنساء والميدالية أو المسبحة المرافقة للزي، فتلك من موجبات عصرنة أزياء اليوم، تنسجم مع لون الهاتف الخلوي وأجياله من شركة نوكيا والسامسونج والآي باد.. كذلك اختيار نغمة رنين المحمول وتلك ظاهرة صوتية ملفتة تتمثل بنغمة الاتصال الكاشفة عن التوجه العام (إسلامي/ علماني) مثلما هو الزي..

فيما يرتدي شريحة الشباب المنفلت من قبضة التدّين الواجب، الملابس المرقطة التي جلبتها قوات المارينز والبنطلونات الصحراوية وعصابة الرأس الزيتونية وصدرية الصحافة والملابس الرياضية والأحذية الصحراوية المسمّاة بالبلدوزر وحلاقة الشعر أو إطالته ليس كعقوبة عسكرية وإنما تقليدا للحي الخلفي أو لمعقل السود في

نيويورك. عندما نمجّد الزي العسكري الأمريكي بطريقة فجّة دون أن ندرك مغزى ما نفعل فتلك مشكلة كبرى في صناعة الذات المستقلة ولم ندرك ماهية شيوع الثقافات الشعبية في زمن ما بعد الحداثة.

الملاحظ أنه حتى الكلمات الدالة على الملابس تختلف، ففي دول العالم الثالث يستعمل الناس كثيرا كلمة «كلوثنك» (ملابس)، لكن في الدول الغربية يميلون نحو استعمال كلمة (فاشون كموضة)، مما يوضح أن شباب الحضارة الغربية يطوّرون ويجربون كل يوم أزياء مرحلة لاحقة تنسجم وفق اعتقادهم مع روح وحركة العصر التي باتت تميل إلى البساطة ونبذ البذخ الازيائي.. من مرحلة وضع «ملابس» تغطي أجسامهم إلى التفنن في أنواع الملابس. ويشبه هذا التفنن في مجالات أخرى، كالطعام، إذ لم تعد الكلمة في الحضارة الغربية الصاعدة هي «فود» (طعام) فقط لملء البطون، لكنها أيضا صارت «كويزين»(فن إعداد الطعام). وحسب د. جون ترافيز، مؤلف كتاب (الحقيقة العارية ـ أصل الملابس)، توجد كلمة أخرى تستعمل كثيرا في هذا المجال: كلمة «كوستيوم» (زي)، وتعني نفس الشيء في كل الثقافات تقريبا: نوعا معينا من الملابس يرمز إلى مهنة معينة: زي ممرضات، زي العسكر، زي الشرطة، زي الكشافة..إلخ.

نحن نتفق إن كل الثقافات تقريبا تحصل على مؤثرات تؤثر على طبيعة الزي فاعل الحضور: الدين (حشمة أزياء المتدين وقدسيتها) كذلك العمل في مناجم الفحم لها أزياؤها الخاصة الواقية والثقيلة فيما للايروتيك شفافية الأزياء المصاحبة.. النساء (أكثر تداولا في الجلسات الخاصة وأكثر انفتاحا وتعاطيا للموضة) والأثرياء (البحث عن الأزياء

المتفرّدة بماركات عالمية شهيرة) والمناخ (ملابس الدول الباردة أكثر ثقلا وكثافة). لكن العامل الأكثر تأثيرا هو الثروة والوضع الاجتماعي الذي يرتبط بالمستوى الحضاري والرقي، وخاصة هيمنة الحضارة الغربية في العالم على كل صالات إنتاج فكر ازيائي ذي مقبولية عالمية. بين مؤسسة اختراع الزي ومؤسسة التصنيع هناك مؤسسة أخرى هي مؤسسة الإعلان العالمي عندما (يرتدي الزي شخصية ذات شهرة عالمية) وحسب كتاب (الحقيقة العارية ـ أصل الملابس)، تميل شعوب العالم الثالث نحو الملابس البسيطة، أما لأنها لا تملك مالا لشراء ملابس فاخرة، أو المناخ يكون هو الفاعل (الذين يعيشون عرايا وشبه عرايا في الأحراش)، ولم تعد الملابس ضرورة فقط، بل صارت فنا وموضة وتقليعة للبعض، وترويجاً لتقليعة ما وتصديراً للجمال.

إن حركة نمو الزي وتطوره رغم الطارئ منها بفعل الغزو المزدوج ما بعد ال 2003.. إنما تتأثر باستجابة الجمهور لما تطرحه من تفرد مع غياب ما هو جمالي محلي..إذ تكون الاشتراطات السلفية في ثقافتها هي المهيمنة، ويكون صاحب الزي محكوما باشتراطات واجب التوّفر في معالمها ليدخل (نادي الزي الفاعل) بعيدا رغم تلبسه لنظرية القناع.. أما لماذا اختيار الحقبة الأكثر حساسية؟ فهناك عدة عوامل موجبة، يقف في مقدمتها الغزو المزدوج والتقلبات الدراماتيكية المصاحبة للمنطقة كلها، وكذلك روح تغير نمط الزي للخروج عن التقليد السائد.. كذلك ما يسمى بصخب الحقبة والانفتاح على ثقافات أخرى.. بعد انحسار موجب للحقبة الدكتاتورية بكل قمعها، وبالمقابل حلّت ثقافات لابد من دراسة محتواها الأيدلوجي بين رفض القديم كظاهرة وبين استحداث

ما يوافق التوجه الجديد.. وبضمنه الزي المواكب لطقوس تتكرر على الشارع العراقي..

لقد اجترحنا في القسم الأول من دراسة الأزياء العراقية في عهد الجمهورية المتهالكة خصوصا في طورها الأخير.. مسلحين بنظرية الخفة.. نبتعد في القسم الثاني عن مبدأ الخفة الذي بدأنا فيه القسم الأول من تمثلات اللون في الأزياء العراقية، سنكمل الخطة الكروباتيكية للغور داخل إشكالية البث والتلقي الازيائي بوصفه تمظهرا جماليا ليس إلا، يؤثر في بناء الذات من الناحية السايكولجية، ومن خلال القناع ونظريته في أزياء ما بعد ال 2003.. لأنه صيغة فنية جمالية شمولية لدراسة الظواهر المصاحبة والسلوكيات النافرة.. بعد نيسان 2003 خلع المخربون البدلة الزيتونية (تغير الهوية) لكنهم ارتدوا زي البنطلون المدني أو الدشداشة العربية مع إطالة اللحى.

إن الوقوف على هكذا بنى تحتية وفوقانية لسايكولجية الجمهور، وقوفا لمحاولة إيجاد المفاتيح الضائعة، ثم الدخول لمنجم المجتمع، لإدراك المزيد من مزاجيته العاصفة ذات الحركات الدراماتيكية، إذ تمتاز ضمن ما تمتاز به هي عدم الثبات على فكرة واحدة.. حيث ترتبط الأزياء بالمواسم الأربعة، الزي المطري أو الصوفي الثقيل للشتاء البارد، الخفيف الكودري أو القماش الناعم للصيف اللاهب، والبهاري للربيع والخريف.

إن مفاهيم مثل مفهوم صراع الهوية المحلية وأزياء ما بعد العولمة ما بعد 2003، ما هو إلا كذبة محضة، فلا وجود لملامح هذا الصراع، بل

ثمة مقاربات غير معلنة بين مفاهيم العولمة ومفاهيم المحلية في النظر للتعاطي مع جديد الأزياء، خاصة لدى فئة الشباب.

كتبت صحيفة «هافينغتون بوست» عن ما سمته «هيلاري تراوزرز» أي (بنطلونات هيلاري). وقالت إن وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون آنذاك «تقدم أكبر دعاية للأزياء الأميركية إلى شعوب العالم. لتصدير فكرة الزي ومن ثم يحدث الطلب العالمي عليه، لكن يبدو أن شعوب العالم صارت تعتقد أن كل الأميركيات يلبسن بنطلونات»إذ نشرت الصحيفة صورا لسيدات أميركا الأوليات، من الينور (زوجة الرئيس روزفلت) حتى ميشيل (زوجة الرئيس أوباما). وكان واضحا أن هيلاري (منذ أن كان زوجها كلينتون رئيسا) فضلت البنطلونات. بل كانت أول سيدة أولى تلبس البنطلون في مناسبات رسمية. ثم نشرت الصحيفة صورا وقارنتها بصور وزيرة الخارجية التي سبقتها: كوندليزا رايس. وقالت إن رايس كانت تفضل الفساتين، عكس هيلاري. كما أن رايس كانت أكثر أناقة (ربما لأنها أطول قامة وأنحف جسما، وأجمل ساقين). وربما لأن البنطلونات لا تناسب المرأة الطويلة لأنها تجعلها أطول، هذا يقودنا للبحث عن التصور النسائي للجمال من خلال البحث عن أناقة تقودها شركات ضخمة تعمل التجارب والرؤى عن طرح النماذج الجديدة لآخر التقليعات العالمية.. يظهر مما تقدم الثروة الوطنية غير المنظورة من تصدير فكرة الأزياء وإنعاش الاقتصاد المحلي بروافد جديدة.

نكتشف مما تقدم إن الأزياء منظومة مظهراتية جمالية تعتمد بث رسائل ايدلوجية خفية من خلال اللون وطبيعة الزي، تؤثر في بنى المجتمعات وتدخل في صراع دائم بين الموروث المحلي وصيحات

التجديد العالمية، بين العودة لمحلية بسيطة على ممارسة ازيائية معقدة وباهضة القيمة، ففي كل لحظة زمنية تدخل مضمار المنافسة أزياء جديدة وربما دخلت شركات الأزياء العالمية المصممة أو المنتجة للزي.. وخير ناقل ومروج لبلاغة الزي بكل اكسسواراته وحليّه وتقليعة الشعر المصاحبة هم فئة الشباب، فتى كل المقاسات في الأسواق مصممة لهم.

إن من حقائق الزي وما يصاحبه من سلوك فاضح في الممارسة الازيائية بعينها، سيفرض موجبات المزاج المصاحب.

حكاية: حميد الجندي

حميد كان جنديا في الجيش العراقي إبان الحرب وصنفه سائق، للحرب أزياؤها الخاصة، فعند عودته سالما بالمصادفة المريرة من الحرب، يصاحبها سلوك عدواني في الشارع ومع سائق سيارة الأجرة وفي المطعم حتى الوصول إلى البيت حتى لحظة التطهّر من آثام الحرب، أما سلوكه في طريق العودة بعد ارتداء زي القيافة يختلف المزاج، ثمة زيان للجنود الأول للجبهات يسمى «بدلة عرضات» والآخر خارج الجبهات ويسمى «بدلة قيافة» تكون أكثر سلمية وأناقة وهدوء، أما وضعية «البيرية» على الرأس عند حميد فقد كانت علامة مميزة، ترتفع البيرية عن الجبهة لتصل منتصف الرأس لتسمح له في الرؤية المريحة وهي علامة سائق الحرب.

نستنتج تحت ظل نظرية القناع إن الأزياء لها قدرة على تحريك المجتمعات تحت مرفق السلوكيات المصاحبة إلى مناطق سلوكية لهي غاية في الخطورة في إدراك تلك السلوكيات النافرة وغير المدركة إلا

من خلال دراسة الأزياء تحت نظرية القناع، وكما قلنا في القسم الأول أن الأزياء هي التي تفرض هيمنة من نوع خاص على صاحبها في الالتزام بحيثيات الطبائع المكتسبة من الملبس بوصفه الهوية المؤقتة التي تزول بتغير هيأة الزي ولونه، بمعنى التأثير على خطى السلوك المصاحب، وروحية الزي الحزين أو المفرح، سيحدد الحركات المصاحبة لصاحبه، وهكذا ندرك كيف يتصرف الضابط عندما يرتدي الزي العسكري متبخترا بعصا القيادة في ساحة العرضات، هو ليس على الروحية ذاتها داخل مطبخ بيته أو على سرير نومه..

إننا نعيش في فترة انتقالية حادة ذات منحى مفاهيمي ـ إشكالي، هو الأقرب لما مر به البلد في فترة تأسيس الدولة الحديثة عام1921، مثلما ظهرت أزياء وافدة في سنوات التأسيس الأولى، ظهرت مبررات لأزياء وافدة أخرى ما بعد2003، بحيث يبدو أن كل احتلال يجلب ضمن ما يجلبه للبلد ممكنات من الأزياء المرافقة بقصدية دقيقة، لذلك فإن مقولة عصرنة الزي أو ما يقصد به موضة العصر ما هي إلا سياسة خفية لإدارة العالم في مستواه الظاهراتي، تقف خلفه مؤسسات وشركات عملاقة لتسويق فكرة ما، أو تطبيق أجندة معينة بقصدية ذكية يراد من خلالها تحريك الاقتصاد الراكد والهيمنة الاقتصادية العظمى، والأمثلة هنا ملموسة من شركة اديدز للإكسسوارات الرياضية إلى كوكا كولا إلى شركة نايكي للتي شيرت والحذاء الرياضي إلى روترنك للقرطاسية إلى شركة جنرال اليكترك للسيارات، وتلك شركات عملاقة تقف خلفها أفكار اقتصادية عظمى.. تقترب من فكرة تصدير الزي إلى شركات مؤسسة تعمل بجد لتصدير الأفكار وتحريك النمو الاقتصادي. إن ممثلا

عالميا يرتدي تي شيرت وضع عليه علامة تجارية، ذلك يعني محاولة لإنعاش اقتصادي مهم لذلك المنتوج.. ونحن نركب ظهر الموضة دون معرفة ما يقف في عمقها.. حتى شركات الملابس المستعملة أو ما يسمى بـ«اللانكستر أو البالات» فما هي إلا للتسويق المنظم والمسؤول إلى أماكن مقصودة.. إن ظاهرة الأزياء في تلك المرحلة سرعان ما يصيبها الكساد أو الصدأ وتنحو نحو التغيير والاستبدال وفق التوجهات السياسية والمجتمعية.. بمعنى إن الأزياء فلسفة اجتراح كبرى في الحياة العامة لدراسة الآثار والبنى الاجتماعية المصاحبة لكل حقبة، به سندرك مآلات سلوكية كبيرة وقفنا أمامها لزمن طويل دون تفسير لتلك الظواهر، فالأزياء تنتعش لشركات مصدّرة في باريس ونيويورك ولندن، ولا أحد يذكر شيئا عن أزياء روسية مثلا أو دنماركية أو يابانية منتشرة سوى ماركات محترمة لكنها غير رائجة عالميا، لذلك يمكن القول إن الكثير من أسرار شركات الأزياء الكبرى غير معروفة عند الشعوب التي تستورد وتبضّع الزي وتستهلكه.. فبين المنتج للزي ومستهلكه ثمة تناغم وتحقيق رغبات وأفكار وعلامات مشتركة، وما الأناقة إلا درساً من دروس البلاغة الجمالية والإحساس بالتفوق وإنعاش الروح والإحساس بالتجدد.

إن انعكاس التمظهر في الزي وطريقة الكلام والسلوك العام وطريقة تصفيف الشعر أو حلاقته هي بالضرورة القصوى اشتغال يومي لنمط سلوكي بحاجة إلى هوية صيرورة ما، فكل الهويات صيرورة للتمظهرية تنتج سلوكا خاصا بها، بمعنى لا يمكن للمعّلم أن يذهب إلى مدرسته بالزي المحلّي المسمّى بالدشداشة التي يطلق عليها بالزي غير الرسمي

والمدافعون عنها يدعونها بالزي العربي، حيث تنتصر العروبة على ما سواها.. إن موظف الدولة يذهب إلى دائرة عمله بالزي المُسمّى الأفندي (الزي الرسمي) ولكنه عندما يعود إلى بيته يعود فيرتدي الدشداشة.. وغالبا ما يسمّي الجمهور الأفندي بالمثقف، وأعتقد كلنا يعرف لماذا اقترنت التسمية بالمثقف، رغم حداثة كلمة مثقف على ذات الجمهورية والما بعد.. وسبب ازدواج الحداثة (الأفندي) مع التراث (الدشداشة) هو اختلاط المفاهيم بين المفروض وسلطته والحرية ونمو الذائقة وسلطة المجتمع القامعة والموضة العالمية.. بين الحشمة والأناقة تعيش الذات العراقية واحدة من أزماتها الازيائية، حيث يكون التمثّل عاملاً سيكولوجياً، بالمقابل لا يحق لرجل الدين المعمم أن يشارك أطفال الزقاق لعبة كرة القدم، ذلك ما نقصده بالخروج غير الموفق عن جدولة وأطر الأزياء وثبات خريطتها السلوكية بل حتى حشمتها المصاحبة للسلوك الأزيائي.. حتى إن أزياء المثليين المحليين في أهم معاقلهم في تجمعاتهم السرية، كأنهم داخل منظمة سرّية ينقلون تعاليمهم ومتمّمات الظهور بكل سرية وصرامة، هم على العموم يميزون أنفسهم بأزياء خاصة بهم تقترب من أزياء الفتيات وما ظاهرة «الأيمو» العالمية إلا كحركة احتجاجية وثورة في فنون الأزياء.. تبدأ في البنطلون الكاوبوي الضيق وتنتهي بالأكسسوارات كقلادة الجيد وأساور المعاصم ولاصق الشعور وإطالة الأظافر وحف الحواجب وأساس الوجه ومكياجه، وهي أزياء وافدة ومخصصة لهم، تبرز فيها مفاتن الجسد الذكوري بصورة تضعه في منطقة قريبة من الجسد الأنثوي بكل تكوراته ومفاتنه، وهنا نصل إلى نقطة مهمة في إدراك حقيقة قد تكون غائبة عن البعض، إن الزي هو

الذي يرتدي الشخصية وليس العكس.. فعندما ترتدي البدلة الحريرية وربطة العنق الأنيقة والعطر الساحر والأخاذ، لا يقف بوجهك رجل الاستعلامات بل ويسمّي الأخير الأمي أستاذا والأستاذ الذي يرتدي البنطلون الكاوبوي أميا غير مرغوب فيه ويقابله بجملة الممنوعات التي اعتادت عليها ذات الجمهورية ورسختها ذات الما بعد.. هكذا إذا أردت الدخول لمؤسسة من مؤسسات الدولة تحتاط أمنيا وتكثر من رجال الشرطة وموظفي المنع، فارتدِ البدلة الحريرية اللماعة وتوكّلْ كما في المستشفيات وخصوصا ردهات الإنعاش والطوارئ والسجون والمؤسسات ذات الأهمية القصوى..إذن نستطيع القول عن أهمية الأزياء في إظهار مبدأ الغش والاختفاء.. إن رجال السيطرات يمكن اجتيازهم في أوقات الخدر والقيلولة واشتداد الحر، ففي تلك الساعات يبدأ الترهل والكسل يدبُّ بشكل واضح في كل مفاصل الدولة فيمكن اجتيازهم بسهولة مع البدلة الأنيقة والنظارة السوداء واللحية الخفيفة. وإن أفضل وقت لمراجعة دوائر الدولة المكتظة بالمراجعين هو أوقات الكسل العراقية أي ما بعد الساعة الثانية عشرة ظهرا.. وفي أيام الخميس، لا يصح مراجعتها قبل العطل الكبيرة وقبل موعد الأعياد، ذلك ما يقولون لك: (المراجعة بعد العيد، أو بعد العطلة أو الشهر القادم بعد الزيارة).

حكاية: كريم هيال

كان كريم هيال معلما ماركسيا مغرما بالخمر المحلي «العرق الزحلاوي» تم نقله كمعلم منفي إلى عمق هور الغموكة التابع لمدينة الناصرية بل هو في أقصاها، يبقى الأستاذ ماكثا في مدرسة الصرائف لمدة شهر ثم ينزل إلى المدينة، يأكل وينام في الإدارة، وهو المعلم

والمدير والفراش لثمانية عشر طفلا يتجمعون من جباشات الأهوار القريبة إلى مدرسة أستاذ كريم هيال.

وفي إحدى المرات جاء مفتش التربية للمدرسة بعدما سلك كل الطرق للوصول واستخدم وسائل النقل الحديثة والقديمة، حيث ركب القطار الصاعد إلى البصرة وغايته مدرسة كريم هيال، ثم ركب الحمار ثم سيارة بيك أب، ثم المشحوف حتى وصل قبالة المدرسة.

كان أستاذ كريم بدشداشته في أحد الصفوف يعلمهم درسا في الرياضيات وما زالت الخمرة تلعب في رأسه منذ ليلة البارحة، وعندما شاهد المشرف مقبلا على المدرسة قال لطلابه هيا فورا إلى البيوت حالا. فتفاجأ المفتش من خلو المدرسة وهروب الطلبة منها، فقال له أستاذ كريم:

ـ أستاذ ما شايفين واحد لابس بنطلون خافوا منك حسبوك طنطلا، ما تشوفني أنا بالزي المحلي.

***

لقد كانت المؤسسات الأمنية النموذج الأكثر تعددا في الأزياء ما بعد ال 2003، فمثلا الشركات الأمنية الخاصة ترتدي البنطلون الصحراوي والتي شيرت الأسود والصدرية الصحراوية، رجال حماية المنشآت بلون مغاير، قوات سوات باللون الأسود والمغاوير والحمايات الخاصة ورجال السيطرات. أبدل (بول برايمر) الحاكم الأمريكي اللون الزيتوني في أول أيام حكمه في عراق ما بعد عام 2003، إذ أصبح اللون الأزرق الفاتح للقميص واللون الكحلي للبنطلون إلى قوات الشرطة العراقية،

وقد التزمت في السنة الأولى بعض المناطق في الزيتوني والسفاري وبدلة العرضات للقوات الأمنية كافة ثم ذابت في الأزياء الجديدة.. هنا يبرز العامل النفسي في الاهتمام بقدسية اللون كحالة تمظهر تشتغل عليها الشخصية العراقية ضمن حيز لا وعي ذات الما بعد، بالتالي فإن إعادة النظر في توحيد الأزياء سيخلق من جديد حالة رمزية وقدسية اللون وإشاعته.

ترى كيف يتم اختيار اللون في أزياء مؤسسات دولة الما بعد؟ وما هي المعايير المتّبعة في اختيار منظومات لونية لم تُدشنها حقبة الجمهورية؟ إن لون البيج للقميص والبنطال البني لحراس المحاكم ودوائر العدل وإدارة السجون المختلفة تجعلنا أمام حزمة لونية غير منسجمة وعشوائية في تبدد سيكلوجية القدسية اللونية.. فيما تكون بدلة شرطة المحاكم الجنائية العليا بلون أحمر، أما المساجين فتكون بذلتهم بلون البرتقال.. تثير الرهبة والتقزز وفوضى الحواس المرتبكة، واضطراب السلوك العام، وقد عملت داعش على إشاعة اللون البرتقالي في ماكينة الرعب الإعلامية التي عملت عليها بذكاء تحليل نفسي صادم للمشاهد، هنا يشتغل القناع كنظرية إظهار وإخفاء.

إن زي المرأة العراقية يرتبط ارتباطا جدليا مناطقيا وفق طبيعة التوجه العام للجمهور، وغالبا ما يقال إن مشتريات المرأة للملابس بكافة الأزياء أكثر منه للرجال.. إن المرأة التي تعمل في حقل التعليم في جنوب العراق ترتدي الزي الإسلامي الخليجي متمثلا بالحجاب والعباءة الكتفية ووضع بعض المساحيق الخفيفة وتكحيل العينين، محاولة عدم إثارة حواس الجمهور بشكل فاضح وتطبيقا لنظرية الحشمة، وفي منطقة الفرات الأوسط لازالت

المرأة الموظفة تميل إلى عباءة الرأس ودون مكياج يذكر والاكتفاء بتكحيل العينين فقط،، وكلما نصعد إلى أعالي دجلة أو الفرات نجد الانفتاح في أكثر تجلياته، حيث ظهرت لدينا حالات سفور واضحة للموظفة، في بغداد وشمالها إذ ترتدي الكوستم المحدّث والتنورة والقميص خاصة في المناطق المتعددة للأثنيات، وعندما نصل إلى شمال البلد نستطيع أن نجد الفارق والخط البياني للتديّن النسوي قد وصل إلى اضعف درجاته، أما شريحة الشباب فقد تقل الفوارق وتتداخل الأزياء العامة متأثرة بدول الجوار وعولمة الزي بشكل عام.

أما حماية المسؤولين فيوحّدون الأزياء بنماذج عالمية مأخوذة من أفلام الأكشن في معظمها، فإذا كان لدى أحد كبار المسؤولين مجموعة خطوط حمايات عاملة.. فالخط الأول يرتدي البدلة الرصاصية والقميص الوردي أو الأرجواني..الخط الثاني يكتفي بالبدلة السوداء والقميص الأزرق والنظارات السوداء داكنة الظلام والحلاقة (الصفرية) تيمنا برجال الحمايات العالمية وبأفلام الأكشن الخاصة والبودي كارد.. أما المسؤولون يكتفون بما يسمى بالزي الرسمي التقليدي المتمثل بالبدلة الرسمية.

لذا أعتقد إننا بمحاولتنا هذه قد كشفنا المسكوت عنه أو استطعنا تسليط الأضواء على منطقة كانت معتمة بعض الشيء ولم نبلغ التمام فيها، نجد إن المهمة ستتواصل من آخرين يهتمون بنمط من ثقافات شعوبنا المستترة.

الأزياء هي واحدة من إشارات التدوين والتوثيق لحقبات سياسية

واجتماعية، وهي كانت وستكون بالضرورة القصوى كاشفة لبواطن سايكولجية المجتمع، وكاشفة لسوسيولجية حركة المجتمع في لحظته.. لحظة من هوس التدوين قبل فوات الأوان معتمدين على إشارات الوثائق والشفاهية التي تترك مع تقادم الزمن عليها.

* * *

الفصل الرابع

في الطعام

أولا: شاي وخبز

في الممارسة الغذائية

لقد أثّر شبق المعدة كثيرا في تاريخ مسيرة الإنسان على هذه الأرض، أكثر من تأثير العقل في مسيرة الحياة العامة نفسها، إذ تعتبر المعدة هي المحرك الاقتصادي العظيم والذي يخفي الشخص سلوكه خلف شبقها المحتدم. وما الثقافة الغذائية في المنظومة الأدائية والنشاط الوظيفي، إلا مرحلة لاحقة بعدما هيمنت العادات/ التقاليد/ إفراز أنزيمات الجوع على نظام الأكل، ولم يعر الإهتمام لموضوعة الصحة العامة في النظام الغذائي المتخلف في إبادة الذوات العراقية بشكل خفي وتفاقم أمراض ضغط الدم والسكري للغذاء غير الصحي وكميته، فتأثير التقاليد البدوية ـ عربية/ دينية ـ في إقامة ولائم نحر وطهو قطعان الماشية، ساعد على إبادة العنصر البشري المحلي على مدى تاريخه بفعل النظام الخاطئ في الوظيفة الأدائية، حيث تفخر الذات العراقية في تراكم أكوام نفايات الطعام وتعتبره من متطلبات فضيلة الكرم، وما الكرم إلا صفة التبذير والخلل الاقتصادي والخبل في ثقافة المواطن الغربي، مثلما الجود خصلة النفس المعطاء في الثقافة العربية التقليدية.

إن طبخ الأطعمة يتوّج عبر انتصار الشواء على النيئ بفعل النار، ففي استخدامها حيث ينتقل الإنسان من حالته البرية المتوحشة والبدائية المجردة من قيم الاستقرار المكاني إلى حالة التحضّر الناعمة وتنتصر ذائقة الطازج على الفاسد، من الطبيعة الخام إلى ثقافة القيم المثلى. النيئ يتموقع في جهة الطبيعة، والمطبوخ يتموقع في جهة الحضارة المتواصلة وهكذا، النار والطبخ مفتاح الرقي الحضاري والمطبوخ ثقافة، هذا ما يؤكد عليه العالم الانثروبولوجي الفرنسي كلود ليفي شتراوس في كتابه (النيئ والمطبوخ).

حكاية: حوارية الجائع

يلتقي شخص بصديقه مصادفة بعد غياب (25) سنة في السوق، فيتعرف كل منهما على صديقه، وأول صفحة يفتحها مع صديقه بدعوته إلى بيته واصفا له أن زوجته قد طبخت اليوم مرق الباميا مع ضلوع الضأن، سيحلو الطعام بقدومه، أول الأحاديث كانت في إغراء الصديق بغواية الطعام، يتقدم حوار المعدة على كل حوار وذكريات وأحاديث وتاريخ مشترك بينهما. يذهب الصديق مع صديقه وينشغل صاحب البيت في ترتيب المائدة ثم نقل الطعام، ثم ينشغلان بالطعام ويذهب الرجل من دون حوار عميق.

- إن عرفتُ ما في قدوركم من طعام مطبوخ في أمس الملوكية، أو في ضحى الجمهورية، أو ساعة الما بعد.. ساعة هياج المعدة ونباح كلبها الضاري أو نباح جراء الأمعاء الدقيقة الضالة.. حتما سأكتشف كنه - هوية - جماعة منكم كانت جائعة وكلابها تنبح من الجوع. وما

الصوم في الممارسة الغذائية إلا صوم العيون عن الطعام، فالعين هي بوصلتها ومحركها وكاتم أسرارها.

ـ أنا طبعا اعرف طريقة مثلى لروي حكاياتكم السرّية في عهودكم الملكية أم الأخرى الجمهورية في شؤون الطبخ وشجونه. الطعام وأنواعه، والزاد وما تلاه من شراب محبب في اللبن والزنجبيل والزبيب، في الغموس وأطياب المرق الأحمر. لكم ما يهمني ولي ما لا يهمكم. ترى هل تذوّقت النكهة البقرية في لبن أربيل، هل تمضغت فصوصا من الشنينة في شرابها؟

ـ إن تربية حاسة التذوّق في حقول التربية الخضراء مثلما تربّى قطعان العجول المعدلة وراثيا، ربما تربية حاسة التذوّق مثل تربية كلاب الحراسة أو أكثر، كذلك هي تمرين للشم طويل النفس، طبعا فيها شمّ المسلوق من المشوي على النار من المطبوخ في القدور، وما رائحة الكباب المشوي في لجة نار الفحم على باب السوق العتيق إلا تمرينا لمتعة المضغ مع نقيع الزبيب، وطعنا بـ«كباب العروق» من اللحم المفروم والطحين والكرفس الأخضر مقلي بدهن الحشائش والذي يُعد مسبقا لمتاع المساجين في الزيارة الشهرية مع البيض المسلوق وفردات من التمر الخضيري.

* * *

الشم متعة ترتقي إلى لب التحضّر المنشود وبوابة التلمض والتهيؤ لوجبة دسمة، ولولاها لما كانت مصانع العطور والشركات الرائدة للمطيبات، إذ ترتقي حاسة الشم إلى درجة التذوق في تربية التذوّق

كحاسة مهملة وتحولها إلى حاسة ناشطة وردادرية لاكتشاف المخبوء، ولها مجسات لاقطة لمصدر الطعام ورائحته. إنها ثقافة المدن الناشئة في ظلال الأسواق وفيء البيوت الضاحكة للهواء.، وغالبا ما تتماهى حاسة التذوق اللساني مع حاسة الشم ثم ينصهران في جب المعدة، تتغازل مع روائح الطعام المطبوخ وترشد صاحبها حيث يكون الطعام. ومنها يسلك صاحب المعدة الفارغة طريق الجريمة والسرقة، أو طريقا آخر للتحايل من أجل إرضاء طموحاتها الشهوانية.

- جماعة منكم تكثر بإفراط من الفلفل الهندي الحار والتوابل الناقعة بالزعفران والنعناع اليابس والكركم الأصفر والحبة السوداء المطحونة والنومي بصرة إلى قدور الطهي اليومية. حتى لا يعتاد الأنف على الرائحة المعتادة ذاتها، فالأنف يلتقط الروائح الجديدة بسرعة خاطفة، ويهمل القديم منها. سأعرف مدى فقر الجماعة/ مدى فاقتها/ مدى شعبيتها.. فقد تكون آنيتها مطعّجة وقدورها سود مخسّفة وملاعقها أصابع خشنة، لكن مذاق طعامها طيب فيه أنفاس حلوة طيبة تعود للعرق الطيب لمن طبخها، فقد قالت الأعراب سابقا، طيب الطعام من طيب طبّاخه.

حكاية: غزل تنوّر الطين

تنورها من طين وتبن خالص، وخنآرته في أسفل الهرم تطرد خبث الرماد وسمومه، محراثه الأسود يتكئ دوما على الجدار المسود، منتظرا دوره في هياج النار.. ومينة زرقاء على صدره باكية تطرد الجن وتلاحق الأشباح الراقصة عند ساعة غروب. ترتدي الأم ثوبها مقلوبا على بطانته مثلما جرت العادة لتهيج النيران وهي تتهجد بآيات وأدعية.

تنور طين تزخرف بطنه بفطور عميقة على شكل خريطة العراق ونهريه.. للخبز الأسمر وخبز اللحم المطرز بالبصل والكرفس والثوم وشيّ السمك والزوري وأبو زريدة والصبور البحري وإبريق الشاي الزنجي ضاحكا من تطاير الرماد على فمه الأدرد، الطقس الذي يحن إليه كل من غادره بفعل الهجرات والغربة. تنانيرنا في زوايا الحوش لازالت تلتهم كتبنا السرية في كل حقبة، ابتعلت الأدب السري في بحر الرماد وذرته إلى الريح، موائدهم الأرض المجردة تحت ظلال جدران الطين أو الطابوق الناقع. قال الأعمى: أيتها التنانير لمَ تحرقينَ الأحلام وأيام النضال والمنشورات السرّية وخواطر الطريق ورسائل المراهقة السرية لابنة الجيران وقصائد التمرد الأصدق.. أيتها التنانير بدلا من شواء الخبز باللحم، أشوي قلوبنا الراجفة من مراقبة رجال الأمن الجمهوري والشرطة السرية والوكلاء المنتشرين خلف التنانير وفي المقاهي والسينمات.. آه كم من الوكلاء المراقبين على الذات المحاصرة المستلبة.. من وكلاء الطحين حتى وكلاء الأمن.

***

حكاية: وكيل حصة التموين

في عام 1991 استحدثت السلطة نظام الحصة التموينة وتوزيع مفرداتها بالكوبونات المعتمدة رسميا وتجدد كل نهاية سنة طيلة فترة الحصار التسعيني، في بداية الأمر أقرت وزارة التجارة أكثر من اثنتي عشرة مادة غذائية متنوعة، بقوليات وحليب كبار وصغار ورز وسمن وشاي وسكر وشخاط وسكائر ومعجون طمامة وأسنان وحلاقة وفي رمضان دجاجة

واحدة لكل بطاقة منفردة. كما استحدث وكلاء الحصة محالا في معظمها هي غرفة مطلة على الشارع يحورها من بيته ليعملها وكرا لمفردات الحصة التموينية. وعلى مدى سنين طويلة أصبح الوكلاء متنفذين ومستفيدين ومراقبين لكل الذوات المسجلة في بطاقات التموين.

بعد فترة قحط وفاقة مذلة اشتد الحصار، ونخرت أضراسه في لحمهم، هرب بعض المواطنين إلى أرض الله الواسعة، تاركا حصته، حتى أصبحت غنيمة شرعية لوكيل الحصة مقابل عدم الإبلاغ عن المواطن الهارب، بعملية تجارية وخسيسة في الوقت نفسه.

في عام 1995 صدرت تعليمات جديدة أخرى لتخفيض مفردات الحصة التموينية وتقليل غرامات الطحين للفرد الواحد وكذلك الرز والشاي والزيت وإلغاء بعض المواد بصيغة نهائية للضرورات القصوى كما أعرب عنها بيان الوزارة، ومع هذا كله كانت بعض العوائل تعتمد على تمشية الأمور في بيع مفردات الحصة والتي أصبحت لها أسواق واسعة في المدن وتتحول الذات إلى فم مفتوح وعين تشتهي ومعدة فارغة وجيب ممزق.

كبرت أجيال حصة التموين، ومازالت بطاقتها معتمدة كمستمسك رئيس مع ثلاثة أخرى لإقرار عراقية الذات معتمدة في المراجعات الرسمية لدوائر الدولة.

رغم تبخر معظم مفردات حصة التموين ما بعد 2003 لكن شبحها المخيف والمقزز ما زال موجودا في محفظات الذوات وفي خزانات الملابس.. مات الوكيل الشرعي للحصة وورثها ابنه في مراجعات وزارة

التجارة وتحديث سجل الأفراد وملاحقة من فر منهم ومن مات ومن رزق بغلام ليسجله ضمن السجل الرسمي ويدخل ضمن حصة حليب كيكوز نصف دسم. أما شيوخ حصة التموين فما زالوا مقيدين ضمن الجدول الطويل للعائلة من دون أن يعلن موتهم الحقيقي.

* * *

ثانيا: بقرة الجمهورية

إن الطعام كل الطعام فيه حتما بذور للموت والحياة.. فكثيره تخمة والإفراط فيه سمنة والسمنة مهالك للبدن، وأمراضه صامتة تهاجم الإنسان وتسلبه حق الحياة، والجوع يجلب ضعف البنية وفقر الدم ثم يؤدي إلى الموت، والطريق ما بين الجوع والشبع هي مسافة حبل بين جبلين شاهقين.

بعد حقبة الحصار الاقتصادي المجحفة تغيرت سحنة وبشرة وهيكل الإنسان العراقي بفعل قوة تأثير الحصار، فالمرأة باتت تميل للتقزم خاصة في أجيالها الجديدة التي عاشت على حليب الحصة ونشوياتها القاتلة. بشرتها تميل للاصفرار وتكور البطن وضخامة حجم الرأس، بينما كانت الأنثى العراقية من أجمل الإناث في محيطها الإقليمي وقد حققت مراتب متقدمة في مسابقات الجمال، والكلام ينطبق على أجيال حقبة الحصار من الذكور وهم يعانون من تأثيراتها البايلوجية في لون البشرة وتأثيرات سني تناول النشويات بإفراط وغياب البروتينات، الكروش المدورة والمؤخرات العريضة غدت سمات الذات الجديدة.

إن النظام الغذائي فيه من الفوضى والعشوائية أكثر من الجدولة الصحية والتقنين، مما زاد في حجم المعدة وطولها، أصبح مستهلكا رئيسيا في الكرة الأرضية لمحصول الرز في العالم ومحصول الحنطة. مما يعد العراق من البلدان الأكثر استهلاكا للقمح والرز على مستوى العالم كله، إذ يدخل طبق الرز والخبز الحار في الوجبات الرئيسة للطعام.

حكاية: مطعم النهضة السياحي

هناك أكثر من ثنائية متلازمة تظهر في المأكل العراقي مثلا، شاي وخبز/ تمر ولبن/ خبز وبصل/ تمن ومرق/ تمن وماش/ دبس وراشي/ كباب وطرشي النجف/ كباب وطماطة شوي/ كباب وعصير الزبيب/ تمن ولحم/ تشريب دجاج وبصل/ كاهي وقيمر/ قيمر وعسل صباحا وغيرها الكثير. هذه الثنائيات الغذائية بحاجة لأكثر من وقفة تأملية بعد إحالتها إلى جذورها التاريخية إن كانت ثمة جذور لها، هذه الثنائيات في داخل البيت، أما في المطاعم فلا تختلف اللائحة الطعامية كثيرا سواء لافتة مخطوطة على زجاج المطعم تقول(أكلة اليوم ـ قوزي الشام ـ). والمطعم المقصود مفتوح على مدار الساعة، وقد مر بمراحل مختلفة وفق سياسة الجمهوريات الخمس، يتغير أسم المطعم في كل حقبة تمر، فمرة يصبح اسمه مطعم الجمهورية ومرة مطعم التساهل ومرة القادسية ومرة مطعم التحرير ومرة مطعم الفاو ومرة بركة الزهراء ليعود من جديد إلى مطعم النهضة السياحي.

نكتشف أن كل زوجين من الصنوف تشكّل ذائقة إطعامية وليست بلاغة لفن الطعام. هل كان فيها نكهة المحلية الخالصة، أم تلك الذائقة

وافدة لسلة الوجبة الغذائية المستوردة؟ وجبات طعام على لائحة مطعم النهضة الحديث منها ما هو صباحي مثل مشويات اللحوم كالكباب (اللحوم الحمراء المفرومة والمشوية على نار الفحم)، ومنها ما لا يعرف زمن وجبته الغذائية في وقت الضحى أو العصر كخلطات البيض واللحم والبصل والطماطة مع شوربة العدس وهي محور إطعامي متسيد على مائدة الصباح والضحى، ومنه ما هو نهاري مخصص لوجبة الغداء كمتلازمة التمن والمرق وخلطة البرياني وأكلة القوزي الدسمة أو تشريب اللحم أو الدجاج على التمن، مع جناح مخصص للعوائل يحجب بقطعة قماش بيضاء متسخة تعزل الذكور عن العوائل والتي تتناول في الأغلب تشريب لحم الزند أو أفخاذ الدجاج، ومنه ما هو ليلي لوجبة العشاء في مشويات الكباب وقص اللحم المشوي أو كباب العروق والباجة للسكارى وأنواع أخرى من كبة الحامض وكبة التمن والبرغل والجريش مع ماعون الرقي أو لوبيا كهدية من المطعم العتيد. تقسم وجبات الطعام العراقية إلى ثلاث وجبات رئيسية، واحدة للفطور صباحا وأخرى للغداء عند الظهيرة وما بعدها والأخيرة للعشاء ليلا. ولكن غالبا ما يكون عشاء أهل الريف عند الزوال والنوم المبكر بعكس ذوات المدن الذين يفضلون النواشف للعشاء وفي ساعة متأخرة نسبيا.

على واجهة مطعم النهضة السياحي الشعبي، يرسم خطاط النهضة بقبعته اللينينية وحروف رقعته السيفية، مطعم النهضة السياحي، وتحت بند أكلات عراقية دسمة بعمودين متناغمين بلغة الطعام العراقي وشاعريته:

يوجد لدينا صباحا ومساء

تمّن ومرق	دولمة ودليمية
طرشانة(قيسي)	مدفونة (حجي احمد)
تشريب لحم	تشريب دجاج
حواصل وأجنحة	باسطرمة
شوربة عدس صباحا	باجة وزرازير
سمك مطبّق نهارا	سمك مسقوف ليلا
بيض مقلي صباحا	مخلمة وجلفراي ليلا*

المصريون الذين قدموا إلى العراق إبان عقد الثمانين الحربي في الطور الجمهوري الخامس، أضافوا بعضا من مصرية طعامهم ومشربهم، استبدلوا استكان الشاي بالقدح الكبير والسحلب والفول والفلافل إلى المائدة العراقية.. لقد حاولوا التعايش مع الذوات العراقية، حيث نمط الطعام الجديد الذي ترك أثره في المطبخ العراقي ليومنا هذا وخاصة في الفول المدمس والفلافل، حيث تتأكد النظرية القائلة إن الطعام العراقي ليست له خصوصية تبرز أهميته وفردانيته.

إن وجود حرف (چ) في كلمات المحكية العراقية الصميمية، أصاب المصريين العاملين في العراق بالإحباط في إتقان اللهجة العرقية، حرف تبرز فيه الخاصية العراقية يفضح الكائن الغريب عن جسد العراقية.. المصريون وهم يخفون مصريتهم في فن التكيّف، داخوا فيه فمرة يلفظونه جيم عطشى فيقولون جاي بمعنى شاي وباجة من دون تخفيفها، فيلتقطهم العراقي ويبادرهم بالاستفهام المبطن:

ـ الأخ مصري؟

ومرة يلفظونه شين، فيقولون باشة بمعنى (باجة) أي لحم رأس الخروف أو البقرة، وهي أكلة تبرز فيها الخاصية العراقية.. وفي كلتا الحالتين سيكتشف العراقي الجندي المجاز من جبهة الحرب مصريتهم بسهولة ويصيح يا جدع استرح..

في الطور الأول من العهد الجمهوري أطلق النظام صيحة (الصمود يصنع النصر) وفي الطور الثاني إبان الحرب أطلق درس (التدريب ثم التدريب ثم التدريب) وفي الثالث الترشيق الإجباري لكل من هو في سلم الدولة والحكومة.. رشّقْ تسلمْ.. شعار المرحلة المفروض.. حتى أصبحت ذات الجمهورية المتحزّبة مثل أعواد البخور لفرط التنحيف الحزبي الإجباري قبل ان يحل الحصار التسعيني وتستعيد عافيتها.. كان البعض منهم يختفي داخل ملابسه الزيتونية، وقد أبدل ثقب الحزام أكثر مرة. ليتحول إلى صورة صوتية رمزية، كانت الغاية اختبار والتزام ذوات الكوادر بتعاليم القيادة، ورغبة خفيّة داخل ذات الجمهوري الخامس..

إذا كانت علوم اللسانيات تدرس كل ما هو لغوي ولفظي، فإن السيميولوجيا تدرس ما هو لغوي وما هو غير لغوي، أي تتعدى المنطوق إلى ما هو بصري كعلامات المرور ولغة الصم والبكم والشفرة السرية ودراسة الأزياء وطرائق الطبخ. وإذا كان فرديناند دو سوسير يرى أن اللسانيات هي جزء من علم الإشارات أو السيميولوجيا، فإن رولان بارت في كتابه« عناصر السيميولوجيا» يقلب الكفة فيرى بان السيميولوجيا هي الجزء واللسانيات هي الكل. ومعنى هذا أن السيميولوجيا في دراستها لمجموعة من الأنظمة غير اللغوية كالأزياء

والموضة وفن الطبخ وتقديمه وهندسة مكان السكنى وتربية حاسة الشم بعصا الأعمى ـ سالف الذكر ـ تعتمد على عناصر اللسانيات في دراستها وتفكيكها وتركيبها.

ففي البحث عن إرساء قواعد الهوية المجتمعية الكلية للجماعة: (هوية ذات الجمهورية) أو الهوية الاجتماعية وحتى الثقافية، سيُكشف عن الطعام وشجونه بل حتى عن رائحته.. من أين أتت تلك الذات وإلى أين ذاهبة؟/ ما مدى تديّنها ووجوديّتها؟/ ما طقوسها وعاداتها؟/ ما مجونها وتعبدها؟/ أقرب النهر الجاري هي أم على رمل الصحراء؟/ ما مدى حبها للحياة الأولى أو مقتها لها؟ المطابخ بتنوعها وروائحها وطقوس التقديم فيها.. بالمحرمات والمحببات. هذه الأسئلة هي بمثابة مفاتيح الدخول إلى ذات الجمهورية.

إن التنشئة الاجتماعية تقوم بمهمة تحديد المواد قابلة الاستهلاك (النيئ والمطبوخ) وتلك التي يجب تجنبها في متوالية (الحلال والحرام). هناك في الأطعمة ثمة محرمّات ومكروهات ومجتنبات في ثنائية تفرضها العقائد والأديان وأصول الهويات الفرعية وتوجهها العام والمتوارث ضمن حيز الجماعة وإطار معيشتها في نسق المعتقدات التي تؤمن.. العادات والأساطير.. الخرافات المهيمنة والمرويات الشعبية، هذا التحديد يمثل علامة انتماء الفرد إلى كلية جماعة ما، وحتى تكتمل فصول السردية الغذائية، كان لزاما على كل جماعة أن تحافظ على سرديتها الإطعامية بشيء من مقدس المعتقد الخاص بتاريخها الذاتي. لذا فإن اقتراح أي نوع أو نمط غذائي جديد، يُعد تهديدا لثقافة الجماعة بالمعنى الفاضح للكلمة. ومن الجدير بالذكر لا يمكن لثنائية (التمّن والمرق) أن

تزيل من ذاكرة العراقي المغترب أو المهاجر الأزلي أو المهاجر وصولا إلى السائح، سوى لذّة الاستحلام بمرق الفاصوليا مع التمّن المكبوس، وما قدر (الفوح) عصير التمّن المطبوخ إلا مرويّة عراقية صرف أسمع عن حكايات تفاصيلها للتندر في جنوب ووسط البلد..

يميّز الدارسون في حقل النظريات ما بعد الحداثة والبحوث الانثروبولوجية.. بين أصناف الطعام وفرزها وطريقة التقديم وما يصاحبها من طقوس وعادات، بين نوعين من الطعام المطبوخ الطازج والطعام النيء.. فالأول هو طعام اختياري والثاني يتبع القوت لدفع خطر الجوع، والمثل الشعبي يقول للجائع أو المحاصر ـ قوتْ لا تموتْ ـ فحين نقتات بأبسط أنواع الطعام يعني نتجنب الموت، وحين نأكل نكتشف ماذا يعني أن نعيش. في هذا المعنى تبرز نظرية المعيشة اللازمة لاستمرار الحياة.. في تجاوز مرحلة الطبيعة التي تقف بنا عند حد البقاء من أجل أن نتذوق لاحقاً طعم الحرية. إننا في «الفعل الغذائي نتواجه مع بقية الطبيعة ونتشارك معها. نحن على وجه اليقين جزء من هذه الطبيعة، وفي فعل التغذية نفسه نختلف ونتمايز عن بقية العالم الحي. إن القرود تنتقي من الطبيعة جوز الأشجار العالية، والعظمة تغوي الكلب والذئب معا أما الأرانب فتكتفي بالجزرة الحلوة والخروف بالبرسيم والبلبل بحبّة الرمان.. عليه فأن للطبيعة الخام سحرها وغوايتها إزاء الكائنات الحية، مثلما تغوي الجبنة كثيرة الدسم إلى مصيدة الفئران للإيقاع بها.. فالشم مصيدة البطون الجائعة.. يتحول الأعمى إلى بطن عظيم وذاكرة شرهة..

هناك أكثر من نظرية معاصرة في حداثة التقصي الدقيق عن إيحاءات المأكل والملبس للأفراد والجماعات في كنف الملوكية أو الجمهورية..

الذين يعيشون تحت ظل تعدد الهويات في ظل خيمة الوئام والسلم، حيث إن واحدة من هذه النظريات تؤكد على خاصية ألوان في سايكولوجية المأكل ونوع الزي وجدران المسكن.. أساليب الطهي وطقوس الطعام وأصنافه من حيث التنوع المطلوب هي دلالة الهوية بالإضافة إلى اللغة وجغرافية المكان ونمط المعيشة،

«قل لي ماذا تأكل أقول لك من أنت؟».

قُلْ لي ماذا تفضل من الطعام؟ تمّن ومرق إذن (أنت عراقي)، مكبوس،إذن (أنت كويتي)، ملوخيّة،إذن (أنت مصري) مسبّحة (أنت شامي)..ورائحة البهارات الخارقة تدلل عن وجود الهنود في المكان، أعرف هوّيتك من طعامك بطقسه ومذاقه وروائحه..

فالطعام إلى جانب وظيفته البايلوجية تبرز وظيفته الثقافية، إذ إنه يحدد «رؤية للعالم والمجتمع»، ما يقوله جان فيليب دورين. ومثلما هو المطبخ توأم المأكل حيث يجتمعان في اتضاح لون تلك الذات المتقلبة حتى في طعامها، فهي تأكل في الصباح(لفك الريق) والظهيرة لنوم القيلولة والمساء للمتعة والأحلام.. الطعام لا يشبه بعضه ولا يتكرر في اليوم.. وغالبا ما تكون الظهيرة للوجبات الدسمة الثقيلة والمساء إلى أكل (النواشف).. أي أطباق قليلة الدسم.. يأخذ الملبس(الزي) نفس الأهمية حيث أهمية الزي وفضاء تحركه وجغرافية التفاعل والمزاج العام وجنسه وبذلك يكشفان دون لبس عن ماهية وتوجه الجماعات والأفراد ونمط السلوك المحرك لهم، أما النظرية الثانية فتؤكد على دخول تقاليد المطبخ وتفاعلاته وأهمية الزي المحلي ومدى امتدادات

الروح الوطنية الوثابة ونبذه التفاعل مع أزياء خارج الجغرافية المحلية ليشكلا معا مكمّلات الانكفاء ضمن معتقد معين أو طائفة أو دين بعينه، الزي والمأكل هما إعلان عن الهوية الفرعية وليس الوطنية بكل أنساق التشظي أو ما يسمى بالهوية الوطنية الشمولية.. فعل تحويل الأغذية التي تقدمها الطبيعة هو ما يميز البشر، حتى البدائيين منهم، أما المُذاق فهو نمط من التعبير..الإعلان عن حضارة متصيّرة. وغالبا ما يعكس نوع الطبخ هوية البلد ومناخاته الطبيعية والفكرية. وكما يقول عالم الإناسة الفرنسي كلود ليفي شتراوس في «النيئ والمطبوخ»:

«*الطعام ليس جيدا للأكل فحسب، لكن أيضا للتفكر فيه*». فالدولة الشمولية ونظامها الجمهوري تعمد على توحيد نمطية الطعام المأكول جمهوريا بفكرة واحدة وسريّة هي في تدجين الذوات ضمن النسق العام والرسمي.. في عهد الحصار التسعيبني كانت الذات الكبرى للجمهورية الخامسة تطعم صغارها من الذوات ببقوليات ضمن الحصة التموينية، ففي اليوم الأول والثاني والثالث من كل بداية كل شهر تأكل الذوات تمّن ومرق فاصوليا الحصة، وفي الأيام الثلاثة الأخرى مرق حمص مجروش أو العدس الأحمر، وهكذا على بقية أيام الشهر.. بذلك ندرك كيف تعيش الذوات في شمولية قاتلة.

إذا كان من الصعوبة بمكان تحديد الفترة التاريخية التي بدأت فيها تحولات المطبخ أي مطبخ، تشق طريقها إلى بلداتنا التي كانت منذ القدم معابر لشعوب عديدة ومحط رحال لها، يبقى هذا التأثير أو التذوق لمأكولات المطابخ الوافدة، قد تجلى أكثر ما تجلى بدءا من القرن التاسع عشر نتيجة حقب الاستعمار والكولينالية وما حمله

من حداثة للحياة الشرقية. وفي هذا الإطار لا بد من التأكيد على أن معلوماتنا عن الحقبات السابقة للقرن التاسع عشر هي معلومات لا يُعتد بها، ذاك أن المؤرِّخين المهتمين بتلك الحقبات نادراً ما تناولوا ثقافة حياتنا اليومية ومنها تحديداً المطبخ والمأكل وأثاث المنزل. إن الاهتمام بنظريات الملبس والمأكل هي نظريات ما بعد الحداثة والاهتمام بها أصبح مهما في حياتنا المعاصرة.. هو نوع من الفحوصات لما حولنا قبل الانطلاق إلى العالم الخارجي.. من ورقة التوت التي تغطّي أعضاء الإنسان الأول والعظمة بيده، تطورت الحياة في فنون الطبخ والتقديم حتى وصلت إلى زخرفة المقبلات، ثمة حاجة ورمز غذائي وبلاغة عظيمة في فنون الطعام المتحضّر..

ثمة رأي يقول.. إن المطبخ العراقي أو مطبخ بلاد ما بين النهرين (Mesopotamian cuisine) كما اصطلح عليه قديما، لديه تاريخ طويل يعود إلى عشرة آلاف سنة إلى السومريين والأكاديين والبابليين والآشوريين. حيث أن بعضاً من الألواح التي وجدت في الآثار القديمة في العراق تظهر وصفات لتحضير الطعام الذي كان يعد في المعابد أثناء الأعياد الدينية.. وتعتبر هذه الألواح من كتب الطبخ الأولى في العالم، العراق القديم، أو بلاد ما بين النهرين كان مهداً لحضارات كثيرة متطورة ومتقدمة للغاية في جميع ميادين المعرفة بما في ذلك فنون الطهي.

يعكس ميراثنا الغني بالدهون والمسبب الخفي للأمراض القاتلة، فضلاً عن تأثيرات قوية عن تقاليد الطهي المأخوذة من الدول المجاورة مثل تركيا وإيران كإمبراطوريات عظمى عملت على ترسيخ معتقداتها في فن الطعام، مثلما يكون الزي وطرق تنوعه أو الاستغراق بالمحلية

هي واحدة من طرق إثبات الهوية المحلية الجامعة، تكون طرق مباحث المطبخ المحلي أيضا من قنوات إثبات الهوية المحلية ولا أقول الوطنية، لأن الهوية الوطنية تأخذ مديات أخرى خارج البحث..

الممارسة الغذائية نظام من العلامات الاجتماعية ومن الاعتراف الأيديولوجي. إذ إن إضافة الثوم والبصل والتوابل الهندية على الطعام دلالة بلاغية على رائحة الطعام الشعبي في المناطق الفقيرة وشبه الفقيرة، مثلما كانت إبان العهد الملكي في العراق حلقات شاي العصر النسائية في المجتمع البغدادي المخملي طقسا محصورا على العوائل الارستقراطية حفلات الشاي والكعك لها مراسيمها وأوقاتها..

كريمود ذواقة فرنسي (1758 ـ 1838) تعود شهرته إلى مآدبه الفلسفية التي كان يعقدها كل أربعاء وإلى كتابه الشهير «الروزنامة الغذائية»، وقد كرّس نفسه لنشاطين بارزين هما الأكل والكتابة، أو الشوكة والريشة في ما سماه «البلاغة الذواقة» Léloquence gourmande والذي اكتسب «في انتقاء ما يصلح للأكل» معه وضعا ثقافيا بارزا، وباتت شعائره شبه مقدسة، تتحقق انطلاقا من خلفية لعبية على يد عالم جمال، كانت مهمته وهواياته المحببة تذوّق الأطعمة والحكم عليها.

يؤكد كريمود تمسكه بآداب المائدة والبروتوكول، كما في «الوجبات الأدبية» عند روسو في «هيلويز الجديدة» أو عند المركيز دوساد حيث يسود نظام من الممنوعات والموجبات وتنتظم جملة سلوكيات، ويتكرر العدد: يجب، على سبيل المثال، شرب 17 قدحا من القهوة في المآدب.

الأكل عند كريمود طقس يتخلله هوس بالتفاصيل.. فالوجبة عند

غريمود ليست احتفالا ولا تجربة عميقة في المنادمة الاجتماعية، لكنها لعبة شكلية خالصة الحلوى على سبيل المثال، يجب أن تغازل الروح بمفتاح العين، وان تنتج إحساسات بالمفاجأة والإعجاب والافتتان.. تكمل ما بدأ في مستهل الوجبة.

أراد كريمود الفرنسي ضم مجموعة الذواقة إلى فرقته المتشكلة شريطة الإيمان بأفكاره، وهم جماعة التقصي الدقيق عن تذوّق الطعام وطرائق الطبخ، فأسّس «لجنة تحكيم الذواقة» من مهامها إصدار الإحكام على الأطعمة، كان مؤمنا بأن هي الجماعة عامل محرّض ومثير للطباخ، الذي يكون أسير الوصفات التقليدية. الطعام دخل باب الحضارة وأصبح فنا قائما على إدخال التركيبة اللونية الإغرائية ممزوجة بالروائح المثيرة للحس الذوقي.. فالأعضاء المشاركون في وجبات منتظمة يحوزون معرفة تؤسس للذائقة. فوجبات نهار الأربعاء لا يمكن تعريفها بوظيفتها الاجتماعية، الأدبية أو الترويحية، فهي جلسات ذوقية غايتها الوحيدة التجريب والاختبار والمعرفة الذواقة. ولم يدخل حينها ما يسمى اليوم بالغذاء الطبي أو الصحي أو غذاء الترشيق حيز الاختبارات في فرقة الذوّاقة.. هذه الجماعة تشبه «المحكمة» فتمنح وتمنع وتصدر قرارات تؤسس لثقافة مطبخية. كان نادي أهل الذوق مقصورا على الرجال، فالمرأة بحسب النظريات الفيزيولوجية للقرن الثامن عشر الكائن الأضعف والأكثر هشاشة من غيره، لديها ذوق الأطفال إزاء الحلويات. إنها تقرقش، هذا ما يقول كريمود، ولا تتغذى.

في العراق لم يكن هناك معهد للذواقة أو حلقات المحكمين ولم يدخل اللون مهيمنا فاعلا إلا من خلال الفلفل الأصفر والدارسين

والكركم الأصفر الفاقع والطماطم الحمراء وبعض التوابل الهندية، لم يكن المطبخ العراقي أصيلا في اغلبه، وهذا الرأي الثاني الذي يدحض الرأي الأول ويؤكد على أصالته.. نحن هنا ليس بصدد تاريخية أو أصالة مطبخنا بقدر محاولتنا تفكيك المحتوى والاتجاهات ضمن الأنساق الداعمة لذلك المحتوى.. بل في معظمه نتاج حقب الاحتلالات والتدخلات الجوارية.. هكذا فان النظرة الشمولية لمفاصل التاريخ الحديث لتأسيس الدولة العراقية في بداية القرن العشرين وبعد حصارات الموصل والكوت.. تعطي أولى إشارات التحولات نحو المدنية الهشة من جانب وتعطي نتائج أولى لانعطافات وتقلبات المطبخ العراقي نحو إنتاج مرحلة ما بعد هذه الحصارات والثبات على أنواع من اللحوم والفواكه المجففة (الباسطرمة والقيسي والتين والزبيب) في الموصل الخارجة من حصارها، والسمك والخضار المجففة (الباميا والسمك المجفف والنومي بصرة) في العمارة والناصرية والبصرة القريبة من الأهوار والمناطق الفقيرة منها..

عندما يكون المطبخ العراقي كاشفا لتاريخ التحقيب، طعام ملكي أو جمهوري أو طعام الما بعد.. لأهمية الطقس العراقي الذي يميل عبر حقب التكوين إلى إدخال الطقس إلى حفلات الأكل الجماعي الاحتفائية، بدعوى التصالح أو الفرح أو الحزن، حتى بات معرّفا في منظمة الأمن الغذائي ما يستهلكه أهل العراق من كميات الرز الهائلة والإبادة الشاملة للثروات الحيوانية، إحياء لروح الطقس الغذائي الاحتفالية.. في مواسم العزاء التي تقام عادة على روح الموتى، يتحول العزاء إلى مهرجان من الدسومة عالية الدهنيات بعد نحر كل وجبة طعام

وعبر ثلاثة أيام متواصلة مزيدا من الأبقار والخرفان على روح الميت، الذي يصيب بدوره كارثة للإحياء من أهله فيضطرون إلى بيع الأثاث أو حتى بيع بيت العائلة لتسديد ثمن اللحوم ومستلزمات الدفن (طقوس باهضة الثمن)..

أما الرأي الآخر الذي يعتبر إن المطبخ العراقي من المطابخ الأصيلة وان جذوره التاريخية تدخل في الكثير من الأطعمة والمأكولات المجففة وخصوصا الأسماك المجففة التي يُعتقد إن لها جذرا سومريا.. وان مذاقات الأطعمة العراقية تعتمد على الروائح المشعّة التي تزيد من الشهية.. عندما تدخل الرائحة في إغواء الغريزة وهيجان وتخبط عصا الأعمى في البحث عن باب المطبخ أو إفطار الصائم قبل أوانه بدعوى غواية شيطان الطعام.. ولكل رأي مؤيدون ومعارضون. لكن الاتفاق على دسومة الطعام العراقي هي الأكثر رجاحة من غيرها..

إن دراسات ما بعد الحداثة تعتمد في تقصّيها على التنقيب في تفاصيل المأكل والملبس لدراسة تاريخ الأمم، هذا سيجعل مهمتنا في تحوّلات تاريخ المطبخ العراقي ذات منفعة مزدوجة في اكتشاف نوع الثقافة الغذائية والصحية المصاحبة، مثلما نكتشف تأثيرات الحروب والحصارات والانفتاح على العالم الخارجي وما يطرأ من تحولات على المطبخ العراقي.. إلى يومنا هذا وبعد انتهاء الحصار الاقتصادي المفروض على ذوات الجمهورية المحاصرة، لازالت هذه العوائل وطبعا بلاوعي ذات الجمهورية، كانت تعاني من التقشف في شراء بعض الفواكه والخضر، وتعتبرها بطرا وغير ذات منفعة..

المطبخ العراقي من المباحث التاريخية المعقدة في تأريخ تحولاته

وتعدد الرؤى والأفكار والطقوس والأصناف، لكنه في النهاية يُعد مقبرة حقيقية لكل الجماعات التي تعلّقت وشغفت في تنوعاته ودسومته المتوارثة، من قيمر السدة إلى الباجة البغدادية إلى موائد الخرفان المسلوقة في طقوس الفرح والحزن.. من الدولمة إلى الكبة الموصلية أو الباسطرمة المجففة.. لم تكن هناك ثقافة صحية تهتم بنوعية المواد الضارة، مثلما لم يثبت أن للطعام العراقي من خصوصية سوى القليل منه.

أما مطبخ شهر رمضان فهو ربيع الطعام ما بعد الثانية عصرا على طيلة الشهر القاسي، حتى إن العائلة العراقية قد تصرف كل مدخراتها من أجل إشباع العيون الجائعة قبل المعدة الفارغة. الإسراف والتبذير والإطعام القسري يصل أحيانا إلى الأمراض المفاجئة التي تصيب الصائم بعد الإفطار، فالتخمة تأتي مباشرة بعد موجة من الإسراف الشديد.

تبدأ فترة دخول المطبخ في الساعة الثانية بعد الظهر لإعداد مائدة رمضان الخرافية. يعبق فضاء البيت بروائح البهارات والهيل والدارسين تتبعها مفرقعات المقلاة والقلي بالزيت وصخبه لتتحول الغواية من حسّية إلى شميّة ثم غواية/ سمعيّة. مهرجان الطعام هذا قد انحرف عن مساره المرسوم له، فأصبح الصوم هو الإفطار الذي يشغل التفكير وأنواع الأطعمة المحتملة وتبادل الأطباق.

حكاية: قط المطبخ

القط الذكر يسمى بالعامية العراقية(العتوي) وهذا الأخير له خبرة ومكر مركب في تفاصيل المطبخ العراقي ومواقيت الأطعمة المتروكة بعيدا عن الأعين وما يتبعها من مطاردات وعصي..

عتوي المطبخ البدين له رادارات وحساسات تشتغل على قوة الشم والتوقيت المناسب، بعد العشاء مباشرة وفي فترة شرب الشاي وقبل غسل المواعين يطل من النافذة أو الفتحة السرية لمفرغة الهواء يهبط بسلام من دون جلبة ويلطع أولا بلسانه متذوقا الحساءات الدسمة، ثم يأتي على اللحوم المتروكة وبعدها يأخذ العظمة المناسبة ويهرب من الفتحة ذاتها. فهو الوحيد المستفيد من الدسومة العالية في مائدة الطعام العراقي.

إن ثقافة كل حضارة هي في تفاصيلها المتناهية في الصغر أو تلك المسماة بـ(ميتا تفاصيل)، بينما الثقافية العراقية انحرفت كثيرا عن بداية نهضتها الفردانية في بداية القرن العشرين، أصبحت ثقافة أدبية بحتة ليس إلا، لذلك أصبح القحط والشحّة لازمة دائمة إلى الدراسات والمباحث في جوانب المطبخ العراقي والأزياء ومحل السكنى، لذلك ستبقى هذه المتاهة السوسيوفكرية تعد مغامرة لتقليب الذات المخّربة قبل انسحاقها وفحص متراكماتها وشجونها، قبل مشروع بعثها أو على أقل تقدير ترميم ما يمكن ترميمه منها.

تبدأ سفرة رمضان بأطباق التمر واللبن ثم شوربة العدس وبأطباق التشريب بماركة عراقية مسجلة للذات العراقية الشرهة ولا تنتهي بالدولمة والبقلاوة ووو، إنه مهرجان استعراض الطعام بعشوائية فالعين تلتهم الطعام بشراهة عظمى قبل المعدة، يتكرر مهرجان الطعام طوال الليل وصولا إلى وقت السحور.. ورب العالمين يعلم الغيب في شراهة المسلم في الطعام لذلك ردع العباد شهرا كاملا عن الطعام لكنهم أسرفوا في الأكل أكثر من الشهور العادية ولم تعمل النصيحة بـ(صوموا تصحّوا).

أما في أول أيام العيد فتبدأ العائلة العراقية بالفطور المبكر بالكباب أو الكاهي مع القيمر (ماركة عراقية خالصة) أو طبق البيض المقلي مع الطماطة أو الباجه أو باقلاء بالدهن. شراهة الطعام في العراق تأتي تلبية لنداء شياطين المعدة، فعندما يتوقف العقل عن العمل تشتغل المعدة لتحل محل التفكير.

المطبخ العراقي لا يبالي كثيرا بنوعية الطعام ومدى صحيته وتأثيراته على الصحة العامة وعلى معدل عمر الإنسان العراقي الذي أفلت من غول الحروب، ووقع في آفة أمراض المطبخ العراقي الدسم وطبيعته الاحتفالية وبذخه في صفة الكرم الزائف.

عندما يتحول طبقا التمر واللبن عند استقبال الرؤساء والشخصيات الرسمية في المطارات العراقية إلى رمز وطني وتقليد وطني منذ عهد الملكية وحتى الدكتاتورية.. التمر واللبن ليس سوى دلالة صورة ذوقية رمزية عن طعام العامة..عن النخلة العراقية الشهيرة وعن اللبن العراقي.. مثلما يتحول لبن أربيل إلى ماركة شهيرة وناطقة. الشخصيات والضيوف الأجانب يستقبلون هذا الرمز على مضض كجزء من بروتوكول الاستقبال الرسمي.. ولو أتيح لتحديث الرمز الوطني من طبقي التمر واللبن إلى كباب سليمانية أو كبة الموصل لأصبحت الأخيرة بقدسية التمر الوطني.. وهذا التقليد الرئاسي تعمل به غالبية بلدان العالم، فالسعودية مثلا تقدم القهوة العربية دالة العروبة مع رقصة السيف العربي..

لم يعد الأكل من خلال آلية تبدأ من الفم وتنتهي بدروب ومتاهات الأمعاء الدقيقة والغليظة، من الفم واللسان والأضراس والقواطع يبدأ مصنع الهضم بآلية «فن التذوق» الأولى، وتنتهي بخاصية

الامتلاء والشبع، والتجشؤ وإخراج الغازات الطاردة بطريقة الانتشاء القصوى، تلك الغريزة المعقدة بحاجة إلى ردع وتشذيب المزيد من جنون الذات فيها، والقبض على شياطين الإغواء الحيوانية. عملية فيها الكثير من الكيمياء السحرية في تقليب أوجه المتعة الهضمية، يأكل بعينه وبشهية مفتوحة أوسع من استيعاب المعدة، فالعين تأكل كل شيء والمعدة تأخذ حاجتها فقط.. كذلك السجين في زنازين وأقبية النظم التعسفية والدكتاتوية تجعل السجين يمارس سطوة الحلم بكل فضائه ويكتفي في الواقع بكسرة الخبز المبلولة بالماء أو الشاي، حتى الأسير الجائع والعائد من الأسر الذي يأكل أسماء كل المأكولات ويلوكها بعد أن شبع من رائحتها التي جلبها المخيال الجامح، فسلوكيته أصابها نوع من الإرباك وذاته أصابها العطب البايلوجي إزاء خاصية كل مفردة من الطعام.

تُحدث الثورات والانقلابات وما أكثرها في تاريخ العراق المعاصر، فجوات وتحولات في فن الطبخ على صورة انقلاب ثقافي شامل يدمر التقاليد المحلية بدعوى الزاد الثوري المتقشف المصاحب للتحولات الثورية، وقد عملت جمهورية الثورة في تسعينات القرن المنصرم على إشاعة قانون الترشيق الجسدي للموظف من درجة مدير عام فأعلى وكذلك الكوادر الحزبية التي خضعت لنظام صارم من حجب الطعام عنها قبل أن تنال عقوبة عدم الالتزام بإنقاص الوزن والتخلص بأية طريقة من الزائد منه..كانت العملية برمتها مثار الضحك والمفارقة.. أنت ترى كيف ذُبلت الأجساد الضخمة لجسد الدولة المترهل وخلفهم الذات الكبيرة تصيح (التدريب.. التدريب.. التدريب).. أما الاضطرابات

السياسية في زمن الجمهورية، فهي تكبح التواصل والتجارة بين المناطق وتزعزع التوزيع والأسواق ويغدو مركز الثورة مقطوعا عن الموارد الحياتية الحيوية، كذلك إن مراكز التمويل التي شرعنت تفاصيلها بعد قرار الحضر الاقتصادي 1991 قد وزعت الرز والطحين على كل مواطن وفق جدولة ما يحتاجه المواطن في الشهر من الرز والطحين والسكر والشاي وفق نسبة غير واضحة المعالم.. تسعة كيلوغرامات في الشهر من مادة الطحين لكل ذات جمهورية وكيلوان من الرز لكل ذات، طبعا وضعت تلك النسب وفق مخطط هو الآخر فيه روح المفارقة، مما جعل معدة ذات الجمهورية تكبر في الحصار بدلا من أن تنكمش.. كيف تحوّلت ذات الجمهورية إلى مواد غذائية معلومة ومحددة لدى وكيل الحصة التموينية ورقما إحصائيا غذائيا ليس إلا.. وفي خضم الصراع الثقافي تتعرض الثورة لفن العيش الخاص بالمجتمعات الغنية وتهاجمه. فالمخللات ومنها الطرشي المعتّق يتطلب على سبيل المثال عملا على مدى أجيال لدى العوائل التي تمتهن تلك المهنة وما عُرف بطرشي النجف والموصل (المخللات) الذي يحتاج التعتيق وليس السلق، أصبحت شهرته واسعة للخبرة المتراكمة لصنّاعه وخبرتهم المتراكمة في هذا المجال.. إضافة إلى إن تحولات هذه المهن قد أصابها ما أصاب بعضها من خراب عام.. وفي غمرة الاستقطاب والتوتر تصبح الممارسة الغذائية نظاما من العلامات الاجتماعية التي تحتاج إلى فك رموزها بعناية فائقة.. فأهل النجف والموصل يمتهنون الخزن والعناية بالمخزون تفوق أهالي المدن الأخرى.. طبعا إن أهل الموصل هم الأكثر عناية وتذوقا لأصناف الطعام المتحضر والمركّز..

إن فن الطبخ وشؤون المطابخ في فكر رولان بارت يتطلب قليلاً من الحكمة والمعرفة وكثيراً من المذاق أو النكهة وهنا تكمن سر البلاغة الذوقية للمجتمعات وتعدد أطعمتها. وفي تتبعه لعالم الاستهلاك لاحظ بارت إن الأميركيين يستهلكون كمية من السكر تفوق مرتين ما يستهلكه الفرنسيون. فربط بين هذا الأمر وبين طريقة العيش الأميركية، وانتهى إلى القول إن السكر هو أيضا مؤسسة (أنظر نص بارت عن «الخمر» في كتابه «أسطوريات. وهذه تستدعي الصور والأحلام والمحرمات والأذواق والقيم الأخرى.. ذات الجمهورية تشرب الشاي بعد كل وجبة طعام وعندما شح السكر وارتفع سعره إبان الحصار التسعيني شربوه مع عصير التمر أو ما يسمى بالدبس، لذلك يعتبر العراق من البلدان المتقدمة في إصابات مرض السكري. إن تأثيرات وتجربة الحصار المرة والسلبية على الذات العراقية ستستمر لسنين أخرى طويلة وتحفر في رسم سلوكية جديدة ومغايرة لذات الما بعد.. لقد فرضت الأمم المتحدة حصارها المجحف دون أن تدرك مخاطر هذا القرار على الذات العراقية،فالتجربة كانت أولى ونحن ضحاياها.. ومثلما عززت مادة الرز الرئيسة في الحصة التموينية الإسراف الكبير من هذه المادة وقد دخل البلد في منظمة الغذاء العالمي بوصفه من البلدان الأكثر استهلاكا لمادة الرز..

وفي الماضي كان الاجتماع حول مائدة الطعام، في بعض المجتمعات، يشبه الطقس الديني الذي يحتفل بنعمة الوجود والاجتماع، لكن من دون كلام. ففي انكلترا، أيام العهد «الأليزابيثي»، كانت تؤخذ وجبات الطعام في صمت. وتعلم كتب الآداب الصينية والهندية القديمة ضرورة عدم الكلام أثناء الوجبات. الطليان أيضا اعتبروا إن «الكلام جيد في الساحة

العامة وليس على الطاولة». أما اليوم فتعود إلى الواجهة فكرة أن «الأكل» طريقة للمشاركة في صيرورة الطبيعة، وان الطعام الغرائبي (غير المحلي) يسمح بالحديث عن الحضارات الأخرى وعن العصور الغابرة. أما أهل العراق فيقولون إن النعمة تخرس السباع، بمعنى التوافق مع المجتمعات في العالم بالصمت المطبق أثناء مضغ الطعام ويؤجل الحديث إلى جلسة الشاي ليتحول إلى الشاي لطقسية عمل وانس ومنادمة..

ترى الأستاذة في جامعة باريس الخامسة نويل شاتليه، والتي تشتغل على نظريات الجسد، تجد في تجربة الأكل تجربة معقدة. كون هذا الفعل يحيل إلى ثلاث رؤى: «الجسم الآلة الهاضمة» إذ يتكفل الجهاز الهضمي عضوياً بتمثيل الغذاء عبر أقنية هاضمة ومعقدة نسبيا بالاستفادة مما هو ضروري للحياة وطرح ما هو فضلات خارج الجسم بعملية ميكانيكية تبدو إن الكثير من تفاصيلها معقدة نسبيا..

«الجسم الخيالي» (الذي يتأتى من المخيال ويختلط باللاوعي) فهو الحالم كما في حالة الصائم والأسير العائد من الأسر والسجين أو التائه في الصحراء، فهو يحلم بطبق الرز المحمص وعليه قطعة من لحم خروف مسلوق قبل أن تتحرك ذائقة الشم وتدفع الإفرازات المعوية إلى حالات الهجوم الحيواني المفترس طعنا بأخلاق المدن..

«الجسم المؤسَس» ذاك الذي تجعل منه الثقافة والمجتمع إنموذجاً. وفي كتاب نويل شاتليه «قصص أفواه» (1987) تبيّن من روايات الأشخاص المستجوبين أن عملية الأكل لا تجري على نحو حيادي، كما أن الطعام نفسه ليس حيادياً. فعلى كل الصعد يتعلق الأمر بالحياة وبسؤال العيش الذي هو في حركة دائمة. إن مجنون الشوارع يهاجم

عربات المأكولات المتجولة أو المطاعم الشعبية دون الشعور بالخوف من الشرطة، ذلك إن دافع الجوع كان أقوى من كل الاحتمالات.. في اللحظة الحصارية العراقية، ونأخذها كأمثلة متكررة لان الطعام كان حلما عراقيا جمعيا لذات الجمهورية في طورها الثالث، فيما الجوعى من الأطفال المحاصرين إبان الحصار الأمريكي في التسعينات يأكلون أظافرهم من الجوع..كانت الأم العراقية تضع الماء والبهارات في القدر المغلي، والأطفال الجائعون ينتظرون نهاية سعيدة لطهي الطعام، يحلمون ثم يحلمون لكنهم في النتيجة ينامون وهم قد شبِعوا من الحلم لعدة ليال قاسيات..

سيتحول الأكل إلى نوع من الحوار الحميم مع العالم الخارجي. فمادة الطبخ (كل متعلقات الطبخ) هي في ذاتها لغة، لأن المخيال المرتبط بالعيش يستخدمها كي يحلم. الأطعمة تخاطبنا البعض أكثر من البعض الآخر كونها حاملة لرموز قوية: الخبز واللحم والحليب والخمر نماذج مثالية في هذا الشأن، تلهمنا وتلهم مخيلتنا.وما قطع الدلالة على الطرق الخارجية للمرور السريع وفي البلدان المتطورة والعاملة برمزية وبلاغة الصورة، إلا أن ترسم ملعقة وشوكة مع صنبور ماء، هذه اللغة الجديدة يتلمس الجوعى الطريق إليها وتهيئة المعدة الخاوية، وتلك واحدة من لغة اللسانيات الحديثة في التخاطب عبر لغة موحدة تُعنى بالإشارة، في عصر الحداثة الاختزالي..

الأكل أيضا مسألة اجتماعية لها طقوسها وشعائرها، ففي فرنسا، على ما تذهب شاتليه، «الأكل مؤسسة»، أي فعل مقنن في ما نسمّيه آداب المائدة. وإذا كان «فن الطبخ» يقوم على تحويل الطعام إلى مأكل وصنف

من أصناف طيبة، فالطعام يعّدل في شكل الجسم الذي يمر فيه، والبطن الهاضمة يقترح (يوحي) على سبيل المثال صوراً متضاربة من الالتهام ومن الافتقاد ومن الشراهة ومن السمنة (شاتليه، «الأكل هو الحياة»، ضمن أبحاث حول «الأكل من أجل العيش»..

لأن العراق اقتطع من مسيرته التاريخية غير الاستثنائية ردحا من حياته في متواليات الحروب حتى أصبح تاريخه عبارة عن استثناء. انتشرت المعسكرات الحربية وجبهات الحرب اتّسعت وثكنات للهاربين وميادين لإعدامهم. حياة مفصولة عن حياة أخرى في ثنائيات المدن وبديلاتها أو تلك المتخيلة «يوتوبيا».

حتى غدت الحياة المدنية ترتدي بيرية عسكرية في أحسن الأحوال، حياة خاكية تماما، وتلك بخصوصها سردية مهملة، مركز التدريب أكبر من مدينة وحياته عامرة أكثر من وحشة المدن الخاوية، من باب النظام إلى مقر الإعاشة ثم الانعطاف إلى المطبخ ومن بهو الضباط.. عبر دوامة حياة عادية يومية يُقال لها استثنائية، وفي محاولة لتوأمتها مع الحياة المدنية.. يتحول المطبخ العراقي الخاكي في مراكز التدريب والوحدات الثابتة كمدارس القتال والمعسكرات الثابتة إلى سردية استثنائية إلى مرويات ومرويات مضادة. الأكل المطبوخ يتحول من حاجة تقف خلفها غريزة حيوانية، إلى متعة طقسية إبان تشرذم الذات الجمهورية وإصابتها بفوضى الشراهة بكل صخبها، ثمة وقت محسوب لالتهام طعام القصعة مع مجموعة الجند، وقت محسوب على صفارة العريف ينتهي شوط الطعام بـ(أنهِ).

مثلا في سني الحصار التسعيني وهي الفاعل السلبي لتدهور ذات

الجمهورية لسنين وأجيال قادمة، يتحول كباب البيت الجمهوري (كباب عروق أو كباب الطاوة) كوجبة عشاء تقليدية للذات الجمهورية فيها تعويم رسمي لمعظم العوائل الفقيرة والمتوسطة تدخل عجينته بدل اللحم كرشة الخروف والأمعاء وأحشاء أخرى تفرم مع البصل والبهارات، وفي الصباح على الذات أن تنهض وتذهب إلى المسيرة المؤيدة للقيادة ورأسها.

يتحول بفعل قسوة الحصار إلى «كباب هواء» بمعنى خاليا من اللحم، سوى الخضار المفروم مع البصل والكرفس، مثلما تحول قبله «مرق الفاصوليا» إلى مرق من هواء ببراءة اختراع من وحدة الإعاشة العسكرية، خالية من الفاصوليا، مما أصاب ذواتنا بخلل بنيوي إزاء ماهية الطعام بين الحاجة واللهو في حقبة الما بعد.

وحكاية الطعام في الحياة العسكرية لها صورة مغايرة عن الطعام في البيوت، ويعود السبب حسب المعايشة بطريقة إطعام الكم العظيم من الذوات في ساعة واحدة، التحاق ألفي جندي إلى معسكرات الجيش يتحولون بعد إلجامهم على طاحونات طعام فقط، وطريقة إعداد الطعام في المطبخ العسكري في القدور العظيمة والمجارف التي تخوط الطعام تذكرني بيوم القيامة.

حكاية: كنغر الجبهات

مطبخ مركز التدريب العسكري يستوقفني كثيرا، في النظر إلى فلسفة الطاعم الرئيس هو «عريف الإعاشة» أو ضابط التموين والمطعوم هم «الجنود المستجدون» في حياة العسكر، بيئة فنتازية عن الطاعم والمطعوم بصحيح العبارة، عندما تتعملق المغارف والمجارف العملاقة

مع قدور ديناصورية، إذ تتحول شوربة العدس إلى تلول عملاقة في بحر من حساء مفروم تسبح به مَعِدات الجند المستلبين.

في جبهات القتال يكون الأمر مختلفا، فالمطبوخ الممزوج برائحة البارود والتراب والدماء الآدمية أحيانا طعم لا ينسى. إن المطبوخ الخاكي سردية سرية بحاجة إلى فك مدلولاتها تباعا قبل أن يدثرها غبار العهود اللاحقة، فيما يكون لحم الكنغر طعما للقفز والنط المتواصل عبر السواتر يتحول فيها الجنود من مدججين بالسلاح إلى مسلحين بلحم الكنغر وأحلامه.

للمطبوخ العسكري في الخلفيات والمنقول في سيارة الإيفا ليلا إلى عمق السواتر رائحة لا تنسى، رائحة الشم تفوق حاسة التذوق واللمس، يحلم الجنود تباعا بشم روائح الوجبة الوحيدة الواصلة إليهم مع الضياء الأخير وفق مصطلح العسكر، وعبر التلال والوديان تصل ايفا الطعام وقد أصاب القدور الكبيرة بعض من الدخان والتراب والشظايا.. هل سيكفر الجنود بالنعمة؟ أم ينامون على حب الوطن ورفيف العلم الموّشى بخيط الدم؟ هل كان كافور الشاي في طقسه وأحلامه إبادة جماعية للمخيلة المتوحشة والجامحة في تمزيق طعم الإناث من المخيلة؟ سيدبّ دبيب الكافور في المخيلة الجنسية وتتحرك الأعضاء التناسلية وتتحول إلى خراطيم ماء للبول العسكري المتقطع متماهيا مع صوت الراجمات.

هل عاد الجند إلى محادثة الطبيعة الأولى في ضرب حجرين لولادة القدحة الأولى وعمل الشاي الخالي من الكافور؟ هل ضرب حجرين ستقدح المخيلة بعد سباتها وتحظى بشبح أنثى؟ أو جندي / غلام في أضعف الأيمان؟ هل كانت «الأرزاق الجافة ـ أرزاق معركة» طعاما يفتح

قناة الألفة بعد التوحش في الوديان أم يزيد الذات توحشا في ظل الطبيعة الأولى؟ جنود الصولة وهم أما مغاوير أو قوات خاصة أو صاعقة يلتهمون لحم الكنغر بشغف قريبا من جثث متفسخة لتتوحش الذات وربما ينتقل هذا التوحش في جينات الوراثة، فعندما يشبّ صراع بالأيدي والقنادر بين كلب صحراوي أليف وجندي صاعقة متوحش لانتزاع لحمة مجردة، ولفتح فكي الكلب عن جثة ذات جمهورية متفسّخة تتدخل المفكّات والكلاليب، وبالضبط يتكرر هذا قرب مواضع حدود جمهوريتنا.. قال أعمى الجمهورية: ماذا نأكل بعدما أكلتنا الكلاب المكلوبة يا سيدي أيتها الذات الكبيرة، هل تأمرنا بأن نأكل الكلاب؟ ننتظر مكرمتكم سيدي.

هل كانت ذات الجمهورية مشروعا لأكل أبناء جنسها مثلما تأكل الأسماك لحم الجند الطافين في شط العرب إبان حرب الثماني؟ هؤلاء المغدورون في نهر دجلة هم أيضا وجبة طعام لسمك الشط.

فيما ذوات عراقية جديدة تستمتع بشيّ السمك المسقوف على أضلاع الجمهورية.. كيف يزيح الزيت البشري المتشبع بزيت السمك العراقي؟ حقا إنها مفارقة كبرى لا تمحى من ذوات جمهورية.

❊ ❊ ❊

ثالثا: حوار شياطين المَعِدة

حكاية: عدس المدن

رجل خمسيني يبيع شوربة عدس بثلاثين فلسا، يدعى حسن درج في مدينة جنوبية قاحلة، محله تحت درج بناية فسمي بحسن درج. ذات يوم قال له أحد الزبائن:

ـ أبو فلاح وجدت مسمارا في ماعون الشوربة.

انزعج حسن درج أمام الزبائن ففكه الموضوع بخبرة المحترف:

ـ أنت دافع ثلاثين فلسا ووجدت مسمارا، شتتوقع يطلع لك تلفزيون؟

وقالوا في آدابهم أن الأموات من الجنود يحبونها أيضا أثناء موتهم. فهي سهلة المضغ وتزيل إمساك الأمعاء وتقلصات الموت الزؤام، ورخيصة الثمن وسهلة الطهو.

لا أعتقد أن الجيوش العملاقة تقوم على تغذية جنودها بالعدس فقط مثلما تفعل المؤسسة العسكرية العراقية، يدخل كوجبة صباحية لجميع العسكر عند ساعات الفجر الأولى قبيل التدريب الصباحي بساعة واحدة، الصائمون في رمضان يستهلون هجومهم الوحشي على الطعام بطبق منها أيضا.

يمضغ الجنود وضباطهم لحسائها وهو يفور كالبحر الهائج في القزانات الضخمة سواء في باب المطبخ أو بالقرب من مخزن الإعاشة أو في العراء المفتوح، وتكون جاهزة أي خدرانة على قول عريف الإعاشة مع طقطقة البريق، مع أول الغبش حسب تعليمات القسم الثاني.

العدس كما الماش هي حبيبات الله مهداة إلى الفقراء في بيوت التنك والحواسم أو للجند الصابرين على موعد الموت.. تُسلق حبيبات العدس على نار حامية في أول الليل على أيدي طباخي الجيش الأشاوس، وبعدما تتحول إلى اللون الخاكي تصبح حساء الجند في فطورهم الموحد، تعزل عن النار لتكون جاهزة للتوزيع في أول الفجر. قال أحد الجند في حكايته:

ـ أيتها العمارة من الفكة إلى نهر دويريج، أيتها المدينة من الطيب إلى جبال القوق، ثم تنحرف الإيفا إلى ديزفول حتى تلال الله أكبر وأخرى تذهب نحو الشيب.. تمشي الهوينى تجر حديدها المتهالك على مهل وقزان الشوربة خالٍ إلا من المس العظيم، كان صوت أبي خالد (سعدي الحلي) مسموحا به آنذاك يشق عباب البراري (وخالاتك يلقبنّك يا شفاف.. بالنسبة الجمالك)، فيما راح السائق يغني مع الموتى الذين تم إخلاء جثثهم ترنيمة حزينة من النشيد الوطني السري للجند (حبيبي أمك متقبل)، وثمة إيقاع لقصع مخسّفة تقرقع مع الغناء والطسات لتثير رغوة المشهد المعتم هذا.

كانت القصع مملوكة إلى مقرات الإعاشة ومسجلة كذمة إلى مقرات الفصائل أو في سجلات السرايا وإعاشة الأفواج والألوية والفرق والفيالق.. يتحلق حول القصعة الواحدة عشرة أو ثمانية من جند خلعوا خوذهم وبساطيلهم وجواربهم الخائسة التي تُصيب المستنشق بالنكاف.. يلتهمون شوربة العدس بملاعق صنعوها من علب جبن الكرافت الزرق، فيما المواعين هي من خوذ مثقّبة.. تبدأ دورة الجالي من المعدة إلى المريء في الاهتياج الأول، وفي الثاني من المعدة إلى الأمعاء الغليظة وفي الثالث هو إسهال يجعلهم يهيمون بين الشقوق والمواضع المتروكة والمقصوفة التي غدت مراحيض رحبة مزروعة بألغام.. ثمة ذباب طنّان أزرق كبير يحرس المكان وخنافس جعليّة.. قال أحد العرفاء: شوربة العدس نار الحرب المستعرة في المعدة، ثم قال عريف متملّق: لكنها بقوليات خالصة تساعد على التركيز وقوة الإبصار

في فرز العدو من الصديق.. ثم أسعفه نائب ضابط متحزّب: سهلة الخزن في مخازن إعاشة الجيش في الفيالق والفرق والألوية.. سهلة الطبخ / اقتصادية في نار السلق.. كان جيش الإسكندر هو الذي أقرها مع التحية العسكرية باليد المنثنية إلى حافة الأذن.. كل جندي لم يذق طعمها الصباحي فهو لا يعرف معنى لحب الأرض.

حكاية: حوارية الموتى

كتب أحد الكتاب في جريدة صفراء آنذاك ما نصّه:

بم تُنبتُ أرضكم أيها الجنود؟؟ أمن بقل وقثاء وثوم وعدس أحمر وبصل أخضر كما سمعنا وصلّينا وتعبدنا وتذوقنا؟ أم من أحلام ضببّها النسيان وغيّبها الفقدان، وجففتها رائحة التصاوير المحنّطة على جدران غرف المعيشة، لمَ تبتسمون في الصور ورائحة الكافور والسدر المُطّهر تشع من صوركم المنسية في مقبرة السلام أيها المنسيون.

أيها الكافور كُنْ منصفا.. نلتهمك بنقيع الحساء وشاي الحانوت، مغمّسا بشوربة العدس، أعضاؤنا في لحظة سباتها العميق تتشبّع فيِ السدر والكافور، والأعمى: أنت كافر أيها الكافور، ولفرط ما تناولَ من شوربة عدسكم الخاكية حتى اصطبغت بشرته بلونها في لحظة غياب كبرى.

والشهداء يتظاهرون في كل حين، يسألون ولا من مجيب:

أين الموز؟ أيصير عدسا.. أين الماكنتوش؟ أيصير عدسا..أين لحم الغنم؟ أيصير كنغرا مكفّنا زنخا؟؟ أين سكائر سومر سن طويل؟ صارت مزبّن وبغداد.. أين بغداد خارج سكائر بغداد؟ أين النيدو والحليب

السائل؟ أعدسا هو الآخر؟ طز وألف طز.. أين جبن الكرافت الأصلي إذن؟ أعدس في عدس.. أين بدلات النايلون الرومانية؟ أعدس هي الأخرى؟ أين المواضع الكونكريتية؟أعدس أيضا؟؟ هل اكتفيتم بطبيخ العدس؟ هل كبيركم يحب العدس أم ماذا؟ هل أنتم ونحن عدسيون بالفطرة والنشأة؟ أم هذا من وحي السيد نائب جمهورية للذوات كلها.

ولطالما تداولنا في لحظة طيش مفردة (نائب) من العريف حتى نائب ضابط ونائب المحافظ إلى نائب رئيس.. قال الجندي: كل نائبٍ من هؤلاء له أثر في هشيم ذات الجمهورية المُعاقة.

أما أنت فقلِ: دخيلك يا صاحب الأرزاق وموزّع طبيخها على السرايا، وأنت عريف الإعاشة الأعور، قد أُقُلعتْ عينك أثناء هجوم البسيتين وفي جزيرة أم الرصاص قدمك/ وفي نهر جاسم يدك/ وفي لسان عجيردة عضوك المحروس/ وفي البيضة والسودة قدمك الوحيدة / وفي الحويزة الفقيرة أذنك/ وفي تيه المحمرة وأم الخنازير والشوش وديزفول وعبادان والخفاجية والمملحة ورأس البيشة وكردمند وحاج عمران وتلال الله أكبر والفكة بفرعيها وزرباطية والطيب وسيف سعد وقصر شيرين ومهران ما تبقى من الأعضاء الزائدة عن حاجة الوطن والتراب.

(إلا الحرب فهي ملاذكم للعليين، أيها المقاتلون الأشاوس البسلاء، ملاذكم من موت الشوارع أو موت البيوت. اذهبوا إلى الأمام ولا تتراجعوا عنها زرافات وأفرادا فتلك نزهة المشتاق..) من خطبة السيد آمر اللواء قبل بدء الصولة.

قال أحد السكارى من الجند الملتحقين من غاية الإجازة: بارك الله ليس فينا مثلما قالوا بل بالبطون التي أنجبتنا، مثلما دسوا سمّ صراخهم العالي في عيوننا.. طز بالحرب. صاح به أحد الجنود الملحان:

ـ لا تكفر... ألم يقل «الفيل الذي طار» أنها مقدسة.؟

ـ كل شيء مقدس.. ونحن متى نصبح مقدسين؟

ـ عندما تموتون.. ستضع أمهاتكم صوركم على توابيتكم، ويلفها علمنا المقدس يطرز جثثكم ليأكل نسر الجمهوريات الخمس من لحمك.

ـ طز.. لا بل طزين.. آنه بعدني سكران.. ليس على السكران من حساب أو حرج يُذكر..

قلت لهم:

ـ إياك أخاطب يا عريف الإعاشة واسمع أنت يا سائق الايفا: دثّرها بمعطفك وأعد إغلاق غطاء القزان كيلا تنّط الفئران والجرذان السود والمسامير الصدئة في بحر حسائها ثم تشفطه البطون العميَ، يكفي ما حمل الحساء من أتربة ناعمة وامتزج حدّ التجانس بين حبيبات الرمل الناعم ودخان البارود.. لتلال الله أكبر في شرق عمارتها عدس مهروس على نار مجنونة، مذاقه إسمنتي ورائحته بما ترك حصان العربة من روث في الشوارع الخلفية لجمهورية الثورة..

أشكو من حموضة شوربة العدس وثقلها على المعدة.. آمر التوجيه السياسي.. قال: ما بها يا قشمر، أنها مكرمة القيادة.. هنا مصنع الرجال

وعلامته المسجلة شوربة العدس.. لم تمضِ بعد من حجرة المعدة إلى طرق التصريف الأخرى كل ما في الأمر إنها بطيئة المرور ليس إلا.. شوربة العدس هي فطور وعشاء الشجعان، وأي شجعان مغفلين يا الله.. الشجاعة تتحول إلى جريمة كبرى.. ماذا تريد أكثر من شوربة العدس، أتمّن ومرق مثلا؟ هذا في الخلفيات والوحدات الثابتة.. مرقة هواء/ أم لوبيا/ أم بصل/ أم قرنابيط/ أم شلغم؟ اذكروا الله لا يقلبها بنا ولد البساطيل.. قال نائب ضابط مسلكي..

ـ أنا لا أحب مصنعكم هذا يا سيدي.. إلا يوجد مصنع للنساء؟ كنت أود قول ذلك فلكزني آخر قائلا:» استرْ علينا يمعود.. السيد الآمر مزاجه غير رائق هذا الصباح، تحوّل إلى قضيب هائج، فابتعد قدر ما استطعت.. لقد وضعه على متنه وتحت إبطه في الظهيرة وفي الليل بيده وهو خلف المراسل.. صار له شهر هنا في القفار.. بعثوا له بواحدة مدنية ويريدها بوزن لا تقل عن الثمانين على أن يكون نصف وزنها في المؤخرة.. ولكن استخبارات الفرقة أعادتها إلى خيمتها على تخوم المدينة بحجة الحفاظ على سرية الحرب.. يقال انه يستخدم يده أو المراسل أحيانا.. أو المطيرجي / الكببجي/ أو صاحب النكات أحيانا أو احد جنود الخردة.. المهم إن أحد الملتحقين من بطانته/ الله اعلم ليس لنا حاجة بذكر أسرار الجيش فالجمهورية قائمة).

إيه كم إيه؟... إيه أيتها الأوهام الصغيرة ألا تغدين أحلاما كبيرة لينفضّ الأمر برمته؟ أما سيارة الأرزاق: فهي عربة ايفا شقراء مشطبة باللون الزيتوني تشبه سمكة مشوية أكلتها القطط.. خرجت من أرض الخلفيات مع الضياء الأول ووصلت السواتر الأولى عند الضياء الأخير

ساعة مغيب كابية/ شفقية.. الايفا تلهث لا تقوى أن تزّمر فالقناصة تسمع زمرتها وتقنص سائقها أو تثقب قزان شوربة العدس وتتبدد حبيبات العدس في ظلام السواتر.. أيها الذات كم مرّت عليك المآسي وحفرت أكثر من خندق فيك؟ فطور الجند في الساعة السادسة مساء حسب أبجديات الحرب..هناك شوربتكم الموعودة فهم عند التلة المقابلة يا سيد التراب يوزعونها على السرايا بمجرفة شقوق النار.. قال: وصلت سيارة الأرزاق فاخزنوا طبيخ عدس اليوم إلى الغد.. فالعدس الأحمر ينفع في اليوم الأسود.. حذار أيها الجنود لا توقظوا الموتى للفطور دعوهم يحلمون في الحياة الهانئة إنهم يداعبون منكرا ونكيرا في الشقوق وبين الحفر وعند حقول الألغام فقط نشوا الذباب عن أفواههم المتهدلة.. أزيحوا التراب عن كشرة أسنانهم.. أما المصابون فاحملوهم حملة واحدة وإلى سيارة الأرزاق لإخلائهم وهم فرحون برؤوسهم، علّهم يصلون سالمين عند طلوع الفجر الجديد.. كم من حبيبات العدس نبتت في بطوننا؟

(دعاة الحق من الجيش المنحل) قالوا: لَعَنَ الله بول برايمر من يوم مقدمه حتى وفاته.. الم يعلم إن شوربة العدس نعمة فضيلة على المتحاربين؟ هي خير له من لفّة همبرغر تافهة.. خير من حساء شارلي شابلن عندما يشتد الحصار في فيلم الأزمنة الحديثة.

فيما قال أحد الأعراب الأقحاح من الذين يدين بشدة متناهية ويحتج بقوة ويتظاهر بسهولة: أن بول برايمر قد تزوّج من فتاة عراقية تدعى سْليمة وأصبحت (بول سلْيمة)، وعندما يحشر الله برايمر مع زوجه في النار فإن ابن القارح بطل رسالة الغفران سيبصق عليه ويطالب علنا

بإزاحته من النار إلى الجنة بعيدا عن الشعراء المحشورين سلفا في قاع الجحيم فهم غاوون من اللب إلى القشر..

أما برايمر ذاته فقد سنّ سنّة سيئة عندما أصدر القرار المشؤوم في إلغاء شوربة العدس من وجبة فطور الجيش الجديد بوصفها من مخلفات الجيش المنحل، لكن القصد الأكيد من قصدية الإلغاء هو أعمق مما ذهب إليه محللو الجزيرة والعربية، فقد كان القصد من قرار الإلغاء هو زرع روح اللامبالاة والكسل والتخبط في فراسة الوجوه الكالحة لروح الجندية الجديدة.. كذلك خوفا على الجند مما يقع في قزان الشوربة من رصاص وذباب ومسامير وحطام شظايا.. برايمر حجب عن جمهوره في سنته القدرية مما توجّب أن يقوله عن أرزاق الجيش بحلته الجديدة، كذلك حجب كاتبه الآخر في الكتاب الثاني (ما لم يقله برايمر) عن عمد وضغينة مبطّنة وسياسة قديمة في كبح الأسرار.. سيصدر كتابه الثالث (ما لم يقله برايمر في كتابه الثاني)

عودة أخرى إلى تأريخ شوربة العدس:

لماذا بيوتنا لا تطبخ شوربة العدس إلا في رمضان؟ ألم تكن هي فاتحة للطعام؟ ألم تليّن الأمعاء وتغذي الأحشاء؟ ألم تطبخ أم اليتامى كضبة العدس في قدر أسود على نار الحطب؟

نائب الضابط هو ذات جمهورية أصيلة تكرّس الإذعان للأعلى (الآمر).. والإهانة للمادون(الجندي)، غير أن هذه الذات أصيبت بأمراض نفسيّة كبيرة، فهي لم ترتق إلى الأعلى ولم تنزل إلى المادون.. هذه الخاصية أصبحت لازمة سلبية حتى بعد سن التقاعد. ذوات جمهورية منتمية بشكل طوعي لخدمة الأنظمة وقد قامت بعرض

خدماتها إلى الجمهورية المتعددة ولكن من دون جدوى حالمين في دور المخبر السري، لم يعد تحت إبط كل واحد منهم سجل لأبناء منطقته، العمل الطوعي وروح المراقبة للآخرين تجعل كل واحد منهم يتحسس كينونته وشاعرا بوجوده. إنه يأمل أن يقدم خدماته إلى أي أحد شريطة الإحساس بالوسطية.

حكاية: نائب ضابط عدس

روى لي احد نواب الضباط المنحلين واسمه عدس محمد ناظم ومغرم بأكل العدس أيضا، والذي كان مستمرا على تسلّم منحة الطوارئ التي تتلكأ في مواعيدها، عن أشجان شوربة العدس.. وكان الأخير يعمل في مديرية الإعاشة العسكرية قال:

كانت الكمية المسجلة (200) غرام زائدا إلى كل جندي أدخل القوة والقدر وعندما تم إخراج الجيش من المحمرة سباحة أو على البراميل الطافية في شط العرب تلاحقهم لعنة القناصة يلقطون بمزاج كل من اقترب من الشاطئ الآمن لشط العرب.. تناقصت الكمية حتى(125) غراما ناقصا تعطى فقط للمسجل في أوامر القسم الثاني والذي ادخل القوة والقدر فعليا.. القدر هنا بكسر القاف لتمييزه عن قاف القدرية المفتوحة في صفحة شط العرب أو قِدر الحصار التسعيني الشحيح.. ثم توالت مراحل الهبوط لحبيبات العدس حتى غدت(10) غرامات فقط بضمنها حبيبات حب أكراد أو حصى ناعم قد استقرت في الكلاوي أو في غدة الصفراء..

غدت بيوت الحواسم دافئة في الشتاء وباردة في الصيف من قدرة الله، بعد أن تحولت أفران الجيش الجمهوري بيوتا لهم، فهي عتيقة

ومباركة.. الجيش يعمل بالتقانة الجديدة التي أصابت العالم بالشلل.. لا يعرف الحك والشطب..لا يدخل خريطة الرمل إلا عندما تؤشر عصا التبختر ذلك.. جيش يأكل الدجاج وذوات وسطى تشم العظام.. لا يوجد في قاموس تدريبه إزعاج ليلي أو تدريبات عنيفة أو مسيرة تحمليّة أو فرضيّة تحمّل.. الجيش الجمهوري يأكل الأفاعي وينهش الكلاب ويمزق القطط وينام في المياه الآسنة.. فيما الحالي فأنه يضرب على الحواسيب وإجازاته مفتوحة.

جيش لا يأكل شوربة العدس الحجرية ولا يصعد الإيفا ولا يمزّق الكلب إربا والأفعى اليافعة تمزيقا هو شعب ذوات متحولة.. شعب يحلم بالعدس أكثر من أحلام ذواته في مآلات مصائرهم. هو شعب ذوات جمهورية قابلة للتفكك والموت السريري..إذن هي فوضى مرعبة.. فوضى مصير، بل فوضى مصائرنا كلها.. فوضى صيرورة وزوال ذواتنا ما تقدم منها وما تأخر.. ملكيون أم جمهوريون.. أم ما بعد..

انتهى

هذا الكتاب يتناص في مواضع كثيرة مع كتاب «تمر ولبن» الصادر لي عن دار تموز 2011، اقتضى التنويه.

***

صدر للمؤلف:

* شرنقة الجسد	(رواية)	بغداد
* زوال	(مجموعة قصصية)	بغداد
* خريطة كاسترو	(رواية)	سوريا
* سلة المهملات	(كتاب سردي)	سوريا
* أمكنة تدعى نحن	(أدب مكاني)	سوريا
* ذيل النجمة	(رواية)	سوريا
الباب الشرقي		
ابن شارع سرد سيد اسود باذنجان سرد تمر ولبن		
* فندق كويستيان * أطلس عزران البغدادي * فاليوم عشرة	(رواية) رواية رواية	

إيميل المؤلف alzaydikh-yahoo.com

هاتف المؤلف 07706902422

العراق ~ بغداد

